عصاميّون عظماء

من الشرق والغرب

بأقلام

نخبة من كبار الكتاب

الكتاب: عصامّيون عظماء.. من الشرق والغرب

الكاتب: نخبة من كبار الكتاب

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

عصامّيون عظماء.. من الشرق والغرب / نخبة من كبار الكتاب
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٥٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٣ – ٨٤ – ٦٨٣٧– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦٣٠٧ / ٢٠٢٠

عصامّيون عظماء

من الشرق والغرب





مقَدمة

الحياة منذ الأبد فسيحة للذين يبصرون آفاقها، والأرض منذ القدم غنية للذين يستطيعون أن يستخرجوا خيراتها، ولم يأت جيل من البشر إلى هذه الدنيا إلا ليجد فرصة تنتظره في ميادين النشاط التي لا يمكن أن تخمد ما بقيت الحياة الإنسانية.

والحياة على قدمها تتجدد دائماً كل جيل من الأجيال المتعاقبة، والآفاق المشرقة تتجلى دائماً لكل من يريد أن يرتاد مطالعها، ما دامت نفوس الناس وطبائعهم تحتفظ بالجذوة التي وهبها الله للجديرين بالحياة.

وقد كانت الحياة من ناحية أخرى تضيق منذ الأزل بالذين لم يستطيعوا أن يبصروا، وكانت تضن بخيراتها ونعمها المادية والمعنوية على الذين لم يستطيعوا أن يؤدوا أدوارهم كما يؤديها الجديرون بالحياة. كانت الحياة دائماً مجدبة خاوية أمام الأجيال التي لم ترسم لنفسها غاية تحرص على الحياة من أجلها ، فالنجاح والخذلان والقدرة والعجز تسير جنباً إلى جنب منذ بدء الحياة، والفرق بين حالي السمو والإسفاف ينشأ من قلوب الناس أنفسهم، لأنهم هم الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم عندما يختارون طريقهم في الحياة ويحددون لأنفسهم غايتها ووسائلها.

الحياة الإنسانية مغامرة متجددة في كل عصر، لأنها تعرض على

الأحياء في كل جيل أنماطًا شتى من الآمال والدوافع والفرص، وتدع الناس يختارون لأنفسهم ما يشاءون منها، ويتحملون عواقب إختيارهم بغير هوادة أو تسامح. ولهذا لم تخل العصور المختلفة من وجود النوابغ النابهين ووجود الهمل الخاملين، كما إنها لم تخل من وجود الأمم الحية القوية والأمم الضعيفة المنحلة.

الحياة تجدد مناظرها أمام كل جيل، وتلون لهم الدوافع والأهداف بألوان مبتكرة في كل مرة وتنوع لهم صور العقبات التي تلقيها في سبيلهم، حتى يخيل إليهم أن الأجيال السابقة لم تجرب شيئًا من هذه التجارب التي يمرون بها، ولكن الحقائق الأبدية دائمًا واحدة وإن تغيرت مناظرها وألوانها، والمغامرة الإنسانية دائمًا واحدة وإن تجددت مواقعها وميادينها. فنحن جميعًا سواء كنا من الأفراد أو الأمم، نحن البشر الذين ينتشرون في أركان هذه الأرض الفسيحة من مشارقها إلى مغاربها، نشترك في مغامرة بغير أن نفطن إلى هذه المشاركة، وهذه المغامرة التي نشترك فيها في عصرنا هذا حلقة من سلسلة طويلة مرت منها حلقات كثيرة وما تزال منها حلقات كثيرة أخرى في طي الخفاء وراء حجب الغيب، والحلقات المختلفة من هذه المغامرة الإنسانية الأبدية هي السر الأكبر في كل ما أحرزته الانسانية من التقدم في الحضارة والعلوم والأفكار والمباديء.

كل جيل يخلف وراءه تراثًا من ثمار تجاربه ونشاطه لكي يبدأ الجيل التالي من حيث إنتهى الجيل الذي سبقه ، ولكن الأمم والشعوب المتشاركة في هذه المغامرة العامة ليست سواء في نصيبها من المغامرة. كل منها يختار

لنفسه آماله ودوافعه وفرصه ويتحمل عواقب اختياره، فمنها أمم وشعوب تسمو وتسود، ومنها أمم وشعوب تلهو عن السمو والسيادة إذا ضللتها قلوبها وعقولها عن الغاية الجديرة بالحياة الإنسانية.

ومن الأمم والشعوب من ينحرف عن جادة الحياة عندما يخرج عن جادة العدالة. فهي تنصرف إلى مغامرة تافهة تتعلق فيها بالسفاسف وتنحدر فيها مع الميول والأوهام السخيفة فلا تستطيع أن تتبين الغاية الكبرى التي أعدت للبشر. ومثل هذه الأمم والشعوب تهوى مع ميولها وأوهامها إلى مصيرها المحتوم الذي يسيطر فيه الطغيان والفساد والخمول. عند ذلك تتحول مغامرتها إلى مسخرة تنطوي على النفاق والحرص والجبن والأنانية.

ولقد مضى علينا دهر نحن معاشر الشعوب العربية، كنا فيه وياللأسف نخبط في حياة مزيفة. كان ميدان الحياة عندنا مسرحًا للميول التافهة والأوهام السخيفة. وكانت عوامل الطغيان والفساد والخمول تسيطر علينا وتجرفنا عن جادة العدالة. وكان نظام مجتمعنا نتيجة لهذه الحياة المزيفة قائمًا على حدود ظالمة، وإمتياز طبقة من الأمة على ما سواها، فبعدت كل أحوالنا عن العدالة. كان البعض منا يستند إلى سيطرة الطبقة التي ينتمي إليها في حدود النظام الجائر الفاسد، على حين كان البعض الآخر يحرم من فرص الحياة وتوضع في أقدامه القيود الثقيلة حتى لا يستطيع النهوض. وكانت شرعة الطغيان تجعل كل خداع مباحًا وكل غش ممكنًا وكل تزييف مقبولًا. ولهذا صارت السيادة وقفًا على البعض دون

البعض حتى آلت آخر الأمر إلى سيادة من لا يستحقون أن يكونوا سادة.

وكان من أكبر ما يثير قلوب المفكرين وطلاب الحق والعدالة أن هذه الحال قد أدت إلى خذلان الشعوب العربية وهم ورثة أمة إستطاعت في يوم من الأيام أن تكون في ذروة المجد الإنساني في شتى ميادين النشاط وأن تخلف للبشر جميعًا تراثًا نفيسًا في العلم والفن والأدب والمثل العليا.

كانت الأمة العربية في وقت من الأوقات هي أمينة الجنس البشري على الحضارة وهي رائدة التقدم في كل ميادين الروح والعقل والفن. فما كان أشد على النفوس من أن تنحدر هذه الشعوب إلى مهاوي الضعف والإنحلال وتلقى مصير الشعوب اللاهية في أهوائها وأوهامها.

ولكنا بحمد الله قد نجونا من الهوة التي كان ذلك العهد المظلم يسوقنا إليها، وأخذنا في سبيل تحطيم الطغيان والفساد، وعقدنا العزم على أن نفتح ميدان الحياة على مصراعيه، ونبيحه لكل من يريد أن يجول فيه.

هكذا تصير مغامرة الحياة جديرة بالشعب الذي ورث عن أجداده تقاليد المجد الرفيع وهكذا يستطيع الجميع أن يقفوا وجهًا لوجه أمام ظروف الحياة وأمام الطبيعة التي لا تعرف المحاباة ولا التزييف، ولا العوامل المصطنعة أو الحدود الجائرة.

لقد آن لنا أن نستقبل الحياة بكل ما فينا من قوة الإرادة والعقل والروح لنعيش كما عاش أجدادنا من قبل، وكما تعيش الأجيال الحية المجاهدة التي تستحق نعمة الحياة. هذا عهد جديد يطلب من أهل هذا

الجيل من أبناء الشعوب العربية أن يقوموا بأداء واجباتهم التي فرضها ميراثهم العظيم من أجيال الآباء، ذلك التراث الذي تعاون على تكوينه كل الأسلاف الذين حملوا أمانة التقدم الإنساني مدى قرون كثيرة. وعلينا نحن أن نضيف إلى هذا التراث العظيم نصيبًا من إبتكارنا ومن نشاطنا ومن تفكيرنا. فهذا هو سبيلنا الوحيد لتحطيم بقية القيود التي خلفتها لنا عصور الإنحراف والظلام. وعلى شباب هذا الجيل خاصة أن يسارع إلى معرفة نفسه حق المعرفة وأن يتغلغل في أعماقها ليعرف ما يستطيع وما لا يستطيع ويرسم لحياته غاية يحرص عليها ويحب أن يحيا من أجلها ويبذل لها كل مقدرته وكل إرادته وكل عاطفته بل يودع فيها روحه ليكون تحقيقها تحقيقًا لوجوده. لكل منا جانب خاص يمكن أن يكون موردًا عزيزًا للخير والبركة إذا عرفه وأخلص في الإستفادة منه. وكل من يقدر على التفوق في ناحية من النشاط الإنساني يمكن أن يصبح من رواد الإنسانية إذا إتجه بقلبه إلى الإنتفاع بهذه الميزة. قد يكون العامل الصغير رائدًا للإنسانية إذا عرف من نفسه ناحية يتميز بها ويعمل على إستغلالها كما قد يكون الزارع والطبيب والمعلم والأديب والفنان. كل منا يكون من رواد الإنسانية إذا عرف ناحيته التي يبرز فيها وركز كل نشاطه في خدمتها. ونحن في هذه الفترة من حياتنا نعيش في عهد إنتقال من عهد العبودية والطغيان إلى عهد التحرر والعدالة، وهذه الفترة من أخطر الفترات التي تمر بها الأمم في أول عهود نهضتها. ذلك لأن الشعب المطحون إذا خرج من تحت النير الثقيل لا يتأتى له أن يثب مرة واحدة في الفضاء الطلق. وعندما تتحرر النظم وتزول الحدود والعقبات القديمة تبقى آثار الماضي في داخل النفوس

والضمائر تعمل عملها في خفاء. فالمستعبدون يحتفظون بكثير من آثار الطغيان حتى بعد أن تفك قيودهم، وعليهم إذا أرادوا التحرر حقيقة أن يجاهدوا أنفسهم وضمائرهم أولًا.

هذا هو الجهاد الأكبر.. هذا هو الجهاد الذي يحتاج إلى كل عزائمنا وكل إخلاصنا وكل صراحتنا. والترياق المضمون الكفيل بتطهير الأنفس والضمائر من آثار الطغيان هو نفس الدواء الذي يعد الشعوب للثورات على الطغيان، هو تحويل الأفكار بالعلم والبحث وتحريك القلوب بالفنون والآداب.

إن هذه النهضة الحديثة التي عمت الشعوب العربية ومهدت لها السبيل إلى الوعي بحقوقها وبوجودها، إنما هي وليدة للتراث العلمي والفني والأدبي الذي خلفه لنا العلماء والفنانون والأدباء في عشرات السنين الأخيرة، مضافًا إلى التراث القديم الذي خلفته الأجيال المجيدة الأولى. فإذا كنا نريد حقًّا أن نطهر نفوسنا من آثار الماضي المظلم وأن نزيل كل ما علق بها من سمومه وأدرانه، وإذا أردنا أن نداوي العقد الفكرية والنفسية التي خلفتها لها أعوام طويلة من الفساد والإسفاف، وإذا أردنا أن نوجه بصائرنا وأبصارنا إلى آفاق جديدة وغايات سامية في حياتنا. إذا أردنا ذلك كله كان لابد لنا من حركة علمية جديدة وحركة فنية أدبية تدفعنا إلى الأمام وتنير لنا طريقنا الذي بدأنا السير فيه.

إن من أشد الأخطار علينا أن ننسى أو نتجاهل قيمة الفكر والفن والأدب أو أن نضعها في غير المكان اللائق بها في مقاس القيم التي نقيس

بها شؤون حياتنا. إن الفكر والفن والأدب تنمي ثروتنا الإنسانية ولا أظن أن أحدًا يجادل في أن الثروة الإنسانية لها المحل الأول بين أنواع الثروة. قد نستطيع أن نبني وأن نعمر وأن ننشيء المصانع والخزانات وأن نمد الطرق ونختط المدن والقرى وأن نتم كل ذلك على أحسن الوجوه وأبرعها ولكن هذه الإصلاحات تذهب كلها هدرًا إذا لم تدعمها تنمية الثروة الإنسانية. المستشفى بغير الطبيب الإنسان الشاعر بمسئوليته المتحرر من آثار العبودية والفساد لا تزيد على بناء خاو خرب، والمدرسة بغير المدرس الإنسان الشاعر بجلال وظيفته والمخلص في الإيمان بحريته والعامل على تحرير تلاميذه تكون سوى مجموعة من حجرات فيها مقاعد جلوس للأطفال، بل قد تكون أسوأ من ذلك وأقل قدرًا. وهكذا كل المنشئات وكل المرافق المادية لا تساوي شيئًا إذا لم يملأها العنصر الإنساني السامي.

فكل حركة تؤدى إلى تقوية الفكر والفن والأدب تخدم مستقبل هذه الشعوب العربية الطامحة إلى العلا والحرية والعدالة، وكل عامل على زيادة هذه الحركة يؤدي خدمة جليلة لإخوانه من أبناء هذه الشعوب العربية.

وقد كنت منذ حين أحاول القيام بشيء من واجبي في هذا الميدان الذي أظن أني أستطيع أن أجول فيه بقدر طاقتي، لأشارك في التوجه مع قومي من أبناء الشعوب العربية إلى الآفاق الجديدة التي بدأت تطلع علينا. هذا واجب أحسست دفعه في أعماق قلبي ولم أملك إلا أن أطيع دفعه بقدر ما أتيح لي من جهد ومقدرة.

وقد عُرضت علي فكرة جديدة وجدتها تلائم وجهتى وفكرتى. وذلك

أن مؤسسة فرنكلين المساهمة الأمريكية طلبت إلي أن أشرف على إخراج كتاب في اللغة العربية ينفع الشباب بما فيه من أمثلة على الكفاح في الحياة والتفاني في تحقيق غاية نبيلة لها. وإقترحت علي ترجمة كتاب «حياة أولاد فقراء صاروا من المشاهير» وهو من الكتب المعدودة التي لقيت نجاحًا عظيمًا في أمريكا وسائر أقطار الأرض ولاسيما بين قراء الشباب. وقد وجدت فيه سيرًا عدة للمشاهير من رجال العلم والعمل والفكر. وهى نماذج بشرية تظهر كيف يستطيع الفرد أن يشق طريقه إلى المجد بقوة نفسه وصدق عزمه ومتانة خلقه. فما كدت أطلع عليه حتى إهتز قلبي أملًا وإبتهاجًا لأن تلك السير تصف كيف جاهد هؤلاء العلماء منذ أيام صباهم وكيف عانوا المشقة من الضيق والفقر والحرمان، ثم كيف وقفوا وجهًا لوجه أمام الظروف الشديدة التي أحاطت بهم حتى أخضعوها لإرادتهم وحدهم وإستطاعوا أن يسيروا خطوة خطوة نحو الغاية التي رسموها لأنفسهم فما زالوا حتى تسنموا المجد وخلقوا من ورائهم قصة تراث نفيس في العلم أو الفن أو الفكر أو الخدمة الإنسانية.

فحياة هؤلاء الأبطال أكبر مثال يمكن أن يوضع أمام الشباب في هذا الجيل ليروا فيه صور أنفسهم كما ينبغي أن تكون صور أنفسهم إذا تحللوا من قيود الماضي ودخلوا إلى ميدان المغامرة الإنسانية العادلة، وكافحوا بكل ما فيهم من قوة الذكاء والعزيمة والخلق المتين.

لقد كان شبابنا دائمًا يقنع بالمطالبة، ويحلق مع أحلام اليقظة ويتعلق بالأماني، ثم ينظر حوله إلى المعين الذي يأخذ بيده لأن الحياة كانت لا تفتح

أبوابها إلا لمن كان له سند من أهل السلطان الذين إستأثروا بالسيادة. ولكن هذا العهد عهد المغامرة الحرة أو ينبغي أن يكون هكذا.

وشبابنا مطالب بأن يدع المطالبة والتعلق بالمنى وأحلام اليقظة وأن يستعيض عن ذلك كله بالمبادأة. هذه الحياة أمامه فليضرب فيها بذكائه وقوة عزيمته ومتانة خلقه. وهذه أمثلة لصغار كانت تحيط بهم الأشواك ثم بنوا لأنفسهم ذكرًا خالدًا.

وقد رأيت أن أزيد الكتاب قدرًا بأن أضيف إليه مجموعة من سير بعض مشاهير العرب الذين بنوا لأنفسهم ذكرًا خالدًا في ميادين الحياة المختلفة، وقد نشأوا فقراء كأمثالهم في البلاد الأخرى تحيط بهم الأشواك. وكان نصيبي في هذا الكتاب أن ترجمت بعض فصوله وراجعت بعض فصول أخرى ترجمها شاب أديب له قصة طريفة أود أن أسجلها هنا.

عرفت الأستاذ سعد الغزالي خريج كلية الآداب عندما كان يعمل في الصحافة. ورأيت أن يقوم بترجمة فصول من هذا الكتاب لما عرفت فيه من قوة النفس ومتانة الخلق وبلاغة القلم والمقدرة الممتازة في معرفة اللسان الإنجليزي. ولكنه ما كاد يبدأ في الترجمة حتى دُعي للانخراط في سلك الجندية تأدية لواجبه الوطني. فكان من أكبر ما يدعو إلى سعادتي أن يزورني في زيه العسكري لنتذاكر فيما ترجم ونقرأه معًا ونعيد فيه النظر معًا. فكنا نمثل جيلين من أبناء مصر يتعاونان على خدمة اللغة العربية الشريفة والشعوب العربية الشقيقة. هذه آية تبشر بأن أجيال مصر تتعاون في خدمة الوطن والعروبة. وكانت أكبر مكافأة لنا أن نحس أننا قدمنا إلى

إخواننا شيئًا يختلط بقلبينا ونرجو أن يصل إلى قلوبهم أيضًا.

وأما السير التي أضيفت إلى الكتاب فلم يكن لي فيها إلا فصل واحد وهو ترجمة الأستاذ العظيم علي مبارك معلم مصر الأول. وكان من حسن الحظ أن إستجاب إلى النداء نخبة من كبار الأدباء ورجال الفكر ورجال الأعمال فكان لهم الفضل في أن الكتاب أصبح شاملًا لأروع المثل في العالمين الغربي والشرقي. ولست أستطيع أن أوفي حق هؤلاء الفضلاء من الشكر وحسبهم أنهم أرضوا أنفسهم بالمشاركة في خدمة الثقافة العربية. نقد كتب الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد سيرة للزعيم العظيم سعد زغلول وكتب الدكتور سعيد عبده ترجمة للجراح الأكبر علي إبراهيم..وتفضل الأديب الكبير طاهر الطناحي فكتب فصولًا ثلاثة عن جرجي زيدان المؤرخ، وسليم تقلا الصحافي الأديب، وشاعر النيل حافظ إبراهيم..كما تفضل الشاعر المبدع والكاتب البارع عادل الغضبان فكتب فصلين أحدهما عن رجل جمع بين ميادين العمل، وميادين الإنسانية وهو سمعان صيدناوي وعن نابغة آخر جمع بين الإبداع في الفن والإبداع في الأدب وهو جبران خليل جبران.

وما كان يمكن أن يصدر كتاب عن سير عباقرة العصاميين بغير أن يكون في مقدمتهم رائد الاقتصاد المصري الأول طلعت حرب وكان صاحب الفضل في ترجمة حياته السيد مُحَّمد رشدي عضو مجلس الإدارة المنتدب لبنك مصر. وقد تفضل عالم الموسيقى الدكتور محمود الحفني فكتب سيرة حياة فنان مصر الأول في الموسيقى عبده الحامولي.

وقد رأيت أن أدخل شيئًا من التعديل على عنوان الكتاب فجعلته «عصاميون عظماء» وهو لا يختلف في معناه عن عنوان الكتاب الأصلي الذي ترجمنا أهم فصوله.

وكتاب «أطفال فقراء صاروا من المشاهير» واحد من عدة كتب ألفتها سيدة أمريكية بارعة، هي سارة بولتون التي قضت حياة حافلة بالتأليف والتعليم والخدمة الإجتماعية في أواخر القرن الماضي، إذ كان ميلادها في عام ١٨٤١ وإنتهت حياتها العريضة في عام ١٩١٧ ففيما بين هذين التاريخين ألفت عدة كتب قيمة منها مجموعة من كتب السير توفرت فيها على ترجمة حياة العظماء الذين نشأوا في صفوف الفقراء وجاهدوا حتى بلغوا أوج العظمة. وكتاب «أولاد فقراء صاروا من المشاهير» واحد من أحب هذه الكتب إلى القراء، إذ طبع لأول مرة في عام ١٨٨٥ وأعيد نشره في عام ١٩٤٧ بعد أن نقح وروجع. ومما يجدر بي ذكره إنه قد وزع منه أكثر من ٨٥.٠٠٠ نسخة وما يزال يتدفق إلى القراء ، والذي أرجوه من هذا العمل الذي توفر عليه هذا العدد من كبار المفكرين والكتاب والأدباء من أجيال شتى بين الشباب والشيخوخة أن يدخل شيئًا من الرضى إلى قلوب نريد لها أن ترضى وأن يزدهر أملها. وأن يخرج كل من يقرأ هذه الفصول مستبشرًا، فإن الحياة فسيحة لكل عامل مجاهد .

محمد فريد أبو حديد

الجزء الأول

عصاميون من الشرق

عظيم كل حياته عصامية

عباس محمود العقاد

ما هي العصامية؟

عند كثير من الناس أن العصامية هي مجرد الإنتقال من حالة الخمول والفقر إلى حالة الجاه والثروة.ولكن المرء قد ينتقل من الخمول والفقر إلى الجاه العريض والثروة الوافرة ولا يحسب من العصاميين، لأنه لم ينتقل هذه النقلة بعمله وحده بل كان الفضل في غناه ونفوذه للمصادفة ولا يندر أن تجيئه المصادفة بغير حسبان وعلى الرغم منه، ومن هذا القبيل إنني أعرف تاجرًا كان يتبرم بما عنده من البضائع الكاسدة ومنها الصبغة المعروفة بإسم «التفتة» والكبريت، ثم إنقطعت هذه الأصناف بعد إعلان الحرب العالمية الأولى فتضاعف ثمنها وأصبح الرجل من الأغنياء ذوي النفوذ، ولو إنه نجح في بيع بضائعه قبل ذلك ببضعة أشهر لأبقاه النجاح حيث كان من الخمول والكساد.

وعلى نقيض هذا قد يولد المرء في بيئة الجاه واليسار ويبلغ الذروة من العصامية، لأنه بلغها منفردًا بين أمثاله من أبناء الوجهاء والأغنياء. فالعصامي هو الذي ينجح في تكوين نفسه سواء نشأ في مهاد القائة أو مهاد اليسار.

والكلمة العربية مأخوذة من إسم عصام الذي سود نفسه ولم يكن لأحد غيره فضل في تسويده.

نفس عصام سودت عصامًا

وعلمته الكر والإقداما

والكلمة الإنجليزية التي تقابلها معناها «صانع نفسه» Self made وتقرب منها الكلمة الفرنسية التي تقول عن العصامي أنه إبن عمله Fils de ses œvres

وبهذا المعنى يحسب سعد زغلول من العصاميين، بل يحسب عصاميًا عدة مرات لا مرة واحدة، لأنه صنع نفسه في كل مرحلة من مراحل حياته على نحو لا يستطيعه أمثاله في بيئته.

كان عصاميًا وهو طالب، وعصاميًا وهو موظف، وعصاميًا وهو محام، وعصاميًا وهو قاض، وعصاميًا وهو وزير، وعصاميًا وهو نائب، وعصاميًا وهو زعيم.

الطالب العصامي

ينتمي من جهة أبيه وجهة أمه إلى أعلى طبقة من طبقات الريف في بلده، وكان قصاراه أن يتعلم القراءة والكتابة والحساب كما يتعلمها أمثاله، ثم يرشح نفسه للعمدية أو المشيخة، أو يقنع بمورده من زراعة الأرض وبيع محصولها، كما يصنع المئات من أوساط الفلاحين..ولكنه أتم التعليم ولم

يقنع بالقسط الذي يناله الصبي المتعلم في مكتب القرية، ولم يقنع بتعليم البندر والبلدة القريبة كمطوبس ورشيد، فأرسله أهله إلى القاهرة ليتم تعليمه بالجامع الأزهر، وهو يومئذ جامعة القطر كله يتبرك الآباء والأبناء بطلب العلم فيه قال لي من عاصر سعدًا في مكتب قريته أن التلاميذ كانوا يطالبون بإعادة ربع من القرآن الكريم أو ربعين على الأكثر مراجعة المعلم، فكان سعد لا يقنع بأقل من ثلاثة أرباع ولا يفعل ذلك لإرضاء معلمه لأن معلمه كان يضيق بهذا الإجتهاد الذي يرهقه بمزيد من المراجعة لو سار التلاميذ كلهم على منهج سعد في الإعادة، ولكنه كان يعيد ما يعيده ليفعل شيئًا يزيد به على النظراء.

وسمعت سعدًا يقول غير مرة عن فضل التعليم الأزهري يومذاك أنه كان تعليمًا حرًا بأفضل معاني الحرية، لأن الطالب كان يختار معلمه ويمتحن معلميه قبل أن يمتحنوه.

وكان هذا حقًا هو النظام المتبع يومئذ في الجامعة الأزهرية، فكان كل شيخ يجلس إلى حلقته ليلقي درسه في موعده، وكان يتفق في الوقت الواحد أن يلقي درس النحو أو الفقه أو البلاغة ثلاثة أو أربعة من العلماء ذوي الإجازات، فيستمع الطالب إلى كل منهم ويختار من يرتضيه بعد سماعه، ولا إكراه عليه لو إختار ثم عدل عن إختياره بعد حين.

وينجح سعد أكبر نجاح في ذلك الإمتحان: نريد إمتحانه هو لأساتذته ولا نريد إمتحان الأساتذة إياه. فإنه إختار أستاذًا لا نظير له بين علماء عصره، وإختاره بعد أن وازن بينه وبين جميع الأساتذة لأنه كان يلقي

دروسه حيث يقيم خارج الجامع، ولم يؤذن له يومئذ بإلقاء دروسه فيه.

ذلك هو مصلح الشرق العظيم جمال الدين..

ونحن نقول اليوم مصلح الشرق العظيم ويقولها معنا الشرق الإسلامي كله، ولكنه لم يكن في ذلك العصر عند الأكثرين إلا الزنديق جمال الدين، والملحد جمال الدين، ومنهم من كان يستكثر عليه إسمه فيذكره بإسم ضلال الدين أو الأفغاني الأفاق، ووصفته حكومة ذلك العصر حين طردته من مصر فقالت إنها «أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية، بأمر ديوان الداخلية، ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية، لإزالة هذا الفساد، من هذه البلاد، عبرة للمعتبرين، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين، البادي من أفعالهم الظاهرة، إنهم لا خلاق لهم في الدنيا والآخرة!..».

فلا ريب إنها كانت عصامية نادرة تلك التي ألهمت سعدًا أن يختار أستاذه على صعوبة الإختيار بين هذه الأقاويل وهذه الأباطيل، ولا ريب إنها كانت عصامية أندر منها تلك التي أفردته بين شبان المصريين الذين حضروا على جمال الدين بما بلغ من عظمة الزعامة بعد ذلك، فلم يكن منهم أحد قاد أمته كما قادها هو بعد جيل.

الموظف العصامي

وخرج الشاب المقدام من الطلب إلى وظائف الحكومة فعمل كاتبًا في «الوقائع المصرية»، فكان عصاميًا في هذا العمل، لأنه نهج بالكتابة

منهجًا لم يسبقه إليه الكتاب ، في عصره كان إلتزام السجع شائعًا بين الكتاب المعدودين من أهل البلاغة، ومنهم أساتذته الذين يقتدي بهم نظراؤه ولعل القاريء قد لاحظ من بيان الحكومة عن نفي جمال الدين أن السجع ملتزم حتى في أمثال هذه الأوامر الرسمية، وكأنما أراد كاتب البيان أن يلقي في روع القراء أنه يتكلم عن جمال الدين وهو كفؤ للكلام عنه ببلاغته وعلمه، فصاغ بيانه على ذلك الأسلوب..!

فلما أخذ سعد في الكتابة شق طريقه في الأساليب على سنة العصامية التي لا تمتاز بشيء كما تمتاز بقدرتها على شق طريقها لنفسها، وأطلق قلمه من قيود السجع المتكلف إلا ما كان في تعبيره عن المعنى أصح من أسلوب الكلام المرسل، وكتب بلغة كلغة العلم الحديث في تقرير المعاني وإجتناب الحشو والفضول، كقوله من فصل عن الشورى: «..ومن البديهي الواضح أن نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها، فإنها ليست إلا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وعلمائها، أو مدلولًا عليها بنقوش مرقومة في الكتب، ولا يكفي في تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد في ذلك من وجود أناس يتخلقون بأخلاقها ويظهرون بمظاهرها، فيقومونه عند إنحرافه عنها ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير في طريقها، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر ﷺ الناس في خطبته إلى تقويم ما عساه يكون فيه من الإعوجاج في تنفيذ أحكام الشرع الشريف، وقال تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» إذ لا يخفى أن هذه الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم إلى الخير وتأمرهم بالمعروف

وتنهاهم عن المنكر، ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده حاكمًا كان أو محكومًا. وليس الأمر هنا للندب كما فهم بعضهم، بل للوجوب والفرض كما صرح به العلماء..».

هذا مقال كتب قبل نيف وسبعين سنة، ولو كتب اليوم لما ميزه القاريء من أحدث الأساليب في القصد وصحة الأداء.

واستفاد سعد من عمله في «الوقائع المصرية» مالا يستفيده كل عامل في تحريرها، إذ كان من موضوعات «الوقائع» أن تنشر نقدًا متواليًا لأحكام المجالس الملغاة، فعكف على دراسة المسائل القانونية وإستعان على فهمها بما يعلمه من فقه الشريعة، ولم يلبث أن رشحه علمه بالشريعة والقانون لوظيفة شبيهة بوظائف القضاء، فوقع عليه الإختيار لوظيفة ناظر قلم القضايا بمديرية الجيزة، وكان من إختصاصها إصدار الأحكام في كثير من المواد الجزئية.

المحامي العصامي

وترك وظائف الحكومة بعد الثورة العرابية ليشتغل بالمحاماة، فأسبغ على هذه الصناعة كرامة لم تكن معهودة لها بين أهلها ولا بين جمهرة الأمة في ذلك الحين، وحسبنا من الدلالة على هوان شأنها يومئذ أنه كما قال في خطابه للمحتفلين بتوليته القضاء قد لجأ إليها «والخجل يستر وجهه لسقوط إعتبار من كانوا يتعاطونها». وخطب في ذلك الحفل زميله حسن الشمسي فقال: «أن في القضاة من تغالى في حب الإستقامة حتى إرتاب

أن يكون في طائفتها مستقيم..»

وهذه هي الصناعة التي أعطاها كعادته ما لم يكن لها قبل إشتغاله بها، وما لم تأخذه قط من مشتغل بها قبله: أعطاها المكانة التي ترشح واحدًا من أبنائها لمركز القاضي بمحكمة الإستئناف، وكان أول محام أسند إليه منصب قاض في تلك المحكمة (سنة ١٨٩٢).

القاضي العصامي

وأصبح المحامي العصامي صانع نفسه، قاضيًا عصاميًا صانعًا لنفسه كذاك، فتعلم اللغة الفرنسية وتقدم لإمتحان الحقوق في باريس، فنال إجازتها بدرجة متفوقة، وجمل إسمه علمًا من أعلام القضاء المصري يفخر به قضاة مصر وطلاب القانون فيها حتى اليوم.

وما شأن قاض والتعليم وهو في محكمته بين قضاياه؟..لا شأن له به ولا لوم عليه إذا إكتفى بعمله وليس هو بالعمل اليسير، ولكنه إذا كان قاضيًا كسعد فرض على نفسه في كل صناعة ما لم يكن مفروضًا عليه ولا على أحد من أبنائها، فمن منزله صدر المنشور بإنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ وبإرشاده وتدبيره نشأت الجامعة وكتب لها البقاء.

وكانت معونته على كل عمل من أعمال التربية القومية مشجعًا للقائمين بها على إختلاف هذه الأعمال، فساعد الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ومصطفى كامل صاحب اللواء على إحياء الصحافة المصرية، وساعد قاسم أمين على الدعوة إلى تحرير المرأة، فلم يجد قاسم من يهدي إليه كتابه غير سعد زغلول.

وتكررت في القضاء تلك الخصلة التي لازمته في كل مرحلة من مراحل حياته، فكان القاضي الأول الذي انتقل من القضاء إلى الوزارة حين أريد تجديد التبعات الوزارية، وندع التقدير هنا للغرباء لأن أفضل الفضل ما شهد به الغريب.

قال المسيو دى هولتز الذي خطب في الإحتفال بتوديعه القضاء لأنه كان أكبر المستشارين سنًا: «ربما خطر ببالك عندما تركت المحاماة إلى القضاء أن ذلك كان شرفًا لك، نعم إنه كان شرفًا ولكنه شرف لنا معشر القضاة، شعرنا به عقب وجودك بيننا إذ تمكنا من أن ننظر عن كثب إلى أخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك».

وقال المركيز زتلاند في ترجمته للورد كرومر: «إن كرومر نفسه قد خطا في سبيل صبغ الحكومة بالصبغة الشعبية المحبوبة خطوة إلى الأمام قبيل رحيله من مصر حين أوصى بتعيين مصري معروف بنزعته الوطنية وزيرًا للمعارف، ونعني به سعد زغلول..».

وكان لورد كرومر يلقب في مصر بقيصر قصر الدوبارة، ويقول شاعر الأمير في تشييعه بعد إعتزاله:

أو حاكمًا في أرض مصر بأمره   لا سائلًا أبدًا ولا مسئولًا

فتمام التقدير الذي رأيناه من دى هولتز ورتلاند أن نسمع قيصر قصر الدوبارة يقول عن سعد أنه علمنى كيف أحترمه..ولم يقلها كرومر قط عن أحد سواه.

الوزير العصامي

كان أول وزير مستقل بإرادته مع المستشار الإنجليزي على ما كان معلومًا يومئذ من إلزام الوزير أن يستمع إلى المستشار، وفقًا لبرقية اللورد جرانفيل.ولم يكن مستقلًا عن المستشار وحسب، بل بلغ من إستقلاله أنه حافظ عليه أمام الخديو واللورد كتشنر مجتمعين متفقين، فطلب عزل الوصي على دائرة الأميرة صالحة وهو معين من قبل الخديو وصديق شخصي لكتشنر يصاحبه على الدوام في رحلات الصيد والرياضة، ولما حيل بينه وبين محاسبة الرجل إستقال من وزارة الحقانية وعاد إلى المحاماة.

وتبدو كلمة «عاد إلى المحاماة» بسيطة سهلة في هذا السياق، لأننا عرفنا في الأيام الأخيرة وزراء كثيرين خرجوا من الوزارة وقيدوا أسماءهم بجدول المحامين.

أما قبل أربعين سنة فلم تكن بسيطة ولا سهلة، بل كانت دهشة الناس لها كدهشتهم لخوارق العادات، فلم يحدث أن وزيرًا خرج من الوزارة فإشتغل بعمل آخر كائنًا ما كان، لإعتقادهم أن الوزارة أرفع شأنًا من كل عمل فلا يحسن بمن إرتفع إليها أن ينزل إلى ما دونها، وإلا فهو يهين نفسه ويبتذل إسمه بالعمل كما يعمل خلائق الله!

النائب العصامي

ولحقت بهذه الدهشة دهشة أخرى أكبر منها وأبعد منها عن خواطر ولاة الأمور وسائر المصريين.فلم يخطر للخديو ولا للوزارة ولا للعميد

البريطاني عند التفكير في إنشاء الجمعية التشريعية أن سعدًا سينزل إلى ميدان الإنتخاب ليطلب أصوات الناخبين ويزاحم المرشحين، ولعلهم لو خطر لهم هذا الخاطر لإتخذوا له من الحيطة ما يريحهم من عواقبه المعروفة والمجهولة..إلا أن العصامية لا تكون جديرة بإسمها إن فعلت ما يتوقع منها ولم تزد عليه. فنزل سعد إلى الميدان على خلاف ما قدروه، ونجح في دائرتين لا في دائرة واحدة، وتغلب على المزاحمة القوية ومن ورائها سلطان الوزارة وسلطان القصر وسلطان الوكالة البريطانية، وظفر في داخل الجمعية بكثرة الأصوات عند الترشيح لمنصب الوكيل المنتخب. أما الرئيس والوكيل الآخر، فقد كان دستور الجمعية ينص على إختيارهما بالتعيين.

الزعيم العصامي

ثم برزت العصامية الكبرى في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فنهض وكيل الجمعية التشريعية بزعامة الأمة كلها، وذهب على أثر إعلان الهدنة إلى دار الحماية البريطانية يطالب بإستقلال البلاد، وكانت دهشة لم يتوقعها عميد دار الحماية فقال متعجبًا مستوثقًا: «كأنكم تطلبون الإستقلال؟!»

قال سعد: «نعم..ونحن له أهل».

ولحسن الحظ دائمًا أن العصامية تأتي بغير المتوقع، فلو أن رجال الحماية البريطانية توقعوا هذه المطالبة لما أعياهم أن يحولوا بين سعد وبين دعوى الوكالة عن الأمة. إنهم كانوا لا يستطيعون أن يخيفوه ولا أن يثنوه عن عزيمته، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يمنعوا كتابة التوكيلات له في طول

البلاد وعرضها، فلا يظهر صوت الرأي العام على حقيقته كما ظهر من تلك التوكيلات التي وقعها المصريون بعشرات الألوف.

ثم كانت زعامة ولا كل الزعامة.

كان في مصر زعماء يقول الخصم عنهم أنهم يتكلمون بإسم طبقة الباشوات ولا يتكلمون على هذا بإسمها جمعاء.

وكان في مصر زعماء يقول الخصم عنهم أنهم شبان طائشون يتبعهم طائفة من الطلبة والتلاميذ.

وكان فيها زعماء يقال عنهم إنهم لا يمثلون أصحاب المصالح الحقيقية ولا يجمعون حولهم من لهم حق الإنتخاب.

وكان فيها زعماء يقال عنهم أنهم ينكرون الحماية البريطانية ويرضون بالسيادة التركية، أو يقال عنهم أنهم متعصبون لا يؤتمنون على مخالفيهم في الدين، أو يقال عنهم أنهم غير مصريين وليس لهم من الوطنية الصحيحة نصيب. كان في مصر زعماء، ولم يكن فيها زعيم.

فلما نهض سعد بأمانة الزعامة إذا بالأمة كلها تدين بزعامته، وإذا بها أول زعامة مصرية يتبعها الأغنياء والفقراء والشيوخ والشبان، والرجال والنساء، والمسلمون والمسيحيون، ولم تسبقها في الزمن الحديث زعامة وطنية إلى توحيد وطني كهذا التوحيد العجيب.

وكل هذا بدع في العصامية لا يتكرر في سيرة كل عصامي خالق لمجده،

ولكنه فيما نرى قد ترك في سيرة هذا الرجل الفذ محلًا لمزية عصامية أعسر على طلابها من جميع هذه المزايا، وهي المزية التي تتخطى حواجز العصبية القومية وفوارق المعيشة البيتية، فقد كانت تقاليد البيت «الأرستقراطي» في مصر تأبى على أهلها أشد الإباء أن يتزوجوا من أبناء الفلاحين أو بنات الفلاحين، لأن الطبقة الأرستقراطية كانت تتربى على المعيشة التركية وتتكلم التركية في بيوتها بدلًا من العربية، ولم يتفق فيما نعلم أن أحدًا ممن عاشوا هذه المعيشة رضى بمصاهرة فلاح من الريف على الخصوص، وكان سعد من صميم الفلاحين الريفيين فتقبلته هذه البيئة أحسن قبول، ثم كان إعجاب قرينته به وبأدبه في بيته مثلًا نادرًا بين الأزواج من بيئة واحدة بل من أسرة واحدة، فكادت إقامة زوجته في ضريحه أن تغلب على مقامها بدارها، وكانت تقضي معظم نهارها في الضريح ثم تختار للجلوس في دارها الحجرة التي تطل عليه.

وتوفي سعد وهو رئيس لمجلس النواب، فمن تحصيل الحاصل بعد ما تقدم أن يقال أنه كان كعادته في هذه المرحلة الأخيرة من عمره: رئيسًا ولا كل رئيس.

وإذا كانت للعصامية طبقات فهذه هي طبقتها العليا، أو هذه هي العصامية بين العصاميين.

زعيم الاقتصاد المصرى

محمد رشدي
عضو مجلس الإدارة المنتدب لبنك مصر[1]

حينما طلب مني أن أكتب عن طلعت حرب – ولي به رباط خاص– تملكتني حيرة بالغة، واكتنفنى حياء أحسست عجزًا عن دفعهما. وفيما أنا على هذه الحال، إذا بناحية كريمة تقطع على طريقى .. تلك هي أن طلعت حرب لم يخلق لأسرته وحدها، بل إتخذ من أمته أسرة، وجعل من نفسه لنا جميعًا أبًا رحيمًا طوال حياته. والكتابة عنه فيها نفع كبير للمجتمع، ومن واجبي أن أبادر، فأكتب وفاء لفضله، وعرفانًا بجميله.

بدأ طلعت حرب حياته العملية، كأي شاب مثقف في عصره، فما كاد يتم دراسته ويحصل على إجازة الحقوق حتى إلتحق بإحدى الوظائف الحكومية. غير أن نفسه الكبيرة الوثابة أبت عليه أن يخلد إلى عمله الرتيب وأن يكتفي من العلم والمعرفة بما حصله من قبل، فأخذ يستغل أوقات فراغه في إستيعاب ما تضمنته أهم الكتب التي أخرجها كبار العلماء والأدباء والفلاسفة والساسة في الشرق والغرب، من السلف والمعاصرين. وحرص على غشيان المجالس والمنتديات الخاصة والعامة للانتفاع بما يتردد

---

(١)من الدعائم الكبرى لبنك مصر وشركاته ومن كبار الإقتصاديين ورجال القانون المصريين وهو زوج كريمة المرحوم محمد طلعت حرب.

فيها من أفكار وآراء وبما يدور حولها من نقاش وتمحيص. وما لبث قليلًا حتى كانت لديه مكتبة زاخرة بأنفس المؤلفات القديمة والحديثة، وأمست داره منتدى يؤمه نخبة من رجالات العلم والأدب والإجتماع والسياسة. فكان لهذا كله أثر كبير في نفسه غير مجرى حياته، إذ لم يطق صبرًا على قيود الوظيفة وأغلالها، وسرعان ما تحلل منها، وأخذ طريقه إلى العمل الحر.

وفي ذلك الحين، كان مثل هذا الإتجاه يعد مجازفة أو مغامرة غير مأمونة العاقبة، ولم يكن طلعت حرب الشاب المقدام الجسور بالذي يخفى عليه ذلك، ولكنه أقدم عليه بعد طول تفكر وتقدير وتدبير، ووضع نصب عينيه أن عليه رسالة يجب أن يؤديها لبلاده، وهذه الرسالة تقوم على أن مصر يجب أن تبني نفسها بنفسها، لكي تسترد عزتها وكرامتها ومجدها، ومكانتها التي أهلتها لبلوغها عراقة حضارتها ومدنيتها، وخصوبة تربتها، وكثرة الأيدي العاملة المخلصة فيها، وموقعها التجاري والصناعي الممتاز. وهكذا مضى في سبيله الذي رسمه لنفسه، مكافحًا ذلك الجمود الذي جثم على صدور أبناء الوادي فأفقدهم ثقتهم بأنفسهم وأقعدهم عن إستثمار أموالهم في غير الزراعة على أوضاعها الموروثة، وأخذ على عاتقه أن يواصل هذا الكفاح بكل ما أوتي من قوة وصبر وإيمان، إلى أن يبدد ما يساور مواطنيه من الوهم وخشية مباشرة الأعمال التجارية والصناعية، ويصلح ما أفسده الإستعمار والإستهتار في ميادين الإقتصاد القومي، مما أدى إلى تغلغل المصارف المالية والبيوت التجارية الأجنبية في جميع أنحاء البلاد، وإلى تسرب أموال المواطنين إلى خارج ديارهم حيث تستثمر لنفع غيرهم. وكانت هذه الأموال قد جاوز مجموعها مائة وخمسين مليون جنيه، كما هو

ثابت في تقرير المستشار المالي سنة ١٩١٩.

وسيلته في تحقيق الرسالة

إستهل طلعت حرب أداء رسالته في مكافحة صدوف المصريين عن الأعمال التجارية بأن إقترح على صديق له كريم المحتد مرموق في وسطه، هو المرحوم فؤاد سليم الحجازي، أن يفتتحا محلًا لتجارة البقالة والألبان، لكى يضربا لإخوانهما المثل الصالح في ميدان يعود على طائفة كبيرة منهم بالخير والبركات، وكان صديقه هذا عند حسن ظنه به، فإفتتحا ذلك المحل، وسارا في عملهما لا يلقيان بالًا إلى ما يوجه إليهما من نقد مر، ونظرات مملوءة بالسخرية والإشفاق، بل تحدوهما عزيمة صادقة وإيمان وثيق بأن العمل لصالح المجموع يسقط في سبيله كل إعتبار، ولا تؤثر في نفس القائم به المظاهر الباطلة، ثم قاما بدعاية واسعة لفتت أنظار مختلف الطبقات وقضت على كبرياء وإنفة باطلتين، وما هي إلا فترة قصيرة حتى تفتحت عيون الكثيرين على ما في التجارة من خير فأقبلوا عليها في شتى أنواعها، وبذلك تحققت الفكرة التي عمل لها، فنزل وزميله عن محلهما لبعض المصريين.

وبعد عامين، أصدر طلعت حرب في سنة ١٩٠٧ كتابًا كشف فيه عن حاجة البلاد إلى بنك وطني ينشأ بمال المصريين، وتعمل فيه أيدٍ مصرية، وتستخدم فيه اللغة العربية. وقد نبه فيه الأذهان إلى الأموال الوفيرة العاطلة التي يستثمرها الأجانب في غير صالح مصر والمصريين، وناداهم إلى واجب وطنى مقدس هو إستثمار مالهم، والأموال الفائضة في

صالح الإقتصاد القومي، وأبان لهم أثر المال في حياة الأمم وإستقلالها، وشوقهم إلى أن يعتمدوا على أنفسهم في جميع حاجاتهم، وما زال ينشر الدعوة ويجددها في كل مناسبة، حتى كانت الثورة المصرية، فألقى في أحضانها بذور هذه الدعوة المباركة، وهو على يقين إنها ستنبت نباتًا حسنًا بإذن ربها. وكان هذا في ٧ مايو سنة ١٩٢٠، حينما إفتتح البنك وقدر له الوجود.

دستوره في البنك

وقد وقف طلعت حرب في ذلك اليوم التاريخي يخطب المؤسسين المكتتبين وعلية الأمة، فصارحهم بأن البنك لم يقم في مصر إلا ليسد النقص الظاهر في مرافق البلاد الإقتصادية ما إستطاع إلى ذلك سبيلًا، ولينير الطريق أمام المواطنين، وسيعمل على تنظيم الحالة التجارية، وعلى الإكثار من التاجر الذي يعرف قيمة الورقة التجارية والذي يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الإعتبار والشرف، وليقيم بناء الصناعات شامخًا في ناحيتها النباتية والمعدنية. ثم أوضح في جلاء أن العملية المصرفية البحت لم تكن غايته وحدها، وإن صالح المساهمين لن يقوم حائلًا بين البنك وبين صالح المجتمع والوطن، وإنه سيعتمد في إحياء الصناعات على ثقة المصريين في البنك، وستتجلى هذه الثقة فيما يودع فيه من مالهم الفائض. وعلى هذا بدأ هو وزملاؤه خطواتهم معتمدين بعد الله على عطف الأمة وتشجيعها.

وهناك حقيقة ظلت مطوية طوال السنوات التي مضت منذ إنشاء

البنك، وهي تبرز ناحية من السمو الروحي والإكتفاء الذاتي لطلعت حرب، تلك هي إنه ظل طول السنوات الخمس التالية لإقامة البنك وإنشاء عشر شركات تابعة له لا يتقاضى أى أجر عن عمله المتواصل العظيم!

ولولا أن حملة الأسهم فزعوا إليه برجونه في الحاف أن تكون له مكافأة عن عمله لقاء جهده المضني، ولولا إنهم أعلنوه أن كرامتهم تأبي عليهم تسخيره وطالبوه بأن يجاهرهم بالقبول مشكورًا، لما أجابهم إلى طلبهم، على أنه إشترط ألا يكون القرار أثر عن الأعوام الفائتة.

إن في ذلك لعبرة، وإن فيه لمثلًا صالحًا للرجل الذي يتصدى للأعمال العامة. فيقيني أن الرجل العام يجب أن ينسى نفع نفسه، ويجب ألا يكون أنانيًا تنفر منه الجماعة. ويجب أن يكون التواضع شعاره. وهذه صفات لمسها كل من أسعده الحظ فعمل تحت لواء طلعت حرب. فالحق أن النفع الخاص لم يكن مبتغاه وإنما كان يهدف إلى إحياء الصناعات في مصر، وإقامتها مصرية صميمة لحمًا ودمًا، يفتح بها ميادين أعمال مختلفة للمصريين، ويحارب بها أزمة المتعطلين من المصريين.

وقد وفق في تحقيق هدفه، ورأى بعينيه أن مشروعاته تدر على الشباب المثقف والعمال من أجور ومرتبات ما يقرب من أربعة ملايين من الجنيهات سنويًا.

وهذه القيمة الكبيرة لم يكن لها وجود من قبل. وقد ظل الشعب

المصري محرومًا منها قرونًا عدة، وكان العبء كله على الزراعة والعمل فيها على نظم بدائية. وهذا الرقم الضخم يقوم إلى جانبه أرقام مجهولة. فإن اليد العاملة في الزراعة نقصت نقصًا ظاهرًا. فكان لهذا أثره في إرتفاع أجور العمال الزراعيين. ذلك أن الصناعات التي أنشأها طلعت حرب قد إمتصت عددًا كبيرًا من عمال الزراعة، ورفعت من مستوى معيشتهم حتى وصلت إلى أربعة أضعاف ما كانوا يتقاضونه وهم عمال زراعيون. وفي إمتصاص الصناعة لهؤلاء العمال تقليل لعددهم أفاد بطريقة غير مباشرة في رفع أجور الباقين منهم وتحسين مستوى معيشتهم. هذا إلى الإنخفاض المحسوس الذي أصاب أسعار السلع التي تم صنع نظيراتها في مصر، حتى أن الباحث المدقق ليقدر ما أفاد البلاد من جراء الصناعات التي أقيمت عن طريق بنك مصر بأضعاف ما عرف عنها في الأجور والمرتبات.

وهناك ناحية كريمة سهر على تحقيقها طلعت حرب وهي حماية الثروة الزراعية والعقارية الأهلية من الإنهيار. وبقدر ما كان عليه من حزم وحرص شديد على مال المساهمين، فقد وقف في أزمة سنة ١٩٣٠ إلى جانب كثير من البيوت المصرية، فوقاها العثار وأمنها الشر، بأن مد في الآجال، وخفف الأعباء، وأحجم عن التصفية، ولم يقبض يده حيث وجب البذل، وأزاح عن الكثيرين غاشية الكرب. وكان في هذا كله مخرج كريم لأسر من أعز الأسر.

جهاده في تأسيس الشركات الكبرى

وهكذا نجح البنك، وأقبل المصريون عليه في ثقة وطمأنينة فأودعوه أموالهم من نقد وأقطان وحبوب، وما أحس طلعت حرب بالأموال تختزن في البنك حتى أخذ في تنفيذ برنامجه الذي رسمه في خطبة إفتتاح البنك من إقامة الصناعات وإحيائها في مصر. فأنشأ مطبعة تزود البنك بالسجلات والمطبوعات والأسهم والسندات، وهي تعد الآن أكبر دار للطباعة في الشرق وأحدثها عددًا وآلات. وأقام شركة لحلج الأقطان بدأت عملها في مغاغة بوابور حليج واحد، وهي الآن تدير تسعة وابورات في مختلف المدن التجارية في البلاد.

وأحس بعد ذلك حاجة البلاد إلى نقل الأقطان بأجور معتدلة لا ترهق التاجر المصري، فأقام شركة مصر للنقل والملاحة. وحين كملت هذه الحلقة تطلع طلعت حرب إلى غاية طالما تاق إلى تحقيقها للبلاد، وهي بحق في المرتبة الثانية بعد الغذاء، وقد توافرت مادتها في البلاد وكانت مرتعًا خصبًا للدول الأخرى .. هذه الغاية هي غزل القطن ونسجه وإخراجه كساء للشعب بأسعار لا ترهقه، ومن مادة نقية متينة، إلى غير ذلك من الإعتبارات التي تحول بين أموال المصريين وتسربها إلى الخارج، فأقام شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى، وإنها لمفخرة المصريين الآن. وقد روعي في إقامتها ما فات أعرق الأمم في الصناعات، فمن مصنع للغزل، إلى مصنع للنسيج، إلى مطبعة الصباغة والتلوين، إلى الإخراج سلعة تباع. كل هذا في صعيد واحد يشغل رقعة من الأرض تبلغ ٢٢٠ فدانًا.

كفاحه لنجاح الشركات

ومن الخير أن أشير إلى حادث خطير عنى به طلعت حرب وشغل باله، فإن مصانع لانكشير وبرادفورد فزعت حين ترامت إليها أخبار هذه الشركة من حسن إستعدادها وما ستكون عليه من إنتاج لسد حاجة مصر وجانب كبير من الدول الشرقية، فأعدوا العدة للقضاء عليها، وكان أن إتحدت مصانع القطن في إنجلترا وإتفقت على إقامة شركة لها في مصر تناهض شركتنا العزيزة وهي ما تزال تحبو، فلما أحس طلعت إنهم بدأوا تنفيذ مؤامراتهم أوحت إليه خبرته ونفاذ بصيرته بالسفر إلى إنجلترا، وبعد دراسة وبحث تم الإتفاق بينه وبين هذه الشركات على قصر عمل الشركة الإنجليزية على الطباعة والصباغة للغزل والنسيج الرفيع من القطن المصري، وعلى أن تقام إلى جانبها شركة مصرية جديدة لغزل ونسج هذا الصنف من الخامات. وفعلًا أنشئت شركة صباغي البيضا، وشركة كفر الدوار، وبهذا هدأت نفس طلعت حرب.

ولما تمت هذه الجولة الكريمة رأى طلعت حرب أن القطن في البلاد يفيض كثيرًا عن حاجة المصانع فأقام شركة لتصدير هذا الفائض.

وفي العام نفسه الذي أقام فيه شركة لغزل القطن ونسجه بالمحلة، أقام شركتين لصناعتي الكتان والحرير، وبهذا تمت حلقة من الشركات تحقق للبلاد الفائدة المرجوة من محصولاتها الرئيسية وتضمن للشعب كساءه بأسعار غاية في الإعتدال.

ولما أحس طلعت حرب أن سلع شركات القطن والحرير والكتان تواجه حربًا خفية في داخل البلاد، إذ أحجم الكثير من التجار عن شرائها، أقام شركة لبيع مصنوعات شركاته، فتتحقق لها النجاح بفضل الله، وكان أثرها عظيمًا أبان الحرب الأخيرة.

ثم إتجه طلعت حرب إلى نواح مختلفة من الإقتصاد القومي، فأقام شركة لصيد الأسماك وصناعة الأزرار، وشركة لإستخراج الرخام والجرانيت والبترول والكروم والمنجانيز. كما أقام شركة الطيران كان منها عامل عظيم في توثيق الرباط بين مصر وفلسطين والشام والعراق، وكذلك أقام شركة مصر للتأمين، وقد أصبحت تسد فراغًا كبيرًا وتقوم بالتأمين لصالح شركات البنك والمصريين عامة، وآخر شركاته شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت.

لقد أساء بعض الناس فهم رسالة طلعت حرب، ورموه بالتعصب لمصريته، وإصراره على إحياء الصناعة في مصر بأيد مصرية ومال مصري، كما رموه بأنه يكره الأجانب لذاتهم ولا يرغب في التعاون معهم. والحقيقة أن طلعت حرب كثيرًا ما نادى بأنه يرحب بالتعاون مع الخبراء الأجانب، وقد إستخدمهم في مختلف النواحي التي لا يحسنها المصري، لكنه كان تعاونًا موقوتًا زال حين توافر لديه المصريون فسدوا الفراغ الذي كانوا يشغلونه. وتحقيقًا لهذه الغايةً أوفد إلى الخارج بعثات في مختلف الصناعات، وفي مقدمتها الغزل والنسج وإدارة وخدمة الفنادق والسينما، ثم هو علاوة على إستعانته بالخبراء الأجانب أشرك الأجانب معه في كثير من الشركات، كشركة الطيران، وشركة التأمين، وشركة الغزل والنسيج الرفيع، وشركة تصدير الأقطان.

عنايته بالمسرح والسينما

كان من يرى طلعت حرب، وهو رجل العمل والكفاح والجد، يظنه رجلًا عبوسًا لاتستهويه الفنون والموسيقى، ولا يطربه الغناء والصوت الجميل، لكن تاريخ هذا الرجل على النقيض من النظرة العابرة، فإنه وهو القائم على هذه الأعمال الجبارة، والمنشيء لهذه المشروعات الضخمة، لم تفته ناحية الفنون وما لها من أثر في حياة الشعوب ورقيها، فقد إعتز بالفنانين وحباهم بعطفه وأمدهم بماله. وحين رأى إنهيار المسرح المصري أقام شركة مصر لترقية التمثيل العربي، ولما طغت السينما بلغاتها الأجنبية على التمثيل أنشأ في سنة ١٩٢٥ شركة مصر للتمثيل والسينما، وجهزها بأحدث الآلات حتى ضارعت أمهات الشركات في أوربا وأمريكا.

وقد أبت عليه نفسه إلا أن تكون الروايات والقصص أداة طيبة للثقافة والأدب الرفيع .. فأحدثت هذه الشركة فتحًا لطبقة الممثلين وغيرهم من الفنانين، حتى أصبحنا نرى بين المصريين عددًا من الممثلين والفنانين يبلغ دخله من الفيلم الواحد آلاف الجنيهات، بل لقد تجمعت لبعضهم ثروات كبيرة، وكان من أثر قيام هذه الشركة أن أنشئت دور أخرى لصناعة السينما، وهي وإن كانت قد توخت الناحية المالية، فإن هذه الأموال كلها من المصريين وإليهم، وقد حقق وجود هذه الشركة فوائد كثيرة في نواح عدة.

البنك الصناعي

ولطالما نادى طلعت حرب بأن للبشر طاقة، وإنه وجماعته وأنصاره لا يستطيعون النهوض بإحياء جميع الصناعات على إختلاف أنواعها، وقد أهاب بالحكومة أن تخطو الخطوة الأولى لتنمية الصناعات الأهلية وحمايتها، وذلك بإقامة البنك الصناعي، ووضع كتابًا في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ يقع في ٢٢٥ صحيفة أسهب فيه هو وجماعة بنك مصر في شرح النظم المعمول بها والمتبعة في أمهات دول الغرب، وكشف فيه عما يجب أن تكون عليه علاقة الحكومة بالصناعات، محددًا نصيبها ونصيب الشباب منها، وإنتهى الكتاب إلى الضرورة الملحة لإنشاء بنك صناعي لتمويل الصناعات التي لم تبعث بعد، ولتنمية الصناعات القائمة حينذاك، كما عاهد الحكومة على معاونة بنك مصر للبنك الصناعي إلى أن ينهض على قدميه، فيصبح أخًا وفيًا لبنك مصر، ويرتفع مستوى المعيشة، وترقى حياة الأسرة، ويحس الأفراد والجماعات بالسعة في الرزق ويعم الرخاء أرجاء البلاد.

طلعت حرب السياسي

وكان طلعت حرب سياسيًا من طراز خاص، فهو وإن كرس حياته كلها للعمل في ناحية هي بحق أساس الإستقلال وعماد الكرامة والعزة القومية، كان ينادي بضرورة إتحاد أمم الشرق وتكتله حتى يسترد مكانته، وقد بدأ عمله لتحقيق هذه الفكرة بإنشاء «بنك مصر سوريا ولبنان» ليكون منه السفير الصالح للرباط الذي يرجوه، ثم أقام شركة مصر للملاحة البحرية تربط بين مصر والمملكة السعودية، فضلًا عما أنشأته من

صلات بين مصر وأوربا.

وقام برحلات إلى الحجاز جعلت منه أخًا محبوبًا لدى أهلها، وبذلك قرب بين البلدين وقضى على ما كان بينهما من جفاء. كذلك قام طلعت حرب بزيارات عدة لكل دول الشرق، عاملًا على التوحيد بينها والألفة بين أبنائها. وهذا النوع من السياسة نوع عملي ناجح أفادت منه البلاد، وإمتد أثره حتى كانت الجامعة العربية .. وكان إتحاد دول الشرق.

ولم يقف نشاطه السياسي عند هذا الحد، بل إمتد إلى الغرب، إذ رأى أن بلاده في حاجة إلى الدعاية الدائمة.

ولن يكون هذا في خطاب يلقى أو مقال ينشر، بل بعمل مادي ملموس و أثر ظاهر محسوس، فأنشأ في باريس «بنك مصر فرنسا» فكان منه الدعاية الناطقة بأن مصر غيرها بالأمس، علاوة على الخدمات الكثيرة التي أداها للمصريين في الخارج.

وكان طلعت حرب إلى ذلك كله حريصًا على ألا يخلط بين السياسة والعمل، فصرح غير مرة بأنه يجب أن تكون التجارة والصناعة في هذا البلد في منأى عن السياسة الحزبية.

ولا يفوتني أن أسجل لطلعت حرب موقفًا كريمًا جديرًا بالتقدير، قمينًا بأن يتخذ مثلًا صالحًا لمن يعمل في مقدمة الصفوف منكرًا لذاته، مؤثرًا عليها العمل النافع، فحينما إعترضت البنك تلك الأزمة المعروفة في سنة ١٩٣٩ عقب قيام الحرب الأخيرة، ولحقت به مفتريات ما أنزل الله بها من

سلطان، وحينما أساء إلى طلعت حرب نفسه بعض الحساد والحاقدين، بقى هو قوي الإيمان بنفسه وبمتانة مركز البنك، كبير الثقة بأن الحقيقة سيكشف عنها الناس. ذلك إنه لم يفكر في شخصه عند هذه الكارثة، ومع الإلحاح الكبير من مريديه عليه في أن يتكلم، أبى ألا أن يلزم الصمت وكان يكرر دائمًا: «أن الفناء مصير كل حي، وما أريد إلا الحياة للبنك وشركاته، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وما هي إلا فترة قصيرة بعد تنحيته عن البنك حتى ذهب الزبد جفاء، وأمن البنك والشركات ما حيك لها من دسائس، فخرج مع شركاته منتصرًا ظافرًا، ترد جميعًا بحيويتها الكامنة على هذه المفتريات، وتدل على أن هذه المؤسسات كانت متينة البنيان، قوية الأساس، وأن المهيمنين عليها كانوا من خيرة الرجال.

المعلم المصري الأول

محمد فريد أبو حديد

كان العصر لا يعرف الإستقرار، وكانت أسرة الطفل «علي» لا تعرف الإستقرار كذلك. كان أبوه الشيخ مبارك من أسرة متواضعة تعرف باسم «المشايخ» في قرية برنبال مديرية الدقهلية. وإضطر الأب أن يهاجر من قريته عندما ضاقت به الحال فيها ونزل في قرية أخرى بمديرية الشرقية وكان ولده علي طفلًا في السادسة من عمره. ولكن قرية الحماديين التي حل بها لم تكن أوسع رزقًا من قريته الأولى فحمل أهله مرة أخرى وإرتحل في الأرض حتى نزل في نجع من نجوع قبيلة (السماعنة) وإتخذ لنفسه ولأسرته خيمة يعيشون فيها كما يفعل أهل القبيلة. ومن حسن حظه أن (السماعنة) كانوا في حاجة إلى فقيه يعلمهم الدين فوجد الشيخ الطيب لأول مرة في حياته مكانًا يستقر فيه، وأصبح بعد قليل موضع حب القبيلة وإكرامها.

وكان الطفل علي يمرح في الحقول مع أطفال النجع ولا يحب الذهاب إلى المكتب بالرغم من نصائح والده وبكاء أمه لأنه كان لا يجد في المكتب إلا العصا والجمود الممل والحرمان من الضوء وخضرة المروج. وإجتمع حوله ذات ليلة أبواه وإخواته البنات السبع وأخذوا ينصحونه ويبنون له فائدة التعليم وهو يصر على الإباء ولا يبالي بالتهديد ولا بالدموع. وسأله

ابوه آخر الأمر عما يريد أن يصنع بنفسه فأجاب في بساطة: «لا أحب أن أكون فقيهًا، وإذا كان ولابد من التعلم فإني أريد أن أكون كاتبًا نظيفًا».

ونزل أبوه على إرادته فأرسله إلى كاتب في القرية المجاورة ليعده للمستقبل الذي يريده. وأقام الطفل في بيت ذلك الكاتب بين عياله الكثيرين من زوجاته الثلاث، فكانت حياته الجديدة أقسى عليه من الذهاب إلى المكتب. كان يبيت في كثير من الأحيان يتضور جوعًا ثم يخرج في الصباح الباكر مع الكاتب ليتمرن على أعماله فيقضي كل وقته في خدمة الرجل ولا ينال منه شيئًا من التعليم.

وحدث يومًا أن سأله الكاتب أمام ناظر القسم عن حاصل ضرب الواحد في الواحد فأجابه إنه: «إثنان»، فما كان من الرجل إلا أن قذفه بمقلاة بن كانت أمامه فشج رأسه وسالت دماؤه، فإنتهز علي المسكين فرصة خروج الناس إلى مولد السيد البدوي، وإندس بينهم خارجًا من القرية وسار في الطريق يسأل الناس عن قرية المطرية التي تقيم فيها خالته. ولم يقو جسم الطفل الصغير على تحمل مشقة السير وقضاء الليالي في العراء، فمرض في الطريق مرضًا شديدًا في قرية (صا الحجر) وأشفق عليه رجل من أهل القرية فآواه عنده حتى شفي بعد أربعين يومًا. ثم بلغه أن والده جاء إلى القرية ليبحث عنه فتحامل على نفسه وهرب ذاهبًا إلى الطريق مرة أخرى حتى عاد إلى قريته الأولى (برنبال) حيث كان يقيم أخ له من أبيه.

وعرف أهله مكانه بعد حين فذهبوا إليه وإلتفوا حوله مرة أخرى ليتشاوروا فيما يعملون من أجله وإستقر رأيهم على أن يدخلوه في خدمة كاتب المساحة ليتعلم منه صناعته.

وإرتاح علي في أول الأمر مع ذلك الكاتب، وكان يفرح بالنقود القليلة التي كان الرجل يهبها له من الرشاوي التي يجمعها من الناس، ولكنه كان طفلًا صغيرًا لا يعرف أن المرتشي لا يحب أن يتحدث الناس عن أسراره، فكان يثرثر مسرورًا عن النقود التي تصل إلى جيبه مما يجمعه الكاتب من أهل القرى. فما كاد الرجل يسمع ما يقوله الطفل حتى طرده من خدمته. فعاد علي إلى قريته حائرًا لا يعرف لنفسه وجهة حتى سعى له أبوه مرة أخرى فألحقه بخدمة كاتب آخر في مأمورية (أبى كبير).

وكان في هذه الفترة قد أتقن الكتابة، فعينه الكاتب مساعدًا ليبيض له دفاتره بمرتب خمسين قرشًا في الشهر، وجعله يقيم معه في بيته. ولكن مضت أشهر ثلاثة ولم يعطه الكاتب مرتبه محتجًا بأنه يطعمه في بيته، فغضب علي وعزم على أن يأخذ حقه بيده وأخذ من الأموال التي حصلها الكاتب أجر الشهور الثلاثة، وكتب بها إيصالًا جعله في كيس التحصيل وبعث بذلك إلى الرجل، فما كان من الكاتب إلا أن دبر له مكيدة لينتقم منه، فسعى عند حاكم المدينة لإدخاله في الجندية. وفي اليوم التالى قبض الحاكم عليه وألقى به في السجن وتركه هناك مدة عشرين يومًا ذاق فيها مرارة الظلم الرخيص والجوع والأذى، ولم يجد من أحد رحمة إلا من السجان الذي رق له لصغر سنه فسعى في الإفراج عنه وساعده على

الإتصال بخادم مأمور زراعة القطن في (أبي كبير) وفي نظير قطعة من الذهب قيمتها عشرون قرشًا سعى ذلك الخادم حتى أوصله إلى مأمور الزراعة.

وكان مأمور الزراعة رجلًا حبشي الأصل إسمه عنبر أفندي يمتاز بالوداعة وطيبة القلب، فرتب للصبي خمسة وسبعين قرشًا في الشهر كما رتب له جراية من الطعام كل يوم وأدخله في خدمته. ولأول مرة في حياته وجد علي شيئًا من الإطمئنان والراحة وبعض النقود في جيبه.

ولكن المخاوف والآلام التي قاساها في السجن كانت تجعله دائم الخوف من غضب سيده إذا بدا له أن يغضب عليه في يوم من الأيام، وسمع يومًا وهو في مجلس عنبر أفندي أن هناك مدرسة فتحها الوالي إسمها مدرسة «قصر العيني» لتعليم الأولاد الخط والحساب واللغة التركية لكي يصيروا موظفين في الحكومة بعد تخرجهم. فسأل في سذاجة: «أهذه المدرسة تقبل أبناء الفلاحين؟».

ولما عرف أن ذلك ممكن لمن يساعده الحظ خفق قلبه أملًا وأخذ يجمع كل ما يستطيع جمعه من أخبار تلك المدرسة ويسأل عن طريق الوصول إليها والمسافة التي يجب عليه أن يقطعها حتى يصل إليها وأسماء البلاد التي في الطريق، حتى إطمأن إلى أنه عرف مايكفي.

وفي ذات يوم إستأذن عنبر أفندي في زيارة أهله عازمًا على أن يبدأ في تحقيق أمنيته. ولكن أهله لم يوافقوه وأخذت أمه تبكي وتستعطفه حتى

لا يفارقها، وإضطر إلى البقاء في النجع يرعى قطيعًا من الغنم. وبقيت صورة المدرسة تعاوده في ساعات ليله ونهاره حتى إنتهز فرصة نوم النجع في ليلة من الليالي وخرج من بين الخيام متسللًا وهو خائف يترقب، و كان هذا آخر عهده بالإقامة مع أبويه.

وانتهى به السير في الطريق إلى قرية (منية العز) وكان فيها مكتب يعد الأولاد للدخول في مدرسة القصر العيني فسارع إليها وما زال حتى إلتحق بها، وأقبل على الدراسة بحماسة المجاهد في سبيل تحقيق غاية كبرى.

ولقفي مدة الدراسة بهذه المدرسة عقبات أخرى كان يواجهها واحدة بعد واحدة ويتخطاها منتصرًا، وكانت العقبة الأخيرة منها يوم جاء مفتش التعليم ليختار التلاميذ اللائقين للإلتحاق بمدرسة قصر العيني، وواتاه حسن الحظ ففاز آخر الأمر بأمنيته وأصبح تلميذًا في المدرسة التي تعلق قلبه بها. و كانت سنه عند ذلك لا تزيد على إثني عشر عامًا. ولكن مفاجأة قاسية كانت تنتظره بمدرسة قصر العيني.

ما كاد يدخل هذه المدرسة المأمولة حتى دبت الخيبة إلى قلبه وكادت تحطم أمله. كانت لا تزيد على معسكر يتعلم فيه الأولاد السير العسكري، وكان المعلمون يضربون التلاميذ ويوجهون إليهم أنواع الإهانة والسب بغير حساب. وكان الفراش الذي ينامون عليه من حصير الحلفاء، والطعام الذي يقدم لهم تافهًا كريه الطعم، ولم يجد الصبي مع هذا كله شيئًا مما كان يطمح إليه من التعليم. فلم يلبث أن مرض مرضًا شديدًا كاد يودي بحياته، وإجتمع عليه ضعف المرض وخيبة الأمل وألم الندم على ترك أهله بغير

فائد. ففكر في الهرب مرة أخرى ولكن إلى أين؟ وماذا تكون نتيجة هربه من المدرسة؟ كانت عقوبة الذين يحاولون الهرب كافية لجعله يرجع عن أية محاولة من هذا النوع لأن أهل التلميذ الهارب كانوا يساقون إلى السجون ويتعرضون لألوان شتى من الإهانة والعذاب.

وقد جاء أبوه ذات يوم لزيارته وعرض عليه أن يساعده على النجاة من تلك المدرسة، وكاد يمهد له سبيل الهرب بالإتفاق مع بعض خدم المدرسة. ولكن علي أبى أن يطيعه خوفًا عليه من عواقب هذه المحاولة. ثم جاءت اللحظة الحاسمة في حياة علي مبارك عندما نقلت المدرسة من قصر العيني لتجعل في مكانها مدرسة الطب الجديدة التي ما تزال إلى اليوم هناك. وأختير للمدرسة الأولى مكان آخر في (أبي زعبل) بعيدًا عن القاهرة فخيل إلى الصبي أن كل شيء قد إنتهى إلى الخيمة الكاملة. ولكن المقادير سانت له هنا رجلًا كان له الفضل في توجيه حياته وجهة أخرى وحددت له طريقه في الحياة تحديدًا شاملًا. كان الناظر الجديد الذي أختير لمدرسة (أبي زعبل) رجلًا له ضمير إنسان وقلب مؤمن بالوطن وهو إبراهيم بك رأفت. ولاشك أن إعجاب الصبي بناظره الجديد ترك في نفسه أثرًا عميقًا جعله يتجه بكل قلبه إلى تقديس وظيفة المعلم المخلص.

كان إبراهيم رأفت يجمع المتأخرين من التلاميذ ويتطوع بالتدريس لهم في فرقة خاصة، وكان من بينهم علي مبارك ومن الدرس الأول بدأ الصبى يتغير وينظر إلى مدرسته نظرة أخرى كلها أمل وكلها حماسة. وبعد قليل تحول علي مبارك من تلميذ متخلف بائس إلى تلميذ آخر نشيط مبتهج ولم

ينس فيما بعد إنه مدين لعطف ذلك الأستاذ الجليل وإخلاصه في أداء واجبه فكان يبذل جهده عندما صار معلمًا أن يهب كل عطفه وكل نشاطه لتلاميذه.

وبعد أربع سنوات تخرج علي مبارك في مدرسته ودخل في مدرسة (المهندسخانة) ببولاق مخلفًا وراءه الطريق المملوء بالأشواك. وفي خمس سنوات أخرى أتم دراسته العليا، و كان في طليعة المبرزين من نجباء خريجي مدرسة الهندسة، فأوفد في بعثة علمية إلى فرنسا.

ولكن الشاب إبن العشرين كان أكثر من شاب طموح يشق طريقه في الصخر والشوك، لأنه لم ينس عند سفره إلى فرنسا أن يوصي بقسمة مرتبه إلى نصفين أحدهما لوالده الشيخ والثاني لنفقته الخاصة في بلاد فرنسا، وكان كل مرتبه مائتين وخمسين قرشًا كل شهر.

وامتدت دراسة الشاب إلى ست سنوات في فرنسا، وكانت سنوات عريضة غزيرة، مليئة بالدرس والملاحظة والنمو. ولما عاد إلى وطنه بعد ذلك عين مدرسًا في مدرسة (طرة) وذلك في أيام الخديو عباس الأول.

وكان الخديو عباس الأول غريب الأطوار يجمع بين ضيق الأفق والغطرسة، وكان من أول ما بدا له أن يغلق معاهد التعليم التي أنشأها جده مُحَمَّد علي. فأمر بأن (يفرز) تلاميذ المدارس جميعًا ليختار منهم عددًا محددًا بجمعهم في مدرسة واحدة ويغلق أبواب المدارس الأخرى.

واختار هذه المدرسة الوحيدة في (أبي زعبل) وسماها المدرسة

(المفروزة). وكان حزن علي مبارك عظيمًا عندما رأى تلاميذه يفرزون وترسل منهم مجموعة إلى (المفروزة) ولم يبق له (في مدرسة طرة) إلا عدد قليل من كبار السن المتخلفين (تحت التصفية). فكادت عزيمته تنهار من هذه الصدمة لولا إنه وطد العزم على أن يبذل كل ما يملك من قوة وإرادة في تعليم أبناء وطنه أيًا كانوا.

وهزه عند ذلك الحنين إلى وطنه، ولم يكن رأى أمه منذ فارقها من سنين طويلة فعزم على الذهاب إلى قريته ليلم بأهله حينًا. وكانت زيارته تشبه المواقف الخيالية في الأساطير القديمة، فقد طرق الباب وسمع صوت أمه تنادي من وراء الباب: «من أنت؟»، فأجابها: «أنا علي!» وفتح الباب الضخم ووقفت الأم أمامه تنظر إليه ولا تصدق عينيها. كان الشاب في لباسه الأنيق والسيف مدلى إلى جانبه وقد أصبح طويلًا ممشوق القوام يلمع وجهه بالقوة والإبتهاج. ففتحت له الأم ذراعيها وعانقته عناقًا حارًا وهي تبكي ثم وقعت مغشيًا عليها.

ولما أفاقت جعلت تبكي حينًا وتضحك حينًا ثم أخذت تزغرد وتتكلم وهي تحسب إنها في حلم سعيد. وأقبل أهل البيت على صوتها وإجتمع الجيران من كل جانب حتى إمتلأ بهم البيت ولم ينصرفوا حتى طلع عليهم الصباح.

كانت تلك أول مرة ترى فيها القرية ولدًا من أبنائها يعود إليها وهو يلبس لباس السادة الحكام! وأرادت الأم أن تطيع سعادتها وتولم وليمة عظيمة لجيرانها إحتفالًا بعودة وحيدها على هذه العودة التي لم يحلم أحد

من أهل القرية مثلها. ولكنها لم تجد معها شيئًا تعد به الوليمة وظهرت الحيرة في وجهها وفي حركتها المضطربة، ولاحظ الشاب حيرة أمه فأخرج لها عشر قطع من جنيهات الذهب لتحقق بها رغبتها.

وعاد علي مبارك إلى ميدان العمل فأسندت إليه وظيفة بعد أخرى، ولكنه كان لا يرتاح إلا إلى عمل واحد وهو التدريس. وكان سروره عظيمًا عندما أسندت إليه نظارة المدرسة (المفروزة) وهو يقول في ذلك:

«وفي مدة نظارتي للمدرسة كنت أباشر تأليف كتب المدارس بنفسي مع بعض المعلمين، وجعلت بها مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها نحو ستين ألف نسخة من كتب منوعة»..وقال أيضًا: «ولكن ذلك لم يشغلني عن إلتفاتي للتلاميذ في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك، وكنت أباشر ذلك بنفسي حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب، وألاحظ المعلم كيف يلقي الدروس وكيف يؤدب التلاميذ ولا يمضي يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها..»

ولكن جزاء الشاب على هذا الإخلاص في أداء عمله كان تجربة مرة قذفت به بعيدًا عن ميدان التعليم وذلك أن الخديو غضب عليه فجأة على أثر وشاية دنيئة، فأمر بإرساله مع الجيوش المحاربة إلى الدولة العثمانية للإشتراك في حربها مع روسيا. وكان عند ذلك لم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره. وكان في وداع تلاميذه له عند مفارقته لهم عزاء كاف له. وقفوا جميعًا على شاطيء النهر ليشيعوه إلى السفينة التي ستنقله إلى الإسكندرية. ولم يملك التلاميذ أعينهم من البكاء ولم يستطع علي مبارك أن يقاوم شعوره

فإنحدرت الدموع على وجهه كذلك. وسافر في رحلته الطويلة بنفس ثابتة راضية لأنه سيرى بلادًا لم يرها من قبل وسيقف في مواقف جديدة لم يقفها من قبل وسيجرب تجارب أخرى تزيده معرفة وخبرة.

وإنتهز فرصة وجوده بإستانبول مدة أربعة أشهر فتعلم اللغة التركية، وأقام في بلاد (القرم) مع الجيوش المحاربة عشرة أشهر إنتقل بعدها إلى بلاد الأناضول فأقام في إقليم وعر جبلي شديد البرد وكان ذلك في فصل الشتاء. فكثرت إصابات المجندين بالأمراض الناشئة عن البرد الشديد، وأخذ علي مبارك على نفسه أن يتعهد أمور المرضى بنفسه لأنه لم يجد هناك أحدًا آخر بتعهدهم.

فأخذ يجمع الأموال تبرعًا من الناس، ولما لم يجد أحدًا من الأطباء يساعده في عمله الإنساني إختار رجلًا ممن لهم خبرة بالعلاج على طريقة أهل الإقليم وشاركه بنفسه في خدمة المرضى. وكانت عنايته وإخلاصه في هذه الخدمة كافية للتعويض عن جهله وجهل شريكه بفنون العلاج. فأثمر المستشفى ثمرة طيبة جعلت أهل الإقليم يكتبون له وثيقة يسجلون فيها إعترافهم بحسن صنيعه. ولكنه عاد إلى مصر بعد هذا الجهاد الطويل ليستقبله مأزق شديد كان له أثر عميق في نفسه الحساسة. ولكي نعرف سر ذلك المأزق لا نجد مفرًا من التحدث قليلًا عن حياته الخاصة.

كان علي مبارك قد تزوج عقب عودته من بعثته في أوربا بإبنة أحد مدرسيه في المدرسة الثانوية، عندما توفى عنها أبوها ولم يكن لها في الحياة من يعولها. وكانت زوجة طيبة وفية بذلت له جزاءه من السعادة في حياتهما

المشتركة، ولسوء الحظ ما لبثت حتى عاجلها الأجل بعد قليل. وحزن عليها حزنًا شديدًا جعله يعزف عن الزواج حينًا طويلًا، ولكنه تزوج مرة ثانية من إحدى بنات الأعيان وكانت وارثة تملك ثروة كبيرة، فوق ما كانت عليه من الجمال. وحاول الشاب جهده أن يكون زوجًا شهمًا فأحسن معاشرتها وتعفف عن أموالها ولكنها كانت تعامله مثل طفلة مدللة. وكان أهل الزوجة لا ينسون أنه من أسرة قروية وإنه فلاح وإبن فلاح برغم ما كان عليه من النبوغ في العلم وما إمتاز به من كريم الخصال. وبدأت الأحاديث السامة تفسد العلاقة بين الزوجة الصغيرة الغريرة وزوجها الشاعر بكرامته وخلا الجو لأهلها في مدة غيابه في بلاد تركيا فأوغروا صدر المرأة على زوجها، حتى إذا ما عاد من سفره الطويل وجد نفسه هدفًا لمكيدة دنيئة واسعة النطاق لم تلبث أن إنتهت بالفراق. ولم يقنع أصحاب المكيدة بذلك بل سعوا عند الخديو لفصله من خدمة الحكومة وتم لهم ما أرادوا. ويقول علي مبارك عن نفسه في هذا الموقف: «كانت حالتي بعد سبع سنين من عودتي من أوربا مثل حالتي عند أول عودتى منها وذهب كل ما كسبت من الأموال وضاع كل ما شغلت من المناصب ولم يبق بالخاطر إلا ما فعل الناس معي من خير وشر وما أكسبني الزمان من صدماته وغرائب تقلباته».

وعزم على الذهاب إلى الريف ليحيا هناك بين أهله ويرتزق من كده وعمله كما يرتزقون. ولكنه لم يلبث أن طلب لخدمة الحكومة مرة أخرى فتقلب في وظائف مختلفة لم يشعر في واحدة منها بالإطمئنان أو الرضى. ثم هيأت له الظروف أن يعود إلى الوظيفة التي يحبها من أعماق قلبه وذلك

عندما كان مسافرًا مع الخديو سعيد في مريوط، وأخذ الخديو يتحدث إلى من حوله عن تعليم الضباط وصف الضباط، وأخذ يسألهم عمن يريد منهم أن يتطوع لتعليمهم. وكانت دهشة الجميع عظيمة عندما تقدم علي مبارك متطوعًا ليكون هو معلمهم. وهو يقول في هذا عن نفسه: «كيف لا أرغب في إنتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم فيهم؟» وإتخذ مدرسة في خيام متنقلة مستخدمًا كل ما يتهيأ له من الوسائل للنجاح في تعليمه. ولم يقتصر في مدرسته المتنقلة على تعليم القراءة والكتابة والحساب بل علم تلاميذه الهندسة والفنون العسكرية والإستحكامات وسوق الجيوش وطرق الحرب.

ولكن عصر سعيد المضطرب قذف به بعد قليل إلى الخارج فوجد نفسه عاطلًا من الوظيفة وإضطر إلى أن يرتزق بالإشتغال بالتجارة. ونجح في هذه المرة نجاحًا عظيمًا حتى إنه فكر في إنشاء شركة تجارية لإنشاء المنازل وبيعها.

ثم تولى الخديو إسماعيل بعد موت سعيد، وكان من أول أعماله إعادة علي مبارك إلى خدمة الحكومة وعهد إليه بنظارة القناطر الخيرية، وكان يكل إليه من الأعمال ما يحتاج إلى البراعة في فنون الهندسة. وبعد ست سنوات من أعمال هندسية مختلفة أضاف إليه إسماعيل إدارة ديوان المدارس وكانت سنه عند ذلك ستة وأربعين عامًا. فوثب الرجل إلى فرصته بحماسة تدعو إلى العجب والإعجاب معًا. كانت وثبته تلك هي نقطة التحول في حركة التعليم بمصر ومن تلك اللحظة وضع الأساس الأول للتعليم الذي نعرفه

اليوم وهو يحكي عن نفسه قائلا: «كانت كثرة أشغالي لا تشغلني عن الإلتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلاميذ والمعلمين فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيًا عند غدوي من البيت ورواحي إليه وأعملت فكري فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية».

ثم قال أيضًا: «وقد تأسس هذا المشروع وثبت وسرت فيه إلى أن إنفصلت عن المدارس وحصلت منه على نتائج حسنة».

وأنشأ مطبعتين لطبع الكتب المدرسية كما أنشأ دار الكتب المصرية الأولى ليرجع إليها المعلمون، وجمع فيها الكتب القديمة الثمينة المتفرقة في المساجد وغيرها. ومما يسترعي النظر إنه أنشأ لأول مرة في مصر معملًا للعلوم جمع فيه آلات العلوم الطبيعية والرياضية ليكون عوًنا للمعلمين على جعل الدراسة عملية قائمة على التجربة.

وقد إهتم ببناء المدارس وإصلاح ما يحتاج منها إلى الإصلاح، وكان بذلك رائدًا للعصر الحديث في التعليم، ولعل أكبر مآثره في التعليم إنشاؤه لدار العلوم حتى يعد للمدارس من تحتاج إليهم من المعلمين الصالحين تمهيدًا للجهاد في نشر المدارس في ربوع البلاد لأنه كان معلمًا أصيلًا يعرف أن كل محاولة في نشر التعليم بغير إعداد المعلم الصالح لا تجدي البلاد شيئًا.

وقد شجع الشبان من خريجي المدارس العالية على الإشتراك في التعليم، فكان يختار خريجي مدارس المهندسخانة والمحاسبة والإدارة ليكونوا

مساعدين للمدرسين حتى يستطيعوا أن يشتغلوا بالتدريس بعد أن يكتسبوا المران الكافي. وكان في الوقت الذي يجاهد فيه هذا الجهاد النشر التعليم وإرساء أساسه يبذل جهدًا آخر كبيرًا في الأعمال الهندسية، فله الفضل في تجميل القاهرة وميادينها. وكان هو الذي يقوم بالإتفاق مع الشركات الأجنبية التي أدخلت النور والماء لأول مرة إلى بيوت المدينة.

في هذه الأثناء كان الشاب علي مبارك قد صار كهلًا تجاوزت سنة الرابعة والخمسين، وبدأ يحس عبء السنين وأثر الجهاد المضني وتجمعت عند الأفق في الوقت نفسه سحائب سود فيها برق ورعد تنذر بهبوب عاصفة هوجاء.

وذلك أن الأزمة المالية المشئومة كانت قد بدأت تهز قواعد حكم إسماعيل ولم تلبث أن عصفت به بعد قليل. ومع إنه أصبح ناظرًا لديوان المعارف في الوزارة التي أنشأها إسماعيل عندما إشتدت الأزمة فإنه كان يحس أن جهاده الحقيقي قد إنتهى. حقًا إنه أنشأ في مدة وزارته بعض مدارس ممتازة لتكون نماذج للمدارس الجديدة مثل مدرستي طنطا والمنصورة، وحقًا أنه بذل جهده في نشر التعليم الحديث في المدن والقرى، ولكن إضطراب أمور الحكم كان يفرض عليه قيودًا لا طاقة له بها. وأخيرًا قامت الثورة العرابية ثم أعقبها الإحتلال البريطاني فوقفت حركة إصلاح التعليم ثم بدأ الإحتلال الإنجليزي يفرض سياسة أخرى غير السياسة التي وضع أساسها علي مبارك، وكانت تختلف كل الإختلاف عما كان يقصده معلم مصر الحديثة الأول.

وقد أراد الشيخ وهو في سن السادسة والستين أن يعتزل الوظائف ويعود إلى قريته ليقضي ما بقي من عمره بين حقول الريف الخضراء التي أحبها منذ كان طفلًا وتحت أشعة الشمس اللامعة التي كان في صباه يمرح في فيضها مع لداته من أبناء الفلاحين الذين لم ينس يومًا أنه واحد منهم وأن أعظم واجب عليه هو أن يعلمهم ويسمو بهم إلى مرتبة البشرية العليا. ولكنه لم يتمكن من هذه الراحة التي يستحقها، فقد دعاه توفيق ليكون ناظرًا لديوان المعارف في عهد الإحتلال، وما كان أمر عودته إلى ذلك الديوان في ظلال الإحتلال. ولم يستطع أن يتخلف عن الدعوة ولكن كلماته التي سجلها بقلمه تنم عما كان في نفسه من الحسرة والألم والخيبة. فقد قال: «تركت القرية عندما طلبت لهذه الخدمة وأخذت في تأدية ما فرض علي قيامًا بحق وطني..وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب الطاقة بقدر الإمكان والله المستعان!».

فكان مثاله كالجندي الذي لا يدع العلم يهوي من يده حتى يخر وهو لا يزال في يده..وأدركه الأجل بعد أربع سنوات مخلفًا وراءه إسمًا خالدًا كأول معلم مصرى خالص جاهد من أجل رفعة مصر عن الطريق الطبيعي لرفعتها—التعليم.

ولكنه خلف وراءه كذلك معنى خالدًا آخر لأنه هو الطفل الفلاح الذي كافح في طريق من الأشواك حتى عرف آخر الأمر أنه خلق ليكون معلمًا لأبناء وطنه. ومنذ تلك اللحظة التي عرف فيها رسالته إتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل إخلاصه إلى التعليم حتى مات وقلبه خافق من أجل تعليم أبناء وطنه.

العصامي الموهوب

طاهر الطناحي

إذا ذكر العصاميون الذين بنوا أنفسهم، وشادوا للإنسانية صروحًا عالية في مختلف الميادين بأعمالهم الجيدة، وجهودهم الممتازة، فإن جرجي زيدان في المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ، فقد بلغ بالعصامية أرفع مكان في ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة. وكانت حياته أبلغ درس للشباب المكافح، وأعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطيء، لا تحركهم همة، ولا تبعثهم إرادة على إجتياز الأمواج ليصلوا إلى ما يريدون من رقي ونجاح.

لم يقف جرجي زيدان على شاطيء الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائسًا من النور، لأن والده أمي لا يعرف فضل العلم، أو لأنه فقير لا يملك نفقات التعليم، أو لأن ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب، بل نظر بعقل الصبى النابغ، فوجد أن الرغبة الصادقة تحطم أقوى العقبات، وإن الإرادة النافذة تحقق المستحيلات، وإنه كما قال ابن الوردى:

لا تقل أصلي و فصلي أبدًا ... إنما أصل الفتى ما قد حصل

نعم، لم يقل جرجي زيدان أصلي و فصلي حتى تثبط همته وييأس من النجاح، بل إندفع إلى تحصيل العلوم والآداب، وشق طريقه بنفسه إلى المجد والرفعة، وإتخذ من فضل العلم خير أصل، ومن جمال الأدب أحسن نسب!

حادث أليم

نشأ جرجي زيدان في عائلة متوسطة الحال، ولكن الأيام تنكرت لها، فذاقت متاعب الفقر، فقد كان جده زيدان مطر وكيلاً على أملاك السيدة حبوس والدة الأمير مصطفى أرسلان، وكان وقتئذ في سعة من العيش، إذ كانت هذه السيدة تحكم «عين عنوب» وما يليها في لبنان في أوائل القرن التاسع عشر. فلما حمل إبراهيم باشا على سورية وفتح عكا وأراد الإستيلاء على لبنان خافت السيدة حبوس بطشه وسطوته، فعزمت على الفرار من وجهه، وطلبت من زيدان مطر أن يرافقها، فاعتذر بمن عنده من أولاد وأهل، فتركته وقد حقدت عليه. فلما ضعف شأن إبراهيم باشا عادت إلى «عين عنوب» وصادرت أملاك زيدان وأمواله، وتعمدت الحط من شأنه، فشق ذلك عليه، وأثر في صحته، ومات قبل أوانه، وقد خلف وراءه زوجة وإبنين وإبنتين أكبرهم حبيب والد جرجي زيدان.

ولما كانت هذه الزوجة الأرمل لا تستطيع البقاء بأولادها في هذه الحال بعين عنوب، فقد نزحت بهم إلى بيروت—وهي يومئذ مدينة صغيرة لا مرتزق فيها غير الإتجار وصنع ضروريات الحياة كالأطعمة والملابس ونحوها، أو خدمة الحكومة في الكتابة والجندية.

أسرة كادحة

وكان حبيب في العاشرة حين نزل مع أسرته إلى بيروت، فلم يتسع له الوقت للتعليم، فعاش أميًا، وانصرف لتحصيل الرزق وإعانة أسرته، ولم يزد

عمله على مطعم صغير في سوق ساحة البرج ببيروت. وكان هو وزوجته- على الرغم من ضيق الرزق- مثال النشاط والجد في العمل، حتى قال عنهما جرجي زيدان في مذكراته الخاصة: «نشأت في صباي وأنا أرى والدي يخرج إلى دكانه في الفجر، ولا يعود إلا في نحو منتصف الليل أو قبيله، وأرى والدتي لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء. لا تعرف الزيارات، ولا تغشى الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية، فإنها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة إلا نادرًا، وإنما همها تدبير بيتها، وتربية أولادها..وقد شبت على ذلك وألفته، فغرس في ذهني: أن الإنسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير..بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء. ولا يهمهم إلا ماذا يأكلون، وماذا يشربون. وإذا فرغوا من الطعام عمدوا إلى اللعب بالورق أو غيره. ولا يقدمون على العمل إلا مكرهين. يحسبون العمل عيبًا أو تعبًا. ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف.

«فالأبناء الذين يربون بين أولئك الآباء ينشأون كسالى، ويميلون إلى الملاهي والرذائل...».

في هذه البيئة النشيطة- بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية- نشأ جرجي زيدان..ولقد كان والده كما قلنا أميًا، ولكنه شعر بالحاجة إلى الكتابة والقراءة ليدون حساب مطعمه، فإستخدم كاتبًا لذلك. ودعته هذه الحاجة إلى أن يرسل إبنه جرجي وهو في الخامسة من عمره إلى مدرسة حرة يديرها قسيس يدعى المعلم إلياس شفيق.

وكانت في قبو وضيع، يجلس التلاميذ فيه على حصير مبسوط على الأرض. وقد أمضى في هذه المدرسة سنتين لم يتعلم فيهما شيئًا غير فك الخط، ثم نقله والده إلى مدرسة تدعى مدرسة الشوام، فتلقى فيها مبادىء الحساب والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية، وبقى فيها نحو عامين، ثم أغلقت. فإنتقل إلى مدرسة المعلم طاهر خير الله، فمكث بها عامين آخرين

في مطعم أبيه

أصبح في الحادية عشرة، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالأمل إلى المستقبل، غير أن والده ما لبث أن دعاه إلى مساعدته بالمطعم ليقيد أسماء الزبائن وحساباتهم ويلاحظ الحال ريثما تجد مساعدًا غير المساعد الذي تركه وقد قال له:

«تعال يا جرجي لمساعدتي سبعة أيام أو ثمانية ريثما أجد من يقوم مقامك..» فأطاع والده وهو يعلل النفس بالرجوع إلى المدرسة، ولكن هذه الأيام السبعة إمتدت إلى سبعة أعوام حتى خشيت والدته على مستقبله...وقد قال في مذكراته:

«ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عام وبعض العام، خافت والدتي أن يطول مقامي ويضيع مستقبلي. وكانت تكره المطاعم، وكانت منذ طلبني والدي لمساعدته تلح عليه ألا يطول مقامي، وهو يعدها..فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجني، ويعيدني إلى المدرسة، فقال لها:

«إنه قد أتم دروسه، ولا فائدة من كثرة الدرس، إلا إذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبًا أو معلمًا، فضلًا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجًا متأنقًا لا يأكل إلا بالشوكة والسكين وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الإفرنجى– وكان هذا اللباس قليلًا، وكان الأكل بالشوكة والسكين لا يزال معدودًا من عادات المتفرنجين.

ولم يقل والدي ذلك في نفور من المدنية، ولكنه كان محبًا للمحافظة على العادات الشرقية. وكان يكره التصنع والتظاهر بمظاهر الإفرنج، فإقتنعت والدتي بهذا الجواب، ولكنها ما زالت تكره أن أبقى في تلك الصناعة، وقالت لأبى: إدخله في صناعة أخرى، فإني أكره هذه الصناعة ورائحة الزفر والإنحباس في الدكان ليل نهار–لا عيد..ولا أحد فأذعن لإعتراضها..وبعد النظر قر رأيهما على أن أتعلم صناعة الأحذية الإفرنجية».

وقد كانت صناعة الأحذية الافرنجية وقتئذ حديثة العهد في بيروت، وحجتهم في إختيارها له وهو في الثانية عشرة من عمره أن بعض البيروتيين مارسوها فأثروا منها وصار لهم أموال وأملاك، وقد مكث في هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما أكثرها. ولكنه ما لبث بعد ذلك أن تركها لأنها لم توافق صحته وأصابه ضعف في معدته من الجلوس الطويل على الكرسي للعمل، وخاف والداه عليه، فقررا إعادته إلى المطعم مؤقتًا ريثما يفكران في صناعة أخرى لمستقبله!

صبر جميل

تذرع الصبي جرجي زيدان بالصبر، فلم يكن أمامه في ظلام الحياة، ومحاربة الأيام غير الصبر والأمل.. ولكن أين الأمل؟..فليس حوله إلا السدود والعقبات، وإلا ما يبعث على اليأس، ولكن نفسه الكبيرة لم تعرف اليأس، لذلك تذرع بالصبر وحده. والصبر محمود، ولا سيما في هذه الحال التي لا حيلة فيها غير الصبر، كما قال ابن الرومي:

أرى الصبر محمودًا وفيه مذاهب

أرى الصبر ما لم يكن عنه مذهب

هو المهرب المنجي لمن أحدقت به

مكاره دهر ليس عنهن مهرب

صبر جرجي زيدان، وعاد إلى مطعم أبيه–لا عودة الجبان المستسلم لقسوة الأيام، ولا الضعيف البائس الذي سدت في وجهه الآمال، وأنهزم في معركة الحياة، فسئم جهاده، وقعد كئيبًا يندب حظه، ويأسى على نفسه، أو يتعزى بغيره ممن هزمهم الدهر، فأستسلموا للهزيمة، وأضاعوا أعمارهم سدى دون أن يكون لهم في الحياة العليا سهم أو نصيب... كلا، بل عاد إلى مطعم أبيه كما يعود القائد الشجاع من الميدان ليتزود بالتفكير وإنتهاز الفرص، ويضع الخطط الجديدة ليواصل جهاده، ويفوز بما قدر لهذا الجهاد الصادق من نصر فائق ومستقبل عظيم.

بارقة أمل

وكانت بيروت وقتئذ حافلة بأهل اللهو والبطالة، وكان منهم من يترددون على هذا المطعم، وكان الصبي جرجي يرى في هذا الظلام ضياء الله، ويلمح بالسريرة ما هيئ له في المستقبل من مجد علمي وأدبي، فلم يلتفت إلى ما حوله من فساد وجهل ولم ينزع إلى ريبة، ولم ينزلق في مأثمة ثم ظهرت طبقة متعلمة تخرجت من مدارس الإرساليات الدينية المسيحية من أمريكية وألمانية وإنجليزية. وكانت هذه المدارس قد أنشئت على إثر مذابح عام ١٨٦٠ لنشر العلم والأدب على نهج التمدن الحديث، وعلمت طائفة من الشبان الذين تكونت منهم الطبقة المتعلمة التي كان عليها المعول في تغيير الآداب الإجتماعية في بيروت، وكان جرجي زيدان ينظر إلى هذه الطبقة وقتئذ وهو يشعر بتقصيره في مجاراتهم في التربية والتهذيب، فكان يتقد غيرة ورغبة في أن يأخذ مثلهم بنصيبه من العلم والتعليم.

يتعلم الإنجليزية في المطعم

وأتفق ذات يوم أن زار المطعم المعلم مسعود الطويل – أحد المعلمين في بيروت – فذكر أنه فتح مدرسة يعلم فيها الشبان اللغة الانجليزية ساعة قبل الغروب، فرغب جرجي زيدان في تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه في المطعم، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عامًا، فصار يتردد عليه في بيته مع ١٤ تلميذًا، ومكث هناك خمسة أشهر، قال له المعلم مسعود في نهايتها أنه تعلم الإنجليزية جيدًا، فجرب قوته في مطالعة كتاب «رحلة كوك في جزائر المحيط» فرأى نفسه أقل كثيرًا مما كان يظن،

فأخذ في الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل في كثير من الأيام.

ولما شعر بأنه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت في نفسه ملكة التأليف التي ظهرت فيما بعد قوية عارمة، فأخذ في وضع قاموس إنجليزي عربي في ذلك الحين. وقد وصل في تأليف هذا القاموس إلى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله... على أن ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه في اللغتين العربية والإنجليزية، فأخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب.

كتاب مجمع البحرين

وكان أول كتاب عني به في اللغة العربية وأحب إقتناءه، كتاب «مجمع البحرين» للمرحوم الشيخ ناصف اليازجي. وهو كتاب أدبي وضعه مؤلفه في ستين مقامة على طراز مقامات الحريري. وكان قد أبتاعه من أحد باعة الكتب المتجولين. ولهذا الكتاب قصة طريفة يرويها جرجي زيدان في مذكراته، فيقول:

«كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين، وأحب اقتناءه. لكني كنت أستغليه، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة، ففي ذات يوم كنت جالسًا بالمطعم، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملًا، وهو يعرضه للبيع، فأشتريته منه بتسعة قروش بيروتية أي أقل من نصف ثمنه، وفرحت به كثيرًا. ولما رجع والدي سألني عنه، فأخبرته أني أشتريته بتسعة قروش، فزعل، وقال: «أتدفع في هذا الكتاب تسعة قروش، وتبدل الدراهم بورق»!

«فزعلت ولم أجبه، ولما إنصرفنا للبيت في المساء، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء، أظهرت أني لا أريد الطعام، وذهبت للنوم، وأنا أتوقع أن يدعواني، ولا يتركاني أنام جائعًا. وسمعت والدتي تعنف والدي لإغضابي حتى نمت بلا أكل، ولكنه أصر على رأيه... وأتفق أن جاء أمين فياض أحد أصدقاء والدي للسهرة عنده في تلك الليلة، وكان يتودد إلي، فسأل عني، فقيل له أني نمت. وأغتنمت والدتي هذه الفرصة، وشكت إليه عناد والدي، فسأله عن سبب غضبه، فقال: «أنه يصرف الدراهم في شراء الورق بلا فائدة»!.. فأجابه: «أشكر الله يا أبا جرجي أن أبنك ينفق الدراهم في شراء الكتب، وليس في السكر ونحوه. إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها».

لا«و سمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم. وللحال أشتد ساعد والدتي، وقامت فأيقظتني، وأجلستني إلى المائدة، وطيبت خاطري، وكذلك والدي... ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني...».

غرام بالعلم وهمة وإرادة

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم إلى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده. وكان إلى ذلك الحين لا يعرف النواميس الطبيعية كدوران الأرض والكواكب، وخسوف الشمس والقمر وأسباب السحاب والمطر وغيرها. وقد أطلع في إحدى المجلات على مقالة في سبب الخسوف والكسوف، بعثت في نفسه الرغبة في مطالعة هذه الكتب، فأقبل عليها حتى أستوعبها بهمة وإرادة قوية. وكان

وقتئذ يلبس السروال البيروتي ويعتقد أن لابسي البنطلونات أرقى عقلًا وأوسع معرفة وأصح حكمًا من لابسي السراويل، لأن أكثرهم من المتعلمين، فلما أستنار بنور العلم ضعف عنده هذا الإعتقاد، وشعر أنه إنسان له شخصية وإرادة، وصار لا يستبعد مجاراة أهل السراويل لأهل البنطلونات!

وقد كان به جنوح غريزي إلى العلم والأدب، وكانت والدته كلما رأت منه ذلك ساعدته عليه، غير أن العقبة في إخراجه من محل أبيه أن يجد عملًا آخر يستغني به عن عمله، ففكر في تعلم حساب مسك الدفاتر ليكون كاتبًا في أحد المخازن، فوافقه والده على ذلك. وكأنه رأى في هذا العمل منجاة ومهربًا من المطعم ريثما تتاح له الفرصة ليواصل جهاده في سبيل العلم والأدب، لا في سبيل المادة، ولا في سبيل الأرقام الصامتة التي يجمعها ويحسبها في هذه المحنة النفسية التي يعانيها في ذلك الحين...

يقضي على المرء في أيام محنته   حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

أمنية حققتها الأيام

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف في بيروت حتى أتقن هذا الفن في نحو شهرين، ثم وظف في أحد مخازن القماش، ولكنه لم يرتح إلى هذه الوظيفة التي لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد في مساءه إلى مطعم أبيه. وكان هذا المطعم قد أصبح مقصدًا ومرادًا للطبقة المتعلمة في بيروت، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والأدباء والصحفيين كالشيخ إبراهيم

اليازجي والمعلم عبد الله البستاني، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم، وكان يميل إلى مباحثة الطلبة الذين يترددون عليه وخاصة طلبة الطب في «المدرسة الكلية» التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية ببيروت. وكانوا يرون فيه إستعدادًا عجيبًا، وقد يدخل معهم في بحث علمي، فيسمعون منه أقوالًا لا يعهدونها في أمثاله، فأحبوا صحبته، وأخذوا يدعونه إلى الإحتفالات التي تجري في المدرسة على أثر الإمتحانات، فيسمع الخطب، ويشاهد التلاميذ الناجحين، فيتقد قلبه غيرة وحمية، ويود لو أتيح له يومًا أن يكون بين هؤلاء الناجحين. وكان كلما حضر إحتفالًا فكر في نفسه، وما يعترضه من العقبات في سبيل تحقيق أمنيته، فيخرج منقبض الصدر، ويلاحظ عليه أصدقاؤه ذلك، فيسألونه، فلا يبوح لهم بما في سره وما تنطوي عليه جوانحه من الآلام. وذات يوم صارح أحد أصدقائه قائلًا:

– ألا يأتي يوم أقف به موقف أولئك المتعلمين؟

ثم سكت صابرًا، وأخذ يفكر فيما يوصله إلى ما يريد.

سر النجاح

من الأقوال الحكيمة التي ما زالت من دروس الحياة، وهي نتيجة التجارب قول البحتري:

لا يلبـــث الممنـــوع تطلبـــه   حـــتى يثـــوب اليـــك ممتنعـــه

وكذلك كان جرجي زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح في طلبه

حتى ثاب إليه ما منع عنه وأسلس قياده. وقد ضاعف همته، وأثار بواعث نشاطه ما قرأه من سير الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم وإجتهادهم، وإعتمادهم على أنفسهم، وفيهم من كان حلاقًا، أو حدادًا، أو نجارًا، أو عاملًا من العمال، وقد أتيح له وقتئذ أن يقرأ كتاب «سر النجاح» الذي نقله إلى العربية الدكتور يعقوب صروف، فإطمأنت نفسه، وشعر بحافز قوي إلى المضي في عزمه على تعلم الطب.

وكان قد أنتظم في عضوية «جمعية شمس البر» بيروت. وهي جمعية أدبية أكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية ببيروت، فأفضي بعزمه إلى بعض أصدقائه، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغي أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة في الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة، ولم يكن جرجي زيدان قد ألم بها إلمامًا يساعده على النجاح في الامتحان – هذا عدا الإمتحان في اللغتين الإنجليزية والعربية – ولم يكن أمامه إلا عطلة الصيف، وهي نحو أربعة أشهر... وقد حق لأصدقائه أن يدهشوا لو أن جرجي زيدان كان طالبًا عاديًا ، ولم تكن الأقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق. ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هذا التثبيط عن تحقيق أمنيته، فأقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار، وتقدم لإمتحان القبول بمدرسة الطب، وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه أشبه بإعترافهم بنبوغه. وكانت وثبة من «سوق الطويلة» ببيروت إلى ساحة «المدرسة الكلية الأمريكية» جعلته يشعر بمواهبه وأنه لا يقل عن لابسي البنطلونات مقدرة وذكاء...!

ثورته الحرية الفكرية

انتظم في دراسة الطب في المدرسة الكلية عام ١٨٨١، وكان مثال الإجتهاد والتفوق على قرنائه. ونال في الإمتحان السنوي درجات الإمتياز، وقد حضر الإحتفال هذه المرة، لا زائرًا ولا متفرجًا كما كان في الإحتفالات الأخرى، بل ناجحًا ممتازًا يشار إليه بالبنان، وحققت له الإرادة القوية ما كان يتمنى فوقف «موقف أولئك المتعلمين». بل وقف بينهم موقف الممتازين.

وكانت السنة الثانية للطب، فانتظم مع إخوانه في الدراسة، ولكن لم يمض غير شهرين حتى وقعت حادثة الحرية الفكرية في المدرسة الكلية، وكان جرجي زيدان من أكثر المتحمسين لها، بل كان أكثرهم تحمسًا، وقد أنجلت عن خروجه مع معظم تلامذتها، غير أنه ثابر على دراسة علوم الصيدلة بعد خروجه، وأدى امتحانًا في هذه العلوم أمام لجنة حرة تألفت في بيروت من أشهر أطباء سورية ولبنان تحت رئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشي المعسكر، ومن أعضائها الدكتور فانديك، والدكتور لويس، والدكتور رابوطاجي، وغيرهم. ونال شهادة الصيدلة في العلوم الآتية: اللغة اللاتينية، والطبيعيات، والحيوان، والنبات، والجيولوجيا، والكيمياء العضوية والمعدنية، والتحليل الكيميائي، والمواد الطبية، والأقرباذين العلمي والعملي.

هجرته إلى مصر

وبعد أن حصل على هذه الشهادة من هذه اللجنة الطبية الحرة أعتزم أن يتم دراسة الطب البشري في مدرسة قصر العيني بمصر، و كان ناظرها وقتئذ الدكتور عيسى باشا حمدي، ولم يكن عنده ما يتزود به من النفقة في الأيام الأولى من الرحلة إلى البلاد المصرية، ولقد غامر بمستقبله في سبيل الحرية الفكرية التي ثار لها هو وزملاؤه في المدرسة الكلية، وكانت أول ثورة وإضراب للطلبة في الشرق، إذ كان يتعلم الطب ليعيش، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله في العلم، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كأنما أنقطع حبل آماله، وأن جهاده ذهب سدى، ولكن ما لبثت عزيمته أن إستردت قوتها، وما عتمت إرادته أن تغلبت على ضعف نفسه، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل اليه، فأقرضه ستة جنيهات ضمها إلى ما كان معه من قليل النفقة، وسافر إلى مصر، ولم ينس أريحية هذا الجار فرد له الجنيهات الستة بعد عام حينما مارس العمل لأول مرة في مصر.

إشتغاله بالصحافة

وكانت سنه حينما هاجر إلى البلاد المصرية، لا تزيد عن إثنتين وعشرين سنة – إذ ولد في ١٤ ديسمبر عام١٨٦١ – فركب إحدى البواخر التجارية. وهي أول مرة يركب فيها البحر، ووصلت به الباخرة صباحًا إلى الإسكندرية في أكتوبر عام ١٨٨٣. وكان ذلك عقب الثورة العرابية، فشاهد هذه المدينة في حالة يرثى لها على أثر الحريق وحوادث التدمير التي حلت بها من العدوان البريطاني. وكان لذلك أثره فيما بعد

حين دون حوادث هذه الثورة في كتابه «تاريخ مصر الحديث».

وبعد أن استراح بالإسكندرية قليلًا شخص إلى القاهرة، وتقدم لمدرسة الطب. غير أن طول المدة لنيل شهادتها، حول عزمه عن صناعة الطب إلى صناعة القلم، فتولي تحرير «جريدة الزمان». وكانت حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة. وقد مكث في تحرير هذه الجريدة عامًا أو يزيد. ثم استقال منها ليعمل في الحملة النيلية إلى السودان.

الفلسفة اللغوية

سافر إلى السودان مترجمًا في الحملة النيلية لإنقاذ غوردون باشا ، فقضي فيه عشرة أشهر شهد في أثنائها أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة أبي طليح والمتمة وغيرها. وقد قاسي في هذه الرحلة ألوانًا من المشقات، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع أحوال هذا القطر، ولما عاد إلى مصر نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على جهوده... غير أنه لم يستقر في مصر بعد عودته من الحملة، بل سافر إلى بيروت عام ١٨٨٥ ، فأنتدبه المجمع العلمي الشرقي ليكون عضوًا عاملًا فيه فمكث في بيروت عشرة أشهر يطالع اللغات الشرقية، فدرس العبرانية والسريانية. ووضع على أثر ذلك أول كتاب له، بل أول كتاب من نوعه في الشرق، وهو كتاب «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين...!

وفي هذه الأثناء ألف أحد أصدقائه رواية سماها «رواية البطلين» جعل جرجي زيدان أول بطليها، وجعل غوردون باشا البطل الثاني. وقد وصف

المؤلف فيها عصامية جرجي زيدان وإنتصاره في معركة الحياة، وبطولته في التغلب على العقبات حتى وصل إلى ما يريد مع المحافظة على الفضائل والآداب الراقية.

عمله في «المقتطف»

كانت مجلة «المقتطف» في ذلك الحين هي أرقى المجلات العلمية وأشهرها في الشرق العربي، وكانت تجتذب أقلام العلماء والأدباء، وقد راسلها جرجي زيدان ببعض مقالاته الأدبية وبحوثه العلمية، فقدرت جهوده في صناعة الفكر والقلم. وكان قد سافر في صيف عام ١٨٨٦ إلى عاصمة الإنجليز، وتردد على أندية العلم فيها وزار المتحف البريطاني ثم عاد في الشتاء إلى مصر، فاختير مديرًا عامًا لإدارة مجلة «المقتطف» فقبل، ومكث في هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شؤونها الإدارية ويساهم في التحرير ببحوثه القيمة.

ولعل من الطريف أن نذكر أن جرجي زيدان – في أول نشأته وهو في بيروت – بعث بمقالة إلى هذه المجلة ينتقد فيها الآباء الذين لا يعلمون أولادهم، وكانت أول مقالة كتبها في حياته، فلم تنشرها المجلة وصادف أن جاءه مديرها في الصيف، وتناول طعامه في مطعم أبيه، فسأله عنها، فأجابه: «أنه يرجو أن تكون المقالة الثانية خيرًا من الأولى...!» وأراد الله أن يكون جرجي زيدان مديرًا للمقتطف بعد نحو عشر سنوات من هذه الحادثة.

إنصرافه للتأليف

مكث جرجي زيدان عامين مديرًا للمقتطف، وكان مرتبه في تلك الوظيفة ثمانية جنيهات في الشهر. ولعل القارئ يظن أن هذا المبلغ في ذلك الزمان يعد مبلغًا ضخمًا إذا قيس بقيمة العملة في عصرنا الحاضر، وهذا صحيح إذا كان جرجي زيدان تناوله لقاء أعمال إدارية فقط أو أعمال تحريرية فقط، أو أعمال خاصة بالمطبعة وشؤون الورق والحبر والبريد والمشتركين والعمال فقط، بل كان يتناوله لقاء هذه الأعمال كلها، فقام بها خير قيام، ثم رأى وقته قد ضاق عما يغرم به من متابعة البحوث والتأليف، فأستقال من المقتطف، وأنصرف لوضع نفائس المؤلفات، فألف كتاب تاريخ مصر الحديث في جزأين وعانى في تأليفه صعوبات جمة، وفي عام ١٨٨٩ ألف تاريخ الماسونية العام. وهو أول كتاب من نوعه كتب في العربية، ثم كتاب التاريخ العام وهو مختصر تاريخ آسيا وأفريقيا القديمة والحديثة.

وفي أواخر تلك السنة إنتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بمصر ليتولى إدارة التدريس العربي فيها، فتولاها سنتين. وفي أثناء هذه المدة ألف رواية: «المملوك الشارد». وهي أولى رواياته التاريخية، فصادفت إقبالًا كبيرًا حتى طبعت عدة طبعات. وكانت سنه لا تزيد عن ثمانية وعشرين عاما!..

تأسيسه للهلال

أغرم جرجي زيدان بتحصيل العلوم والآداب، فدرس كثيرًا، وقرأ طويلًا، وكان جهده هو أستاذه الأكبر، وإعتماده على نفسه هو رائده الأعظم. وكما وهب نبوغًا في دراسة العلم والتاريخ وتحصيل الأدب، وهب ملكة ممتازة، ونبوغًا فائقًا في البحث والتأليف، وصبرًا عجيبًا على مشاقهما... وقد عرف في التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان في ذكائهم وعلمهم، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثارًا، أو لم يخلفوا كثيرًا من الآثار النافعة تتناسب وما أشتهروا به من نبوغ وعبقرية.

ولكن جرجي زيدان النابغة بعد أن درس وأطلع وأصبح على حظ وافر من العلم أراد أن يكون نافعًا للناس وللغة العربية وللعرب والإسلام بوجه خاص، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل في تاريخ الشرق، بل في تاريخ العالم الذين أضافوا إلى تراث العقل الإنساني ثروة جديدة.

ولما كانت الطباعة أهم ما يعتمد عليه في أداء رسالته، فقد عني بأن تكون له مطبعة، واستحضر في ذلك الحين بعض الأدوات المطبعية، وتنحى عن التدريس وإدارته في المدرسة العبيدية. وأخذ يستعد لتأسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة إلى جانب ما يضعه من مؤلفات.

وفي أول سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر العدد الأول من هذه المجلة. وقد صدره بمقدمة قال فيها : «لابد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها، وخطة يسير عليها، وغاية يرمي إليها. أما فاتحتنا فحمدًا لله

على ما أسبغ من نعمه، وأفاض من كرمه. والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب. وأما خطتنا فالإخلاص في غايتنا، والصدق في لهجتنا، والإجتهاد في وفاء حق خدمتنا. ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر في كل صقع ومصر.

«أما الغاية التي نرجو الوصول إليها، فإقبال السواد على مطالعة ما نكتبه، ورضاؤهم بما نحتسبه وإغضاؤهم عما نرتكبه، فإذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا...». وبعد أن تحدث عن أبواب المجلة قال: «وقد دعونا مجلتنا هذه الهلال لثلاثة أسباب: أولًا– تبركًا بالهلال العثماني الرفيع الشأن... ثانيًا– إشارة لظهور هذه المجلة مرة في كل شهر. ثالثًا– تفاؤلًا بنموها مع الزمن حتى تتدرج في مدارج الكمال. فإذا لاقت قبولًا وإقبالًا أصبحت بدرًا كاملًا بإذن الله».

خدماته للعرب والإسلام

وكان في النشأة الأولى لهذه المجلة يتولى كل أمورها بنفسه من تحرير وإدارة ومكاتبات مما لا يستطيعه إلا جماعة من الرجال، ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل. ولما أتسعت شؤونهما عهد بإدارتها إلى شقيقه، وأستخدم معه آخرين وعكف هو على التحرير والتأليف. وقد وضع بعد تأسيس الهلال روايات تاريخ الإسلام، وكتاب التمدن الإسلامي في خمسة أجزاء وكتاب العرب قبل الإسلام، وعلم الفراسة الحديث، ومشاهير الشرق في جزأين، وتاريخ آداب اللغة العربية في أربعة أجزاء، وأنساب العرب القدماء، وطبقات الأمم، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ إنجلترا.

وقد صدر من روايات تاريخ الإسلام ثماني عشرة رواية عدا أربع روايات خارجة عن هذه السلسلة، وهي: المملوك الشارد، وأسير المتمهدي، واستبداد المماليك، وجهاد المحبين، وقد نقلت معظم مؤلفاته إلى كثير من اللغات.

والذي يطلع على آثار هذا العصامي النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف أستطاع أن يقوم بها مع أعماله في الهلال خلال إثنين وعشرين عاما فقط، ولكنه النبوغ الذي لا يقف عند حد ولا يعرف للزمن حسابا، والجهود المضنية، والنفس العظيمة التي يتعب الجسم في تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى: ولقد ذابت روح زيدان وفني جسمه قبل الأوان، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين.

لم يعرف جرجي زيدان التعب طول حياته، وقد أنتفع ونفع بكل ساعة من وقته، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة. ولقد جاءه يوما مستشرق يزوره، فلما رآه سأله مستغربًا: «أأنت جرجي زيدان؟» فأجابه: «نعم» فقال المستشرق: «كنت أنتظر أن أرى شيخًا ذا لحية بيضاء، لأن من يطلع على مؤلفانك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة»!

هذا هو العصامي جرجي زيدان: نشأ فقيرًا سدت أمامه أبواب المعارف، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد والعقبات دون ما يريد، ووثب من الصناعة والعمل إلى عبقرية الفكر ومجد العلم والأدب، ومن ساحة البرج ببيروت، إلى ميادين الثقافة العليا، ومن بيروتي صغير لابس السروال،

إلى عالم كبير ونابغة جليل يفخر به الشرق أجمع ومن فتى مجهول يكافح في سبيل العيش وفي سبيل التعليم، إلى كهل عظيم يضع أنفس المؤلفات في تاريخ الشرق وتاريخ الاسلام و آداب اللغة العربية ويبتكر من المؤلفات ما لم يسبقه إليه أحد، و يخطب وده العلماء والأدباء ومعاهد العلم الكبرى، وتنتدبه الجامعة المصرية القديمة ليدرس لطلبتها تاريخ الإسلام، ثم تحتفظ بها وضعه لها من دروس حين وقف في سبيل إنتدابه الجامدون!

هذا هو العصامي جرجي زيدان الذي سجل تاريخ الشرق إسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين، والذي صح فيه قول القائل:

إن الفتى من يقول هأنذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

علي إبراهيم .. زعيم النهضة الطبية الحديثة

د. سعيد عبده

وضئيل من أساة الحي لم

يعني باللحم وبالشحم إختزانا

ضامر في سمرة تحسبه

نضر صحراء أرتدى الشمس دهانا

أو طبيبا آيبا من طيبة

ولم تزل تندي يداه زعفرانا

تنكر الأرض عليه جسمه

وإسمه أعظم منها دورانا

أحمد شوقي

توفي علي إبراهيم في سنة١٩٤٧ ، عن سبعة وستين عامًا – أو هكذا قيل – وعن ولدين وبنت، وبيت في جاردن سيتي وخمسة عشر فدانًا، و١٠٠٠ سهم في بنك مصر، ومجموعة قيمة معدومة النظير من التحف والسجاجيد، وبحر من دموع تلاميذه ومرضاه، وكلية طب مصرية مائة في

المائة من غرس يديه، وسجل حافل بمئات من آيات المجد العصامي، كتبه بهمة نفسه، وأنامل راحتيه، وعرق جبينه، في حوالي نصف قرن من الزمان.

كان علي إبراهيم يقول إنه ولد في سنة ١٨٨٠، وعلى هذا الحساب بلغ الستين في سنة ١٩٤٠، ولكني لا أدري كيف أوفق بين هذا المولد وبين ما كان يروى عنه من وعيه وعي الصبي لضرب الإسكندرية في سنة ١٨٨٢!!

ولا أدري كيف أوفق بين هذا المولد وحصوله على الشهادة الإبتدائية سنة ١٨٩٢ – أي في الثانية عشرة من عمره – في وقت كان التلميذ لا يدخل المدرسة فيه إلا والصقر يقف على عذبات شاربيه!!

ولا أدري كيف أوفق بين هذا المولد وحساسيته المرهفة في أواخر أيامه من ناحية عمره، ولقائه إياي وإنصرافه عني بوجه متجهم، عندما قلت له مداعبًا في الإحتفال بعيد ميلاده الستين:

«ستين سنة إزاي يا ألفة فصل أمحوتب ؟

يا مداوي توت عنخ م الحصوة وذو القرنين!!

ستين سنة إزاي... دنا قربت ع الخمسين

ون كنت خمسين أنا «معاليك» تكون كام؟ سن

فين جدول الضرب؟ فين مسك الدفاتر فين

دا سجل مجدك لوحده ينقرأ قرايه في إثنين وسبعين سنة وبلاش أقول ثمانين!!»

أكبر ظني أن الأبدال والأعلال جري عمدًا على تاريخ ميلاده، فقلب السبعة ثمانية، وجعل التاريخ ١٨٨٠ بدلا من ١٨٧٠، التي يمكن أن تستقيم بها الأمور، كما يمكن أن نفسر بها كيف أن هذا الجسد الضامر النحيل لا يعيش غير سبعة وستين عامًا، وهو متحدر من أصلاب أبوين مات أحدهما عن ٨٢ سنة، ومات الآخر عن ٩٢ سنة.

لقد رأيت في صباي علي إبراهيم يقف على فراش مريض، يشبهه في الجسد سمرة وضمورًا وقلة، وكان مصابًا بخراج في الكبد في وقت كان هذا الخراج فيه بابًا من أبواب الآخرة لا يؤوب منه الذاهبون، وكان الأطباء قد نصحوه أن يسافر إلى بلده ليقضي نحبه هناك، فيقول له ضاحكًا من عينه التي كانت تقطر عذوبة لمرضاه: «لا تبتئس بإبني ولا تسمع لما يقولون... إن مثلك ومثلي لا يموتون إلا شيوخًا أو بضرب الرصاص!» وقد صدقت نبوءته في هذا المريض كما كانت تصدق على الدوام، فأنفجر الخراج في الرئة، ونفذ قيحه إلى الفم، على وعثاء الطريق، وعاش المريض حتى بكي على قبر علي إبراهيم!

كان علي إبراهيم في بداية حياته الطبية سنة ١٩٠١ طبيبًا مصريًا فقيرًا من مدرسة طبية منحلة، أضطر أن يعيد دراسته وهو طبيب حتى يقوي على طراد عصر، كانت نفس المواهب المصرية فيه توأد عمدًا ، وكان نفوذ الطب الأجنبي يطغي فيه على الطب المصري حتى يخنقه أو

يكاد... وأنتصر على هذه الظروف جميعًا، وعاش حتى طب لملوك وأمراء ووزراء وزعماء، وأحصي ما أجراه من جراحات في عياداته الخاصة بما يزيد على ٣٥٠٠٠جراحة غير ما أجراه منها في المستشفيات الحكومية، وهو يفوق أضعاف هذه الآلاف، وأستطاع أن يحظى بثلاثة عشر وسامًا من بلاد أجنبية متعددة، وأن ينال – دون تقدم لإمتحان – أرقى ثلاثة مؤهلات فخرية من كبرى الدوائر الطبية في مصر والعالم، وأن يرقي سلالم المجد بمواهبه الشخصية، وبعصا مصرية صميمة، وبخطوات عبقرية جبارة – من طبيب أوبئة، إلى مدير مستشفى إقليمي، إلى رئيس للبعثة الطبية المصرية في حرب البلقان، إلى مساعد جراح بمستشفى قصر العيني، إلى جراح به، إلى أستاذ للجراحة فيه، إلى مدير له، إلى عميد لكلية الطب إلى رئيس أو عضو عامل في حوالي عشرين جمعية أو معهد تسهم كلها في إيقاظ الوعي القومي أو الطبي أو الإقتصادي في البلاد، إلى صديق شخصي لمئات من أكابر الجراحين في العالم ، إلى وزير للصحة، إلى مدير للجامعة التي خرج من أرحامها سنة ١٩٠١ بأجازة علمية تافهة، طالما قادت في ذلك العهد كثيرًا من زملاء علي إبراهيم إلى القبر في الكفن الرخيص.

نعم إن الحظ طالما سطع نجمه في حياة علي إبراهيم، وطالما أضاء له السفح فصعد على هداه... لقد خدمته النهضة المصرية في سنة ١٩١٩، والجهود التي بذلتها لتقويض دعائم النفوذ الأجنبي، كما خدمه إنتحار ناظر مدرسة الطب الإنجليزي في سنة ١٩٢٩، كما تلقى خدمات كثيرة من هذا النوع من نجمه المشرق اللماع، سنرى بعض آثارها هنا وهناك في تاريخه الطويل... ولكن ما أكثر الذين يلمع الحظ في حياتهم من الضعفاء،

فيعشيهم ضوءه لا يقودهم، ويتركهم وراءه حيث كانوا يتساقطون حيرة وحسرة.

الإنسان الطبيب

ركب علي إبراهيم في مستهل حياته الطبية الحمار والقارب وغاص في وحول الريف، ومشي على قدميه تحت شمس الصعيد وعطش وجاع، وخاض وباء الكوليرا سنة ١٩٠٢ وأنتدب في سنة ١٩٠٤ وهو مدير لمستشفى بني سويف ليكافح وباء الحمى الفحمية في طوخ. وبين مشاهد البؤس في عياداته الخاصة يوم كان دخله منها لا يتجاوز ثمانين قرشًا في الشهر، ومشاهد النعيم فيها يوم جاوز دخله آلاف الجنيهات، أدرك علي إبراهيم كنه الآلام البشرية ولم تكن غريبة عليه، و قدر مرارة الثمار التي يزرعها المرض في بيوت الفقراء، فكان – قبل أن يكون طبيبًا يتكسب – إنسانًا على الدوام.

ففي الوقت الذي تقاضى فيه من السلطان حسين كامل ألفا من الجنيهات الذهبية عن جراحة أجراها له، لم يتقاض شيئًا من موظف أرسل له خمسة جنيهات في خطاب، وقال له أن أبنته ووحيدته مريضة، وأنها في حاجة إلى جراحة ليس لها إلا هو، وأنه غير قادر على أن يأجره بأكثر من هذا المبلغ التافه، فإن قبله فبها، وإلا فليرده مشكورًا، ولكل مريض رب لا ينساه... وقد رده إليه فعلًا علي إبراهيم، ولكن بعد أن أجري الجراحة المطلوبة للفتاة، وتكفل لها بأجر المستشفى وثمن الدواء.

واكتظ المستشفى الإسرائيلي الذي كان علي إبراهيم جراحه يومًا ما، بقصاده، وتجاور في غرفة واحدة منه ثري من أسرة الشواربي المعروفة، وقاض من قضاة المحاكم المصرية، وأستأصل علي إبراهيم في نفس الوقت لكل منهما كلية مريضة، وعندما برئا وأوشكا على الخروج، طلب من الشواربي خمسمائة جنيه، وطلب من القاضي الذي بدا عليه الذعر من فداحة الأتعاب، أن يمر به في عيادته، فأستعد القاضي لهذا اللقاء بمائتي جنيه معظمها قروض، وبسط يده بما فيها قائلًا: «هذا كل ما إستطعت جمعه والأمر لك».

وسأله علي إبراهيم: «كم مرتبك»؟

فقال: «خمسة وأربعون جنيها...».

قال: «إذن تدفع خمسة وأربعين، وتعيش هذا الشهر محتميًا، فالحمية لمثلك من ذوي البدانة تفيد!!».

إن حياة علي إبراهيم الطبيب والإنسان والإداري كانت مسرحًا لكثير من أمثال هذه المفارقات.

وعندما قال شوقي في تكريمه:

«يد إبراهيم لو جئت لها بذبيح الطير عاد الطيرانا»

«لم تخط للناس يوما كفنا إنما خاطت بقاء و كيانا»

ضحك علي إبراهيم ضحكته الخرساء وقال: آه لو عرف شوقي أن

قتلاي في القطر كان يمكن أن يملؤوا مقابر المجاورين!!

وقلت لشوقي ذلك فإختلجت عينه كما كانت تختلج عندما يمرح وقال:

– لقد نسى أن يقول لك: لو اجتمع من أحياهم في صعيد واحد لكان منهم عاصمة جديدة للنيل!!

ولما توسلت إليه يوماً أن يجري لي جراحة في المخ تنقذني من عذاب كافر طويل قال لي ببساطة... إنني لم أجر هذه الجراحة في حياتي قط، ولا أريد أن تكون أول قتلاي في هذا المجال!

فخره بأبيه الفلاح

وفي الوقت الذي بلغ فيه التفاخر بالأنساب والأحساب أشده وزراعة النخل الطويل على قبور الآباء المغمورين، كان على إبراهيم لا يفتأ يفخر بأصله المتواضع... بأبيه الحاج إبراهيم عطا الفلاح، وبأمه السيدة مبروكة خفاجى الإسكندرانية، وبأخواته من أمه، وإخوته من أبيه، وكلهم فلاح وابن فلاح، لا يضيق يوماً بواحد منهم، ولا يتنكر لواحد، ولا يحاول وهو واقف على ربوة المجد أن يتحلل من فضل البرقع المقصب عليه، وفضل الزعبوط الفضفاض..

كانت صورة أمه تعلو مكتبه لآخر أيام حياته، وكانت المرة الوحيدة التي إبتذل فيها دموعه يوم وفاتها، وقد جعل مستشفاه الخاص في شارع

الصنافيري، بعد أن إنتقل منه إلى المستشفى الإسرائيلي، مضيفة لإستقبال من يفد عليه من أقاربه هؤلاء، وأوصى أولاده على سرير الموت ألا يأخذوا مليماً من غلة الأرض التي تركها لهم في الريف..

وقال لي الأستاذ الدكتور عبد الله الكاتب –الخليفة الحالي لعلي إبراهيم على عمادة الطب– أن هذه الناحية من حياة على إبراهيم كانت تفضح أكثر من أي شيء عصاميته الفذة وشخصيته القوية، وأنه ما أحترمه قط أكثر مما أحترمه يوم أرسل له– وهو يعمل نائباً له في قسم الجراحة بقصر العيشي – فلاحاً ومعه هذه الرسالة: هذا زوج أختي فليكن له من رعايتك نصيب».

وكان على إبراهيم في إدارته يرق أحياناً حتى يستحيل إلى أب، ويقسو أحياناً حتى يستحيل إلى طاغية، ويقدم حتى يظن أقدامه حماقة، وما هو إلا إيمان الواثق من ثبات الأرض تحت قدميه... ويحجم حتى يخال أحجامه جبناً، وأكثره إنحناء للعاصفة حتى تمر وتفوت، وكل هذه التصرفات المتناقضة كانت تترجم من معاصريه ومرءوسيه بطرق متعددة، تختلف بإختلاف عقليات وأهواء المترجمين، ولكن ما من شك أن الوازع الأكبر لها كان ضخامة آماله للطب المصري والأطباء المصريين، وحرصه على الوصول إلى أهدافه من أيسر طريق مهما تعرج وطال، ولو تكلف لها شراسة النمر أحياناً، أو نعومة الثعبان.

دروس من المحن

إن المحن التي مرت عليه طوال حياته علمته الكثير ونبوغه نفسه أعتقد أن قسطاً كبيراً منه كان تعويض النفس الكبيرة عن طفولة لم يكن نصيبها من السعادة بالنصيب الكبير.

لقد عاش على إبراهيم وهو طفل مع والدته بالإسكندرية، وكانت على غير وفاق مع أبيه منذ حملت به، ومع جدته لأمه وكانت كفيفة البصر. وكان لديها زلعة» تختزن فيها ما كانت تدخر من ذهب، فكانت الأم إذا إحتاجت إلى مال تآمرت مع الصبي على أن يأخذا من الزلعة مقداراً من القطع الذهبية، ويضعان في مكانها بعددها وحجمها قطعاً فضية، حتى لا ينفضح الأمر بالعد والإحصاء، فإذا تيسر الحال إستبدلا من الفضة الذهب، وكأن الذي كان ما كان!

وعندما نال الإبتدائية في سنة ١٨٩٢، وكانت من أكبر المؤهلات لوظائف الحكومة في تلك الأيام، أراد أبوه أن يستحوذ عليه، وأن يلحقه بوظيفة في البريد، وجاء لياخذه من أمه قسراً، فحمل على إبراهيم ملابسه، ومقداراً من المال من أمه –ولعله من الزلعة!– وقفز من سطح البيت إلى أسطح الجيران فراراً من أبيه. وفي القاهرة دخل المدرسة الخديوية بوساطة بعض أصحاب الجاه من زملاء المدرسة الإبتدائية في رأس التين.

وأراد كتشنر –سردار الجيش المصري– يومئذ أن يختار ضباطاً للجيش في حملة السودان من تلاميذ المدارس الثانوية في القاهرة، فمر بها

واحدة واحدة، وعرض طلابها جميعاً، ليختار أقواهم جسداً، وأفرعهم طولًا، وأشدهم قدرة على الكفاح... فلما عرض طلاب الخديوية أخذ على إبراهيم يشب على أمشاط قدميه، ليلفت إليه نظر السردار، الذي ضحك ضحكة العارف بما وراء هذا الطول المصطنع، وهذا الجسد الضامر النحيل!!

لقد عاصر على إبراهيم وهو طفل ثورة عرابي على طغيان الدخلاء، وضرب الأسطول الإنجليزي للثغر الأعزل بالقنابل، وهاجر مع أمه من الإسكندرية في جنح الليل هرباً من النيران الماحقة، والقذائف المدمرة، والفوضى التي إجتاحت المدينة الثائرة من هذا الزلزال السياسي القاسم العنيف.

وعاصر وهو شاب لؤم الإحتلال الإنجليزي وهو يقتلع نبت الحرية من ضفاف النيل، ويصبغ باللون الأحمر كل معالم الحضارة المصرية الخضراء كما عاصر جهاد مصطفى كامل ومُحَّد فريد ضد السرطان المتغلغل بقسوة في أحشاء البلاد.

ورأى في تلك الأيام وهو يعمل مديراً لمستشفى بني سويف في سنة ١٩٠٤ تحت إشراف مفتش الصحة الإنجليزي... رأى مسرح الجراحة بالمستشفى يستعمل طريقاً مفتوحاً لموردي اللحوم والخضراوات... فثار على هذا الوضع، وسد الباب الموصل إلى المطبخ، وهيأ لموردي الطعام طريقاً مستقلًا إليه، ينقذ مسرح العمليات من الأوساخ والأقدار. فعد المفتش الإنجليزي هذا الإجراء إعتداء على سلطانه، وعنف كل منهما على

صاحبه، ودفع على إبراهيم ثمن هذا العنف نفياً إلى مستشفى أسوان!!

وعاصر وهو كهل تمرد مصر على أغلالها الحديدية سنة ١٩١٩ ، كما عاصر محن السياسة الحزبية وأعاصيرها على مصر فيما تلا ذلك من السنين حتى مات، وكاد يحرق أصابعه على جمرها عندما رشح نفسه حزبياً لمجلس النواب الأول في سنة١٩٢٤ نائباً عن دائرة عابدين، لولا أن الجمر لسعه في الوقت المناسب، فأجفل، وإبتعد في الحال.

وفي هذه المدرسة ذات الموج المتلاطم تعلم على إبراهيم أن السباحة مع التماسيح تغرير، وأن الإحتيال على الأمور خليق أن ينيله من غاياته ما لا ينيله العنف وضرب الروس في الجدران ... تعلم كيف ينحني للعواصف، وكيف يحاور ويداور، وكيف يقدم ويحجم، وكيف يظهر على المسرح عندما يثمر الظهور، وكيف يختفي عندما يحس بوادر السخط على وجوه المتفرجين..

عندما أراد أن يسافر إلى السودان ليعالج الزعيم الديني الكبير السيد على الميرغني، وكان كبار الأطباء الإنجليز في السودان قد أشفقوا من مغبة هذا العلاج، تعلق به أولاده وهم صغار ليسافروا معه إلى السودان... فلم يعنفهم وقال لهم ببساطة: هلموا معي إلى السودان... وصحبهم إلى جروبي، وملأ أفواههم حلوى، وقال هذا هو السودان!! ثم أعادهم إلى البيت فرحين، وتركهم نياماً يحلمون بحلاوة السودان، وذهب فإستقل القطار!!

وكانت هذه طريقته في مواجهة المشاكل...

مستشفى المنيل

ولما عجز أسلافه مديرو مستشفى القصر العيني الإنجليز أكثر من مرة عن إغراء السلطات بإنشاء مستشفى المنيل الجديد (فؤاد الأول الجامعي سابقًا) ووضع هذا المشروع على الرف، وقيل يومئذ أن الملك السابق فؤاد كان يطمع في أرض المستشفى ليقيم عليها قصرًا لولي عهده فاروق، لم يكد علي إبراهيم يتولى عمادة الطب سنة ١٩٢٩ حتى راح يجاهد جهاده الخفي، ويحتال ويجامل، ويحرك الأحجار بلطف، حتى أتيح له أن يحصل على الاعتمادات اللازمة لبناء المستشفى، وإصلاح الكلية كذلك، جزءًا جزءًا، وإعتمادًا وراء إعتماد، وكلما فرغ من بناء، بدأ في آخر ووضع السلطات أمام الأمر الواقع، ولم تستطع حتى أزمة سنة ١٩٣٠ الطاحنة أن تحول بينه وبين الحصول على أكثر من مليون من الجنيهات لإنشاء ألفي سرير في هذا المستشفى الجديد.

لقد كان يقضي حاجة كل وزير صاحب نفوذ في الكلية بأسرع من البرق، ولكن بعد أن يكون قد نال منه للكلية مزية أو حصل لها على إعتماد.

ومن المتفق عليه أن عبقرية علي إبراهيم ونجمه المتلألئ على الدوام، وأنفه الذي كان يشم العواصف والنسمات بحساسية البارومتر الدقيق، يعود إليها أكثر الفضل في تقويض نفوذ الطب الأجنبي الذي سيطر بعد

الإحتلال الإنجليزي على هذه البلاد، وإنتشال الطب المصري من وهدة الذل والهوان التي كان يتردى فيها على أيدي أطباء غرباء، من كل بقاع الأرض، لا يعلم إلا الله من أين جاءوا، ولا كيف تعلموا، ولا بأي كفاية جمعوا ما جمعوا من كنوز.

منافسته للأطباء الأجانب

عندما نقل علي إبراهيم مديرًا لمستشفى أسيوط سنة١٩٠٤ وجد الأطباء الأجانب يحتلون مسقط الضوء، ويحتكرون الطب في أسيوط، لهم وحدهم علاج السادة، وللأطباء المصريين علاج الخدم، لهم على المائدة ما لذ وطاب، ولزملائهم المصريين النفاية والفتات... ولبث علي إبراهيم فترة يرقب الموقف، ويكسب من عيادته ثمانين قرشًا فلا يتململ، حتى إذا سافر هؤلاء الأطباء في الصيف أنتهز الفرصة السانحة وشمر عن ساعديه، ولكن أحدًا من كبار المرضى لم يأت، فإذا أتى فإنما ليستشير، ويؤجل الجراحة المطلوبة حتى يعود فلان أو علان، وكان اليأس خليقًا أن يجرفه ولكنه صمد، وكانت هناك يومئذ بعثة أجنبية تبحث عن الآثار في أسيوط، فمرض رئيسها بالتيفود فتطوع علي إبراهيم لعلاجه حتى شفاه، وبدأ البندول يتحرك نحوه ببطء، وأخذت الظروف تواتيه، فلم يلبث غير قليل حتى نافس الأطباء الأجانب على ثقة المرضى المصريين، ثم بزهم، ولم يترك أسيوط في سنة ١٩١١، إلا وهو يكيل لهم بنفس مكيالهم القديم: يأكل، ويلقي إليهم بالفتات!!

وتكررت المأساة بالقاهرة بعد أن نقل إليها مساعد جراح بمستشفى

قصر العيني، وكان قبوله لهذا النقل مجازفة يقامر فيها بدخل وصل إلى ٥٠٠ جنيه شهريًا في أسيوط على مستقبل في القاهرة غامض مجهول...

ولكن أية مجازفة لم يكن يقدم عليها علي إبراهيم؟

لقد كان خوف الأطباء المصريين من الأطباء الأجانب في القاهرة آخذًا بالنواصي والرقاب، وظل سنتين فعلًا يمص إبهامه في عيادته الأولى بباب الشعرية ويعد الطير في السماء، ولكن سرعان ما واتته الظروف وألتمع نجمه، فأعلنت الحرب الأولى، ونزح إلى بلادهم كثير من الأطباء الإنجليز، فخلا له الجو، وراح يصعد السلم على عصاه المصرية، بخطوات الفرعون الثاوي في جسده النحيل... ولم يصعد وحده فقد جر معه إلى القمة سمعة الطب المصري، وكثيرًا من أساطينه الحاضرين...

وما هو إلا قليل حتى كانت الثورة المصرية تقطف جناها الأول في سنة ١٩٢٤، فتمكن البلابل الدوح مكانًا على أغصانه بين البوم والغربان، ويصبح علي إبراهيم أستاذًا للجراحة في كلية الطب بعد أن كان كرسي الأستاذية وقفا على الأجانب، مستحيل المنال على المصريين. ومنذ ذلك اليوم أخذ الدم المصري يملأ شرابين كلية الطب على يد علي إبراهيم.

مصري صميم

في قامة علي إبراهيم القصيرة، وجسده الضامر، ولونه الأسفع، وجبينه العريض، وعيونه الواسعة وشفاهه الغلاظ، شيء ما كان يجعل الناظر إليه – دون أن يكون شاعرًا – يتوهمه كما توهمه شوقي: طبيبًا آيبًا

من طيبة، يداه لا تزالان نديتين بالزعفران.

ولكن أشد ما كان يوحي بإنحداره رأسًا من أصلاب الكهان في طيبة ومنفيس تلك الأنامل العبقرية التي كانت ترفو الحياة بمهارة فنان، وهذه الشخصية المبهمة الجبارة التي قهرت الأعاصير والزوابع بخبرة ملاح من ملاحي الأساطير.

لقد حطمت هذه الأعاصير ما حطمت، وأغرقت ما أغرقت، ثم إنداحت في النهاية عن مصر المتحررة من أسارها الطويل، ومجموعة من العصاميين المصريين طفوا فوق العباب المتلاطم، بقوة السواعد وعمق الوطنية، ونور الإلهام... وكان من أبرزهم دون شك الدكتور علي إبراهيم.

جبران خليل جبران .. الفنان الخالد والأديب المبدع

عادل الغضبان(*)

من الأودية العظيمة في شمال لبنان واد مهيب رائع عميق الغور بعيد القرار يسمى "قاديشا" أي الوادي المقدس، قامت على جانبيه جبال عالية ضخمة تنوع أديمها بين الحجر الصلد المسنون الأطراف والريود وبين التربة الخصبة المكسوة بالغابات والكروم والخمائل تسقيها العيون المتفجرة من بطون الهضاب أو شلالات الماء المنحدرة من رؤوس الجبال إلى ذلك الوادي المقدس في دوي يأخذ بالمسامع والألباب ورشاش يتطاير في الفضاء على أجنحة من ألوان الضياء.

وعلى كتف من أكتاف الجبل الناهض فوق عدوة الوادي الغربية تناثر في ثنايا الأشجار والمراعي عدد من البيوت المتواضعة وقد ألبست سطوحها بالآجر الأحمر وبدت لعين الرائي في حلتها القرمزية حبات رمان متناثرة بين زبرجد الشجر وسندس الأعشاب.

تلك المجموعة من المنازل تتألف منها قرية صغيرة من قرى لبنان الشمالي تدعى بشري» وفي تلك القرية الوديعة الغافية عند سفح غابات الأرز الخالد والمطلة على الوادي[٢] المقدس تجثم عند أقدامها مواكب

---

٢ *المراجع: جبران خليل جبران» لميخائيل نعيمة. ، رسالة المنبر إلى الشرق العربي» لفلكس فارس. «رسائل جبران» تقديم جميل جبر. «كلمات جبران» جمع أنطونيوس بشير.

السحاب وتتوج فرعها نجوم السماء ولد جبران خليل جبران في السادس من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣، فكان مولده في قريته المتواضعة ميلاد لؤلؤة في صدفة لن تلبث يد الزمن حتى تشق عنها الغلاف فيبهر حسنها البصائر والأبصار.

في مدارج الجمال

نشأ الصبي جبران في تلك البقعة الجميلة فوقعت عينه منها على مفاتن من الجمال وأخذ من السحر، تملت نفسه منها وأفعم بها ذهنه الصغير وخاطره، فكانت أول إحتكاك بزناد العبقرية الكامن وراء نفس قدر الله لها أن تحلق يومًا في أجواء الفن والنبوغ.

وترعرع الصبي جبران في كنف أسرة لاتتميز بسبب من أسباب العلم والرقي والحضارة ولا تنعم بشيء من متع الغني والثراء، فإنما هي أسرة فقيرة يتلمس فيها الأب رزقه ورزق عياله من إلتزام عد الغنم في مدارج الجبال ومن تفتيت الصخور وإستنباتها بعض الخضر والثمار. وكان من الطبيعي أن ينشأ الفتى مضطلعا بشؤون الغنم والماعز على غرار أبيه بل كان لا بد له أن يحترف تلك المهنة التي نوى أبوه أن يدربه عليها ليستقل بها يومًا ويكسب منها رزقه لولا أن الأقدار تداخلت في مصير الفتى وأعدته لغير ذلك من المهن والحرف.

كان الفقر مخيمًا على أسرة خليل جبران، ولكنه الفقر الذي لا يتطاول إلى الكرامة والوقار ولا يرقي إلى الإستقامة ومكارم الأخلاق، فلئن

ألتقط رب الأسرة رزقه من شقوق الصخور وطيات الثري ولملمه من تحت أظلاف الأغنام والمعيز فإنه كان يقدر نفسه حق قدرها وينزلها المنزلة الكريمة بين الأقارب والجيران، فمهما ضاقت الدنيا في وجهه ومهما نأت به الحياة عن مباهجها ومهما تناول هو وأفراد أسرته الطعام على خوان من الحصير المجدول، فما بخل على طفله بالعلم يتلقاه في مدرسة القرية.

جبران الصبي

اختلف الصبي جبران إلى مدرسة القرية حتى الحادية عشرة من عمره، وأستطاع في خلال سنوات الحداثة أن يظفر بنصيب ضئيل من اللغتين العربية والسريانية. وما من شك في أن إختلافه إلى المدرسة وتعلم القراءة والكتابة وتفتح ذهنه الصغير لإستيعاب العلم كل هذا قد عمل على إبراز المواهب اللدنية فيه فنراه منذ نعومة أظفاره يميل إلى الرسم والتصوير، وإنه لحدث عظيم عجيب في قرية نائية عن العمران لم ينبغ فيها رسام ولا مصور بل لم يعرف بنوها ولا المدرسون فيها هذا الفن الجميل.

وبرزت بوادر هذا الفن في جبران الصغير يوم قدر له أن يكون موضع القصاص والعقاب لأنه لم يحسن قراءة مثالية السريانية، فيغضب قس المدرسة عليه ويحبسه في قاعة الدرس ويفرض عليه أن يكتب المثالية عشر مرات تأديبًا له وعقابًا ولشد ما أسقط في يد القس وأثار في نفسه سورة من الغضب والرضي معًا عندما وقعت عينه على دفتر جبران فرأى فيه أن الطفل لم يكتب القصاص المفروض عليه بل أستعاض عنه برسم شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء وفي أذنه الواحدة قد علق كتاب

وفي الأخرى مخلاة .

لم يكن هذا الرسم هو أول ما رسم الصبي جبران، فقد سبق له أن أعتمد على قطع من الفحم رسم بها على جدران المنزل أشكالًا وصورًا ثارت لها ثائرة أبيه فأنهال على الطفل توبيخًا وتقريعًا، غير أننا نستطيع أن نعد رسم الحمار المقدس الشرارة الأولى التي إنطلقت من جذوة الفن الكامنة في جوانحه وضلوعه فدلت على موهبة الله، ولعل علماء النفس الذين يغوصون في أعماق النفس البشرية ويصلون كبائر الرجولة والكهولة بصغائر الطفولة والحداثة يرون في ذلك الرسم البادرة الأولى التي حفزت جبران في مستقبل الأيام إلى معاداة القسيسين وشن الحملات عليهم في بعض مؤلفاته. ولعل علماء النفس إذا علموا أيضًا أن الطفل جبران خرج وهو في السادسة من عمره إلى البرية يوم الجمعة الحزينة ليتعذب مع المسيح على حد قوله ثم عاد منها في المساء بباقات الأزهار والرياحين ليزين بها قبر السيد المسيح. إذا علموا هذا وعرفوا أن فكرة الألم والعذاب كانت مغروسة في نفس جبران منذ طفولته سهل عليهم الكشف عن أغوار نفسه وتفسير صيحات الألم التي جار بها طول حياته...

مغامرة في سبيل الرزق

ما أضيق الرزق ينقب عنه المرء في طبق الأرض وجلامد الصخور، وما أشقى العزائم الكبيرة إذا حصرها القدر في نطاق ضيق من ميادين الحياة ولقد أثر عن اللبنانيين أنهم قوم ذوو عزائم وهمم كبار تقسو الحياة عليهم فلا تلين قناتهم وهم حفدة الفينيقيين حبهم لركوب البحر ومعاقرة

الأسفار وعرفوا مع هذا وذاك بنفوس أبية تقدس الحرية ولا تستنيم للذل والهوان. ويشاء القدر أن يضيق الرزق بلبنان في عهد المترجم له وأن توأد فيه الحرية وتنشر أعلام الظلم والإستبداد، فهب فريق كبير منهم يركب غارب البحر سعيًا وراء الرزق أو نشدانا للحرية.

وحذت أسرة جبران حذو الألوف من الأسر فحزمت أمرها وشدت الرحال إلى أمريكا وكانت الأسرة تتألف من جبران وأخيه الأكبر وشقيقتيه الصغيرتين وأمهم جميعًا... أما الوالد فبقي في القرية يدبر شئون رزقه القليل.

إختارت الأسرة مدينة «بسطن» فألقت فيها عصا التسيار، وكان الأمل الباسم يضيء جوانح الأم فقد أنقذت بكرها وكان في الثامنة عشرة من عمره من عمل يتصل برعي الغنم وحراثة الأرض وأنقذت أخاه الصغير جبران، وكان في الثانية عشرة من عمره، من مصير لا يختلف عن هذا المصير ورجت أن يكون لهما ولشقيقتيهما متى بلغتا أشدهما مجال رحب في العمل الكريم والحياة الهانئة. وقضي الفقر وضيق ذات اليد أن تحل الأسرة في حي وضيع من أحياء بسطن فكان حي الصينيين.

جهاد في سبيل العلم

وينتظم الفتى جبران في سلك إحدى المدارس ويقبل على الإرتشاف من مناهل العلم بنهم لا مزيد عليه، فتفتح له اللغة الإنجليزية آفاقًا جديدة من التفكير لا عهد له بها قبل ذلك الحين. وكان في خلال

الدراسة لا يفتأ يجيل قلمه راسمًا مصورًا فيلقي من مدرس الرسم ضروبًا من التشجيع والإعجاب ويقدمه إلى رسام من كبار الرسامين فيعجب به ويلمح في هذا الفتى الشرقي عبقرية متوارية لابد أن تنجلي يومًا مشرقة وضاءة.

ويعود الفتى جبران إلى بيروت ليستكمل دراسته العربية ويقضي في وطنه أربع سنوات ثم يرجع بعدها إلى بسطن وهو في الربيع العشرين ليبدأ حياة الجهاد والكفاح وليتلقى ضربات الدهر واحدة تلو أخرى.

لم تنقطع أمه "كاملة" ولا أنقطع "بطرس" أخوه الأكبر عن العمل ليل نهار ليمكنا جبران من أسباب العلم وها هي ذي شقيقته الكبرى "مريانا" وشقيقته الصغرى "سلطانة" تنضمان إلى العاملين وتقفان أبرتهما على إنتزاع الرزق من أشداق القدر القاسي في ذلك المزدحم الذي يمشي فيه القوي على هام الضعفاء. فكم من مرة ناجت الأم ربها قائلة: "سبحانك اللهم أنترك قريتنا الهادئة الوادعة إلى هذا المصطخب المدوي بعزيف الجن؟ أنهجر أهلنا وجيراننا وبني جلدتنا إلى قوم غرباء عنا في الجنس واللغة والعاطفة؟ أندع بيتنا الجميل الملألئ بأشعة الشمس تحف به الغابات والخمائل إلى هذا الكهف المظلم المتداعي وهذه الأزقة الملتوية؟ فأي مغنم كان لنا من هجرتنا؟ فنحن لا نزال فريسة الفقر وشظف العيش، بل زادنا الزمن شقاء وبؤسًا بهذا العمل المتواصل الذي يستنزف نور العين ودم الفؤاد وبهذه الأدواء التي بدأت تنشب أظفارها فينا فرحماك ربي رحماك... ".

ثلاث كوارث!

رجع جبران إلى بسطن فإذا داء السل قد اختطف شقيقته الصغرى منذ أيام فترتح من هول الفجيعة، ولكنه تماسك وتمالك نفسه رحمة بأمه وإشفاقًا عليها ثم ما عتم القدر أن فجعه بعد زمن قصير بأمه وشقيقه الأكبر ذهبا ضحية ذلك الداء الوبيل فتقطعت نفسه حسرات وأظلمت الدنيا في عينيه وهاله أن يجر أثقال الحياة أسير الحزن والفقر، غير أنه سرعان ما ألم بنفسه المتضعضعة وسرعان ما أهابت به عزيمته الجبارة إلى الجلاد والكفاح ومواجهة أحداث الزمان بالصبر الجميل والعمل المتواصل. وكان له في شقيقته "مريانا" الأسوة الحسنة فقد أصبحت عائله الوحيد يتلقى رزقه من ثقب إبرتها الضيق، فكم عصر قلبه إنكبابها على الوشي والتطريز آناء الليل وأطراف النهار لتستطيع أن تقوم بأودها وأوده فكل شكة إبرة منها إنما كانت تشك في صدره وتخزه بوخزات الأسى والألم.

في ميدان الجهاد

كان الشاب جبران قد بدأ ينشر نفثاته في الصحف العربية بعنوان "دمعة وإبتسامة" فتلقي الرضي والإعجاب وتبقي عند حد الرضي والإعجاب لا توفر له ولشقيقته صبابة من قوت. وكان في أثناء ذلك قد وطن النفس على ألتماس الرزق من نتاج ريشته فأنصب يرسم ليل نهار على أمل أن يعرض رسومه في معرض عام لعله يبيع منها شيئًا يدفع بثمنه عنه غائلة الفقر.

عز على الأقدار أن ترأف بالشاب النشيط العامل وأن تبدله من يأسه أملا ومن عسره يسرا، فقد أخفق المعرض إخفاقًا ذريعًا وأضمحلت معه الآمال الجسام ومر الزوار بالرسوم والألواح فما أسترعت إنتباههم ولا وجدوا في فنها ما يحملهم على شرائها وربما كانت مسحة الكآبة المتجلية فيها ورموزها الخفية سببًا في إعراض القوم عنها.

لا عجب أن يستوحي جبران الألم ويصوره في ألواحه فهل كانت حياته حتى ذلك اليوم إلا كأسًا من الآلام شربها حتى الثمالة. إن فجيعته بشقيقته الصغرى أولًا أوحت إليه برسم لوح جعل عنوانه: «عودة الروح» وفجيعته بأمه وأخيه الأكبر ألهمته برسم لوح سماه «فوارة الألم» وإضطرابه في محيط الحياة بلا سند ولا عون وتخبطه في أثباجها تخبط الفريق أوحي إليه بصورة رقصة الأفكار وقد جلا كل هذه المعاني في فن جديد يعتمد على الرمز ولا يحفل بالبيان والوضوح فكان علة الإخفاق.

قد تكون الجدة في صور جبران علة إخفاقه فالناس أعداء لما جهلوا، وقد تكون العلة إعتماد جبران على موهبته الأصيلة التي لم تصقل بالدرس والتهذيب وكأنما قد رق القدر لحال الفتى بعد إذ شهد عذابه وجهاده الطويل ورآه لم يبع صورة واحدة من صوره، فدفع إليه في أخريات أيام المعرض بسيدة أمريكية تدعي "ماري هسكل" رئيسة مدرسة "مس هسكل" وصاحبتها وكانت على شيء من الدراية بالفن فأعجبت بفن جبران كل الإعجاب وإبتاعت من الواحه "عودة الروح" و"فوارة الألم" وأزداد إعجابها بفنه لما شرح لها من معاني الرموز ودقائقها وحاضرها في

الفن وروحه ومراميه بلهجة فصيحة قوية مستمدة من قوي نفس تعتقد ما تقول وتعرب عنه أجمل إعراب، فنعمت السيدة بكلامه ورفرفت روحها في أجواء من الفن والروحانية ودت لو أطالت فيها التدويم والتحليق فكانت زيارة هذه السيدة للمعرض البسمة الأولى من فجر النجاح.

جبران في باريس

توثقت عري الصداقة بين جبران و ماري هسكل فعرض ألواحه في مدرستها وكان الفن محور الحديث بينهما يفيض جبران في وصف آياته وخوافيه و تنصت ماري هسكل إليه تعب من ذلك الينبوع المتدفق وتروي منه روحها الظامئة حتى اقترحت عليه يومًا أن يسافر إلى باريس ويتصل بزعماء الفن في مدينة النور ويأخذ عنهم طرائقهم وخوافي فنونهم ويعود بعد ذلك مصقول الملكة وضاء العبقرية، فتبسم جبران إبتسامة حزينة فأنى له تحقيق تلك الأمنية الغالية وهو فقير معدم لا يكاد يكسب قوت يومه، ففهمت السيدة الأمريكية معنى إبتسامته وهز الفن والخير أريحيتها فأغرته بالسفر ووعدته بأن تبعث إليه في مطلع كل شهر بخمسة وسبعين دولارًا يستعين بها على مواجهة الحياة بباريس، فشكر لها يدها البيضاء وأنساه معروفها نكبة جديدة حلت به وهي إحتراق رسومه وألواحه كأنما قدر لهذا الشاب التعس أن يكون دائمًا أبدًا حليف الرزايا والنكبات وأن لا يذوق جرعة من هناءة إلا ممزوجة بصاب البؤس والشقاء.

وما هي إلا أيام قلائل حتى كان جبران أحد سكان الحي اللاتيني بباريس وتلميذًا من تلامذة معهد الفنون الجميلة ينهل من معين الفن ولا يرتوي.

قضي جبران بباريس ثلاث سنوات لم ينقطع في خلالها عن الدرس والتحصيل والوقوف على أسرار الفنون وإستيعاب مذاهب الجهابذة الأعلام ممن طار لهم صيت جميل في أجواء الفنون ولم يكتف بما في باريس من متاحف يقضي فيها الساعات الطوال من بياض نهاره فاحصًا دارسًا متأملًا بل أراد أن يلم بروائع العواصم الأوربية فزار روما وبروكسل ولندن ووقف في متاحفها وقفة العابد المتخشع يتملى مما تقع عليه عينه من آيات يلألئ فيها وحي العبقرية في سماء الأدهان والألوان أو في تجاليد الصم الصلاب من الأنصاب والتماثيل.

ولم تكن حياة جبران بباريس وقفا على دراسة الفن بل كان للأدب فيها نصيب كبير فطالما قضي سواد ليله منكبًا على الكتابة والتأليف يسكب في كؤوس الحروف روحه التي يسكبها مع طلاء صوره وألواحه.

بين التصوير والأدب

وكان جبران حتى ذلك العهد قد أصدر عدة كتب منها "الموسيقى" و"عرائس المروج" و"الأرواح المتمردة" فضلًا عن الفصول والمقالات التي كان ينشرها في مختلف الصحف العربية في الوطن العربي والمهجر. وطالما رجع إلى نفسه وفكر في شأنه وتساءل أيطلب رزقه من شق القلم أم من لمة المنقاش. لقد زاول الكتابة فما درت عليه بشيء وزاول التصوير فما فتح له أبواب الرزق. إنه يهوى التصوير مثلما يهوى الكتابة، أفحتم عليه أن يتخصص بأحد هذين الفنين ويهجر الآخر؟ ترى أتسعفه القريحة لو زاولهما معًا أم تذهب بددا فلا يصيب فيهما إلا نجاحًا

ضئيلًا؟ كانت مثل هذه الأسئلة تراود فكره فلا يستطيع عنها جوابا فكلا الفنين حبيب إلى نفسه وكلا الفنين يغريه بمتع الوصال وكلا الفنين أوحي إليه بآثار جميلة فأيهما يهجر وأيهما يؤثر وهو الذي يقول في رسالة بعث بها إلى إبن عمه: "... أنا أصرف حياتي بين الكتابة والتصوير ولذتي في هذين الفنين تفوق كل لذة... " على أن تفكيره في الإنقطاع إلى أحد الفنين لم يطل فقد صمم أن يخلص للحبيبين وأن يعيش لهما ويتخذهما أداة للتعبير عما يجيش في صدره من عاطفة متقدة، فإن كانت الألوان والأصباغ قد وفرت له أسلوب التعبير فالحبر والورق يهيبان به أيضًا إلى أن يجعلهما رسول الفكر إلى العقول والقلوب. وفي ذلك يقول لإبن عمه في نفس الرسالة التي أشرنا إليها:...إن هذه الشعلة التي تغذي عواطفي تريد أن تتخذ لها ثوبًا من الحبر والورق".

بقي جبران زمنًا مشغول الفكر مقسم الفؤاد بين التصوير والكتابة حتى قدر له أن يزور يومًا هو ونفر من زملائه المثال العظيم "روادن" أقبلوا عليه في مرسمه ومنحته يسألونه ويأخذون عنه، فأستفاض الرجل يحدثهم عن الفن وأهله وعن أسراره وعباقرته وتطرق به الحديث إلى الكلام عن "وليم بلايك" ذلك المتفنن العظيم والمصور الشاعر الذي أتخذ التصوير والشعر أداة يعرب بهما عن خلجات فكره ونبضات قلبه فكان في كليهما الإمام المبرز.

خرج جبران من لدن "روادن" والدنيا لا تسعه من شدة الفرح فقد نزل كلام الأستاذ بردًا وسلامًا على فؤاده فلا حيرة بعد اليوم ولا تردد،

فلسوف يظل يكتب ويصور ولسوف يكون له من "وليم بلايك" القدوة الحسنة والمثال الجميل.

ولكن سرعان ما شاب هذه الفرحة حزن جديد، كأنما الفرح أمر محرم على هذا الفتى إلا إذا تحلب بعصارة البؤس والألم، فما أن يشعر بإنطلاق أجنحته في عالم الفن مصورًا وكاتبًا، حتى يفاجئه القدر القاسى بنعي والده فيشرب لوعته وينثني على قلبه الدامي المفجوع بأمه وأخيه وشقيقته الصغرى، فإذا هو في غشاء من نبال – كما يقول المتنبي – وإذا نصل الفجيعة بأبيه يتكسر في فؤاده على النصال السابقات.

عزيمة تتغلب على النكبات

قفل جبران عائدًا إلى بسطن بعد أن تزود بخير زاد من الفنون الأوربية وآدابها ومكث في هذه المدينة نحوًا من إثني عشر شهرًا فريسة البرم والتأفف وضيق الحال، وكانت الذكريات السود ماثلة لعينيه وفؤاده كلما أجال طرفه في ذلك المنزل التاعس وذكر أحبابه الذين صرعهم فيه داء السل، فخرجوا منه إلى سكنى المقابر والأجداث. وكان يزيد نفسه ألمًا وعذابًا أنه لا يزال وهو في الثامنة والعشرين من عمره عالة على شقيقته وعلى المحسنة الأمريكية ماري هسكل فيثور في وجه القدر ثورة دفينة تقطع نياط قلبه يأسًا وتعذيبًا ويهتف بنفسه قائلًا: «شربت كأس البؤس حتى الثمالة وفجعني الدهر بأعز الناس إلي وذقت مرارة الغربة ورضيت بالإحسان أنهله من كف شقيقتي العاملة ويد السيدة الأمريكية الخيرة، ونذرت نفسي للفن وبلغت فيه مقامًا أغبط عليه وعملت منذ صباي ليل

نهار ولما أظفر بفتات من موائد الفوز، فحتام هذه الحرب أيها الدهر الغليظ الكبد.

على أن المصائب والنكبات ما كانت لتفت في عضده وإنما كانت تشحذ عزمه وتزيده قوة وجلدًا على الجهاد والكفاح وفي هذا يفتح صدره لإبن عمه ويقول له في إحدى رسائله:

"تأمل قليلًا يا نخلة بحياة جبران ترها نوعًا من الجهاد والنزاع بل هي شبيهة بسلسلة مصائب آخذة حلقاتها بعضها برقاب البعض. أقول هذا وأنا صابر متجلد، بل فرح بوجود المصاعب في حياتي لأنني أرجو وأريد أن أتغلب عليها إذ لولا المصاعب لما وجد الجهاد والعمل ولكانت الحياة قفراء باردة مملة".

ومهما أوتي الإنسان من قوة الصبر والعزيمة وقوة النضال والجهاد فقد يضعف أحيانًا إزاء النكبات المتوالية ويدفعه الإخفاق في الحياة إلى تلمس مواضيع علل الإخفاق الذي مني به في صدر حياته فبدت له في قسوة الغربة عن وطنه الأرضي ووطنه الروحاني. وأعرب عن تلك الغربة في إحدى كلماته فقال:

"أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير أنها تجعلني أفكر أبدأ بوطن سحري لا أعرفه وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني.

أنا غريب عن نفسي فإذا ما سمعت لساني متكلمًا تستغرب أذني صوتي.

أنا غريب عن جسدي وكلما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسي وأجد في عيني ما لا تكنه أعماقي.

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف لغة نفسي.

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ولهذا أنا غريب وسأبقى غريبًا حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني".

رأى جبران أن مدينة بسطن تقسو عليه بذكرياتها الأليمة وتضيق في وجهه مجال المعاش فهجرها إلى نيويورك لعله يجد في مجاليها الفساح تحقيق ما يصبو إليه من الآمال.

كان الرجل صاحب آمال وأحلام وهو القائل في إحدى كلماته: «أفضل أن أكون أحقر الناس ولي أحلام أرغب في تحقيقها من أن أكون أعظمهم ولكن بدون أحلام ولا رغبة».

ضرب في نيويورك مع الضاربين في مناكب الرزق وعاش فيها نحوًا من تسعة عشر عاما يقدس العمل ولا شيء غير العمل. وتلك خلة أثرت عن الأمريكيين فالوقت عندهم أثمن شيء في الحياة كما أن العمل هو أقدس مقدساتها ولقيت تلك الخلة من فؤاد جبران هوى حبيبًا فأقبل على العمل لا تأخذه فيه ونية ولا هوادة.

وفلسفة جبران في حب العمل وتقديسه بارزة في متنوع أثاره فلنجتزئ منها بأثرين إثنين، أولهما فقرة من رسالة كتبها إلى إبن عمه بلبنان يقول فيها:

أنا أحب العمل يا نخلة ولا أدع دقيقة من وقتي تمر بلا عمل. أما الأيام التي تكون فيها نفسي راقدة وفكرتي خاملة فهي أمر عندي من العلقم وأشد قساوة من نياب الذئاب.

وثانيهما قوله عن العمل:

"إن العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة فإذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرًا ملولًا فالأجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة لأنك إذا خبزت خبزًا وأنت لا تجد لك لذة في عملك فإنما أنت تخبز خبزًا علقمًا لا يشبع سوى نصف مجاعة الإنسان وإن أنت أنشدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشدًا فإنما أنت تصم آذان الناس عن الإصغاء إلى أناشيد الليل وأناشيد النهار".

ذلك رأي من يحب العمل ويقدسه فإذا حالت دونه يومًا عقبة من العقبات أو علة من العلل ملأ الأسف صدره وصاح مثل هذه الصيحة التي بثها جبران صديقه الحميم ميخائيل نعيمة في إحدى رسائله إليه قائلًا:

"أنا في هذه الأيام بين ألف عمل وعمل مثل نحلة مريضة في حديقة أزهار. ما أكثر العسل وما أجمل أشعة الشمس على الأزهار. ولكن النحلة مريضة مشوشة. صل من أجلي وأكتسب أجري... ".

إنتصارونجاح

عمل جبران وكافح وطالع الناس بأفكاره الجديدة مبثوثة في كتبه ومقالاته وبفنه الجديد متألقًا في ألواح صوره حتى قهر الزمن وفرض نفسه على عصره وجيله فطارت له شهرة في التصوير فأقبلت عليه الدنيا وذاع له صيت في الفلسفة والأدب فلفت إليه الأنظار والقلوب.

وكان صاحب رسالة بثها الناس بصورة فأستوعبتها الخاصة من أهل الشرق والغرب على السواء فلغة التصوير لغة عالمية لا تستعصي على فهم الحاذقين من عشاق هذا الفن وعارفيه مهما أختلفوا مواطن وبلادًا، وقام كذلك يبث الناس رسالته في أدب جديد أطلع على الشرق العربي فجرًا جديدًا زاهر الأشعة واللألاء وكان قوام ذلك الأدب الجديد الغوص في أعماق النفس وتطويع اللفظ للفكرة المثمرة والعاطفة المتقدة، ثم شاء جبران أن يكون رسول الشرق إلى الغرب يحمل إليه كنوز الحكمة الشرقية وذخائر الفكر العربي فكتب باللغة الإنجليزية عدة كتب منها "المجنون" و"السابق" و"النبي" و"رمل وزبد" و"آلهة الأرض" فغزا نفوس أهل الغرب وحملهم على أن يتطلعوا إلى الشرق ويكبروا شأن عباقرته. وكثيرًا ما زين جبران كتبه برسومه فأجتمع فيها قلم الأديب وريشة المصور فدرت عليه تلك الكتب مالًا وافرًا أستطاع به وبما كان يكسبه من ألواح صوره أن يطأ بقدميه الفقر وينعم هو وشقيقته بحياة هانئة ميسورة وتصل ثروته إلى نحو من مئة ألف دولار وهي ثروة ما حلم بها في عهده ولا بعد عهده كاتب ولا مصور من كتاب هذا الشرق أو مصوريه وإنها لثمرة الجهد والعمل وجزاء المثابرة.

ذلك الصبي القروي المولود في قرية متواضعة من قرى لبنان يصبح

بجده وإجتهاده وعمله المتواصل وصبره على مقارعة الأحداث علمًا من أعلام الفن والأدب يلهج بذكره المشرق والمغرب وينزلانه في الذروة من مساحب النجوم.

وليست هذه العجالة دراسة لفنه وأدبه حتى نمضي فيهما باحثين متقصين معللين وإنما هي ضربة منقاش تحاول أن تصور لنا العصامية كيف تكون والعمل كيف يقدس والعزيمة الجبارة كيف تأكل نيرانها وقود المصاعب والمصائب في هذه الحياة.

وإذا نحن تجاوزنا عن الدراسة المستفيضة نعرض بها أدب جبران وفنه في عالمي الأدب والتصوير، فلا أقل من أن نحلي هذه الترجمة ببعض أقوال العظماء فيه.

قال الكاتب الأمريكي الكبير "برزباين" وهو من هو: "لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح إلى الأرض مرة أخرى لأيقنت أنه عاد بشخص جبران خليل جبران".

وقال الزعيم الديني "فرنكل" عن كتاب «النبي»:

"أعترف أنه لم يسبق لي قط أن تحر كت نفسي من أعماقها كما تحركت بعد أن تلوت كتاب النبي مرات كثيرة".

ولئن كان للنحات الفرنسي العظيم "رودان" فضل القضاء على تردد جبران يوم حاضره عن "وليم بلايك" أنه نظر بعين الفاحص الخبير إلى هذا

العبقري الشرقي فقال عنه:

"يجب أن يتوقع العالم شيئًا كبيرًا من جبران شاعر لبنان ونابغته فهو وليم بلايك القرن العشرين".

ومع هذا كله فجبران فيما رسم و نثر و نظم وفيما جاء به من بدائع وروائع لم يكن راضيًا عن نفسه لأنه رأى أعماله دون الكمال الذي سعت إليه نفسه الكبيرة، وهكذا العظماء يأتون بالنفائس بل بالمعجزات ويرونها مع ذلك أبعد ما تكون عن الكمال الذي ينشدونه وتتطلع إليه نفوسهم. وجبران واحد من هؤلاء العظماء المغرمين بالمثال الأعلى فقد عرض لآثار قلمه وريشته في عددها وروعتها فوجدها ضئيلة صغيرة لا تصور الشعلة المقدسة التي تضطرم بها جوانحه وفي هذا يقول في رسالة بعث بها إلى الآنسة مي:

"أنا يا مي بر كان صغير سدت فوهته، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تمامًا... لا تقولي لي: أنشدت كثيرًا، وما أنشدته كان حسنًا، لا تذكري أعمالي الماضية لأن ذكرها يؤلمني لأن تفاهتها تحول دمي إلى نار محرقة... لقد ولدت وعشت لأضع كتابًا – كتابًا واحدًا صغيرًا – لا أكثر ولا أقل، قد ولدت وعشت وتألمت لأقول كلمة واحدة مجنحة، ولكنني لم أصبر، لم أبق صامتًا حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي. لم أفعل ذلك بل كنت ثرثارًا فيا للأسف ويا للخجل وبقيت ثرثارًا حتى أنهكت الثرثرة قواي. وعندما صرت قادرًا على لفظ أول حرف من كلمتي وجدتني ملقي على ظهري وفي فمي حجر صلد... ".

ذاك تقدير نفسه الكبيرة الظامئة إلى ينابيع الكمال في الفردوس السرمدي... على أن للعبقرية تقديرًا آخر كله رضى وإنصاف وإعجاب فقد كتبته في سفر الخلود وقالت فيه أن جبران قال كلمته وأدي الرسالة...

وفي ليل اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٩٣١ أسترد الله وديعته في مستشفى القديس منصور بنيويورك وسكنت حركة النسر بعد طول التدويم والتحليق وعادوا به بعد أشهر قلائل إلى لبنان الذي طالما حن إليه فإستقبلت بيروت جثمانه إستقبالًا ما عرفه الغزاة الفاتحون وسارت وراء نعشه إلى مسقط رأسه أرتال من السيارات سدت الطرق والشعاب بين العاصمة وبشري، وأودع دير مار سركيس المطل على الوادي المقدس...

وأحتفل القوم بعودة النسر إحتفالًا إمتزجت فيه عبرات الحزن ودموع الفخر، فمن يزر تلك البقعة اليوم يهده أهلها إلى متحف جبران وقد زخر بآثاره الفنية والأدوات التي كان يستعملها في الكتابة والتصوير إلى المنضدة التي كان يجلس إليها والمقعد الذي يقيل فيه ثم يسيرون به إلى ضريح جبران في خشوع ووقار ولقد حملهم الزهو والخيلاء إلى أن يكتبوا على الضريح يوم أقاموه: هنا يرقد نبينا جبران» فعدلوا بعد ذلك عن الغلو في الفخر إلى الغلو في المحبة ونقشوا على الضريح:

"هنا يرقد بيننا جبران ١٩٣١".

سليم تقلا .. الصحافي العصامي

هو عصامي في الصحافة المصرية، أسس جريدة الأهرام في وقت لا يعرف سواد الجمهور من الجرائد اليومية إلا إسمها، ولا تسمح الحكومة بالإذن بنشرها إلا بعد تردد طويل، فمكث عامًا كاملًا يسعى في الحصول على إمتياز الجريدة حتى سمحت الحكومة المصرية بإمتياز جريدة الأهرام سنة١٨٧٥ وليس جهاده في ذلك الحين للحصول على إمتياز الأهرام هو الجانب الوحيد من متاعبه وعصاميته، بل لقد لاقي في سبيل الوصول إلى غايته من إنشاء جريدة ناجحة صعوبات جمة.

ولقد عانى الكساد والإضطهاد والأزمات المالية، وسهر الليالي الطوال، بل تحمل السنوات العجاف التي لا تدر ربحًا في الأعمال الصحافية، ولا تثمر غير الخسائر المادية، ولم يكن عنده من الوسائل ما يخفف عنه من تلك الصعاب، ولم يكن له من معين غير شقيقه بشارة تقلا الذي كان يتولى أعمالها الإدارية. ومع ذلك فقد كان سليم تقلا يعمل أعمال عدد من الموظفين والعمال في الشؤون التحريرية والإدارية.

ولقد هوي الصحافة منذ نزل مصر، ولم يكن من قبل صحافيًا، بل كان مدرسًا رقيق الحال، تعلم في مدارس لبنان، وكان لا يجد نفقات التعليم، فأخذ يستعين عليها بما كان يقوم به من أعمال في ساعات الفراغ.

في كفر شيما

ولد سليم تقلا في أواسط سنة١٨٤٩ بقرية في سفح البنان تدعى "كفر شيما" نبغ فيها جماعة من العلماء والأدباء في الشرق العربي، منهم المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ إبراهيم اليازجي والشيخ خليل اليازجي، والمرحوم أمين شميل وشقيقه الدكتور شبلي شميل وغيرهم من الأدباء والعلماء والأطباء والشعراء.

وقد تلقي سليم تقلا مبادئ العلوم في مدرسة تلك القرية، ثم أنتقل منها إلى مدرسة عبية بلبنان، ولكن هذه المدرسة لم تكن تقبل في صفوفها من كان دون الخامسة عشرة من عمره، فأستنجد والده الدكتور فان ديك، فأنجده وتوسط في إدخاله، فقبلته المدرسة وتجاوزت عن صغر سنه توسمته من نجابته، وحسن إستعداده، فأقام في هذه المدرسة يتلقى علوم ومعارفها، وأعجب أساتذته بتوقد ذهنه، وجمال أخلاقه، وحسن سيرته وعظم نشاطه في الإهتمام بدروسه، ومنافسته لأقرانه.

ولقد بقي مثابرا في مدرسة عبية على إجتهاده ونشاطه حتى وقعت ثورة سنة١٨٦٠ في ربوع الشام ضد إستبداد الأتراك بالحكم وإضطهادهم للأحرار، فأتصل لهيبها بعبية وما جاورها، فبرح سليم المدرسة، وهاجر إلى بيروت، ودخل «المدرسة الوطنية» وسنه وقتئذ أحد عشر عامًا.

وكانت المدرسة الوطنية قد أنشأها المرحوم بطرس البستاني الأديب اللبناني الكبير، فعكف فيها على الدرس والتعليم حتى أتم دروسه، وكان

أثناء وجوده بها يشتغل في ساعات فراغه ليستعين بذلك على نفقات التعليم.

مدرس في مدرسة

وبعد أن حصل على إجازة هذه المدرسة عين أستاذًا في المدرسة البطريركية ببيروت. وقد كان في هذه المدرسة يعلم ما أتقنه، ويتقن ما فاته من العلوم خصوصًا العلوم العربية، التي كان يتلقاها على الشيخ ناصيف اليازجي، الذي كان من أساتذة تلك المدرسة. ولقد كان يعتمد عليه الشيخ ناصيف كثيرًا في شرح بعض الدروس على طلبته دلالة على ثقته به، وإعجابًا بذكائه وسمو مداركه.

ولم تمض مدة طويلة على تدريسه في المدرسة البطريركية حتى صار وكيل أعمالها، ومدير شؤونها. وقد ألف في أثناء ذلك كتابًا في النحو والصرف على أسلوب مبتكر طبع ونشر. وكان الإعتماد عليه فيما بعد في تدريس هذين العلمين في المدرسة البطريركية.

وكان سليم تقلا طموحًا ميالًا إلى الرقي والتقدم، فلما وجد نفسه قد وصل إلى غايته في مهنة التدريس، تاقت نفسه إلى الإشتغال بالكتابة والأدب، ورغب في إنشاء صحيفة أدبية وسياسية لتروي ميوله الخاصة.

الأهرام الأسبوعية

وكانت مصر في أواخر القرن التاسع عشر قد نشطت فيها حركة

أدبية، وأنشئت بها عدة مجلات محدودة كان البعض منها حكوميًا، والبعض الآخر تشجعه الحكومة، فلاح له أن يرحل إلى مصر، فنزلها سنة١٨٧٤ وأتصل برجال حكومتها وأهل الفضل والأدب والعلم فيها. وأعتزم أن ينشئ جريدة عربية. وكانت الجرائد كما قلنا لا يعرف سواد الجمهور منها إلا إسمها، وليست من المشروعات المربحة، ولكنه على الرغم من ذلك أخذ يسعى ويتردد بين مصر والإسكندرية سنة كاملة للحصول على إمتياز جريدة حتى سمحت له الحكومة بإمتياز جريدة الأهرام، فأصدرها أسبوعية بمدينة الإسكندرية، ولم يستطع إصدارها يومية إلا بعد سنوات!

أصدر سليم تقلا الأهرام أسبوعية ، ولم يكن لديه من معدات التحرير والتحبير والنشر والطبع إلا ما فطر عليه من الثبات وحسن التصرف والإستقامة، وما أكتسبه من العلم والإختبار مع شيء يسير من المعدات المادية، فقاسى في سبيل نشر الأهرام مشقات كبيرة، ولكنه ذلل كل تلك الصعاب بالصبر والمثابرة، فضلًا عما كان يلاقيه أصحاب الجرائد في ذلك الحين من أستهجان الناس للصحافة وقلة عنايتهم بالقراءة والإقبال على تثقيف أنفسهم وذويهم، وإهمالهم لتتبع الحوادث وما ينبغي أن يعرفه الإنسان من تاريخ حياته اليومية، وما يجب عليه من تثقيف مداركه ومسايرته للتطور الحديث. ولقد قال سليم تقلا مرة لأحد أصدقائه:

«أنشأت الأهرام وأنا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب، فكنت أقضي النهار والليل عاملًا بدًنا وعقلًا، وكنت أحررها وأديرها، وألاحظ عمالها، وأتولى معظم أعمالها مما يقوم به الآن عشرة من الموظفين».

الأهرام اليومية

بقيت جريدة الأهرام في الإسكندرية تصدر أسبوعية، ثم رأى مؤسسها أن يصدر جريدة يومية سماها صدى الأهرام، فلاقى من المتاعب في إصدار هذه الجريدة أضعاف ما لاقى في إصدار جريدة الأهرام. ومما يحكى عنه أنه لما أصدر صدى الأهرام اليومية طبع من عددها الأول أربعة آلاف نسخة، وزعها على نخبة من أهل القطر وأعيانه وشخصياته كجاري العادة في الجرائد في ذلك الحين عند أول صدورها، فرجعت إليه إلا عشرات منها. على أن ذلك لم يثن من عزمه، بل واظب على إصدارها، حتى وقع الخلاف بينه وبين الخديو إسماعيل، وأستاء هذا الخديو من أخبار نشرها عن سياسته، فأمر بوقف جريدته وسجنه ومصادرة مطبعته، ثم شفع له بعض ذوي النفوذ عند الخديو، فعفي عنه وعن صحيفتيه، فعاود إصدار صحيفة ثالثة سماها «الوقت. ولكنها لم تعش طويلًا، فأكتفي بالأهرام اليومية.

وما زال سليم تقلا يصدر جريدته الأهرام بالإسكندرية حتى كانت الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ فاضطر إلى المهاجرة إلى سورية كما فعل غيره من النزلاء غير المصريين. فلما أحرقت الإسكندرية أصابت النيران مطبعة الأهرام بالمنشية فأحرقت كثيرًا من أعماله وكتاباته ومؤلفاته. ولما أنقشعت غياهب الثورة عاد إلى الاسكندرية وأعاد نشر الأهرام. وفي سنة ١٨٩١ سافر إلى فرنسا فزار عاصمتها، وكثيرًا من مدنها وكان يكاتب الأهرام منها، وفي السنة التالية سنة ١٨٩٢ أصيب بألم في القلب، فأشار عليه الأطباء بالسفر إلى لبنان لتغيير الهواء فسافر إليه، ولكنه لم يلبث أن توفي ولم يخلف ذرية.

الصحافي الأديب

وكان رحمه الله كاتبًا مخلصًا وأديبًا مسالمًا، وديع النفس، كريم الأخلاق. وقد أستكتب في جريدته كبار العلماء والأدباء المشهورين من أمثال الشيخ مُحَمَّد عبده وغيره. وكان رائع التنظيم لصحيفته حتى إمتازت على الصحف اليومية الأخرى بحسن تنظيمها وعنايتها بالبرقيات الخارجية، والأخبار الداخلية، وكان ينتخب البرقيات الهامة، فيجعل لها الصدارة.

ولما أصدر الأهرام يومية سنة ١٨٨١ أذاع سليم تقلا مبادئها وخطتها وهي تتلخص في أنه سيرفع منها ألقاب التمجيد والتقريظ مثل: «الوطني النزيه»، و«الهمام النبيه» و«الشريف الوجيه» وما إلى ذلك من الألفاظ. وسيكتفي بالرتب الرسمية.

وقد قرر أن يلحق بذيل الصحيفة ترجمة طيبة لناحية من نواحي الأدب الرفيع في التراجم والقصص، ثم مضي يعيد نشر هذا في كتب تصدر عن الأهرام، وتباع للناس، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها في إذاعة لون من ألوان الثقافة العامة كانت مصر وسائر بلاد الشرق في أشد الحاجة إليه. وخصص يومًا من أيام الأهرام لمراجعة النشاط الإقتصادي في مصر ومعالجة الأمور المالية معالجة قدمت محررها في هذه الناحية على جميع محرري عصره. وأفرد في الأهرام جزءًا لنشر أنباء الشرق الأدنى وشرح مختلف نشاطه العلمي والأدبي والسياسي.

ولم يكن سليم تقلا صحافيًا أو سياسيًا فحسب، بل أديبا وشاعرًا

أيضا. وهو القائل في الأساطيل الحربية:

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحة

والغمر منها كسهل، وهي كالقلل

دانت لهيبتها الأنواء خاضعة

فحيثما قصدت حلت بلا مهل

وله في الدعابة شعر لطيف، قال في التدخين:

عدل التدخين قوم قد رأوا

بيدي سيكاره أعشقه

قال دعها، فهي سم ناقع

قلت لا والله لا أعتقها

أن تكن سما فاني محرق

شرها بالنار إذ أحرقها

وعليه فأعدلوا أو فأعذروا

فعلى الحالين لا أطلقها

حافظ إبراهيم .. شاعر النيل

نشأ حافظ إبراهيم في بيئة شعبية يتيمًا فقيرًا، وذاق في طفولته وشبابه ما ذاق من بؤس وصعوبات وتشريد. كان أبوه إبراهيم فهمي أحد المهندسين الموظفين بالحكومة المصرية، وهو مصري صميم، ذو دخل محدود. وكانت أمه السيدة هانم أحمد البورصة لي من أسرة تركية تسكن المغربلين، وهو حي شعبي بالقاهرة. وتعرف بأسرة الصروان، إذ كان والده أمين الصرة في الحج، فلقب بالصروان أي (القيم على الصرة). ولقبت الأسرة به.

ومع أن الدم التركي كان يجري في عروق حافظ إبراهيم كالدم المصري ألا إنه لم يمدح الأتراك كما مدح مصر والعرب. وكان أبوه وقت ولادته مشرفًا على بناء قناطر ديروط، وقد أنتقل إليها هو وزوجته. وهناك سفينة راسية على شاطئ النيل في أقصى الصعيد ولد شاعر النيل، وتفتحت عيناه أول ما تفتحت على صفحاته الخمرية الجارية. وأستنشق النسمات الأولى من نسماته العاطرة التي تتهادى على ضفتيه، وتمر بين مروجه الخضراء، ورياضة المخضلة الحسناء.

طفولة بائسة

وشاء القدر أن يبدأ حافظ إبراهيم مواجهة الأحداث، ومقارعة الخطوب، وهو لم يجاوز العام الرابع من عمره، فقد توفي أبوه في ديروط، ولم

يخلف له مالًا ولا جاهًا، ولم يترك له إلا اليتم والعدم المريرين وهو في هذه السن الغضة، فأضطرت أمه إلى الإنتقال به إلى القاهرة، حيث إلتجأت إلى أخيها «مُحَمَّد نيازي» وعاشت هي وولدها اليتيم المسكين في كنفه. ولا شك في أن مؤونتهما كانت واجبا أثقله أداؤه، إذ كان هو الآخر موظفًا صغيرًا، يعمل مهندسًا للتنظيم.

وكان على خاله هذا أن يعلمه حين بلغ السن التي تؤهله لبدء الدراسة، فلم يسعه إلا أن ألحقه بمكتب لتعليم القراءة والكتابة وشيء من العربية والحساب كان في حي القلعة بالقاهرة حينذاك، ويعرف بإسم «المدرسة الخيرية».

ومن هذا المكتب، أو «الكتاب» الأولى المتواضع البسيط، أنتقل حافظ إلى «مدرسة القربية الابتدائية». وكانت في ذلك الحين تعلم تلاميذها ما يتعلمه تلاميذ «الكتاتيب» ولكن بطريقة أقرب إلى النظام الحديث في التعليم.

ثم أنتقل حافظ إلى مدرسة «المبتديان. كما ألتحق بعدها «بالمدرسة الخديوية، ولكنه لم يلبث في هذه المدرسة الأخيرة إلا فترة قصيرة، ثم تركها وغادر القاهرة كلها إلى مدينة طنطا، ليعيش هناك مع أسرة خاله الذي نقل إليها في ذلك الحين.

وفي خلال هذه السنين العشر أو نحوها، التي قضاها حافظ متنقلًا بين الكتاتيب والمدارس الإبتدائية في القاهرة، تأصلت الشعبية في نفسه،

وأمتلأ ذهنه وقلبه بمختلف الصور الصادقة الناطقة عن الحياة القاتمة لطبقات الشعب الكادحة الفقيرة. ولا شك في أن تجاربه الخاصة في هذه السن المبكرة كان لها أكبر الأثر في حياته، وكانت هي المنبع الغزير لما ردده في شعره من شكوى وعتاب ورثاء لليتامى والمساكين.

ولعله كان يصف طفولته البائسة المشردة ويتمه الأليم في المحاورة التي جرت بينه وبين صديقه وزميله المرحوم خليل مطران شاعر القطرين في حفل أقامته جمعية رعاية الأطفال بالأوبرا سنة ١٩١٣، إذ قال فيها:

هـــــــــذا صـــبي هـــائم تحـــت الظـــلام هيـــام حـــائر

أبلـــي الشـــقاء جديـــدة وتقلمــــت منـــه الأظـــافر

فأنظـــــر إلى أســــماله لم يبـــق منهـــا مـــا يظـــاهر

هـــو لا يريـــد فراقهـــا خـــوف القـــوارس والهـــواجر

لكنهـــا قـــد فارقتـــه فـــراق معـــــذور وعـــاذر

ولعل تلك الصورة لنفسه في ذلك الحين كانت نصب عينيه حين نظم قصيدته التي أنشدها في حفلة الجمعية الخيرية سنة ١٩١٦، وفيها يقول على لسان يتيم بائس ممن كفلتهم هذه الجمعية:

قضـــيت عهـــد حـــداثتي مـــا بـــين ذل وإغـــتراب

لم يغـــن عـــني بـــين مشـــرقها ومغربهـــا اضـــطراب

صـــفرت يـــدي فخـــوى لهـــا رأســـي وجـــوفي والوطـــاب

وأنا إبـــن عشـــر لـــيس في طـــوقي مكافحـــة الصـــعاب

بل أكبر الظن أن حياة حافظ التلميذ اليتيم الصغير، وما أشتملت عليه من آلام وآمال في البيت والمدرسة، كانت فيها مشابه من حياة الطفلة التي وصفها في إحدى قصائده قائلًا على لسانها:

أخشـــــى مـــــربيتي إذا طلــــع النهــــار وأفــــزع

وأظـــل بـــين صـــواحبي لعقــــــــابها أتوقــــــع

لا الـــدمع يشـــفع لي ولا طـــول التضـــرع ينفـــع

وأخـــاف والـــدتي إذا جـــن الظـــلام وأجـــزع

وأبيـــت أرتقـــب الجـــزا ء وأعـــــين لا تهجـــــع

مـــا ضـــرني لـــو كنـــت أســـتمع الـــكلام وأخضـع

مـــا ضـــرني لـــو صـــنت أثـــوابي فـلا تتقطـــع

وحفظـــت أوراقـــي بمحـــفظتي فـــلا تتـــوزع

ذلك لأن توقع العقاب في المدرسة يبدو طبيعيًا من تلميذ مثل حافظ، عرف بين أترابه «بالشقاوة والإنصراف إلى المطالعات الأدبية التي تشبع ميله الخاص، كما أن توقعه العقاب في البيت على تقطيع ثيابه وتوزيع أوراقه ليس بالشيء الغريب أو المستبعد في الوقت الذي كان يعيش فيه هو وأمه ضيفين على خاله الموظف الصغير!

ومما يؤيد هذا، أنه هو نفسه قد شعر بثقل مؤونته على خاله، بعد إنتقالهما إلى طنطا، وتركه الحياة الدراسية إلى غير عمل يتكسب منه،

مكتفيًا بالمطالعات الأدبية، والإجتماع بهواة الأدب من شبان المدينة مثل الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار الذي كان طالبًا وقتئذ بالمعهد الأحمدي هناك، للمذاكرة في نوادر الأدب، والمطارحة للشعر. وقد سجل حافظ شعوره هذا في بيتين خاطب فيهما خاله فقال:

ثقلـــت عليـــك مـــؤونتي إني أراهــــــا واهيـــــــه

فـــأفرح، فـــإني ذاهـــب متوجـــــه في داهيـــــه

كرامة نفسه

كان حافظ في السادسة عشرة من عمره حين أبت عليه نفسه أن يعيش عالة على خاله، و كان عليه أن يجد لنفسه عملًا يعيش منه بكده وجهده، ولما كان لم يحصل على شهادة دراسية تؤهله للإلتحاق بعمل حكومي، وكانت مطالعاته الكثيرة ومحفوظاته من جيد الشعر ومختاره، لا تغني غناء الشهادات في هذا الشأن، فقد أتجه إلى ميدان الأعمال الحرة، وألتحق بمكتب لأحد المحامين في طنطا هو الشيخ مُحَمَّد الشيمي، على أمل أن يصبح محاميًا ناجحًا مثله، ولا سيما أنه كان يحس في نفسه أنه على حظ عظيم من طلاقة اللسان، والخبرة بفنون الكلام. وكانت المحاماة في ذلك العهد مهنة مفتحة الأبواب لكل من أراد ممارستها. وقد لقي فيها حافظ أول الأمر حظًا مبشرًا بالنجاح، وترافع في قضايا كثيرة بالمحاكم الجزئية القريبة من عاصمة الغربية فظفر بالحكم لصالح موكليه، أو موكلي المحامي الذي عمل في مكتبه. غير أنه ما لبث قليلًا حتى أختلف معه، فترك مكتبه إلى مكتب محام آخر في طنطا هو المرحوم مُحَمَّد أبو شادي، بعد أن

ترك له بيتين ضمنهما «إستقالته المسببة» من العمل في مكتبه هما:

جراب حظي قد أفرغته طمعًا

بباب أستاذنا الشيمي ولا عجبا

فعاد لي وهو مملوء، فقلت له:

مما... فقال من الحسرات وأحربا

ولقد وجد حافظ في صاحبه الجديد أديبًا يقدره حق قدره، فيطارحه بالشعر، وينادره بالأدب، ولكن نفسه الشاعرية الملول سرعان ما سولت له مغادرة هذا المكتب أيضًا، وإن لم ينس ما لقيه عند صاحبه من مودة وإكرام، فقال في الإحتفال بذكرى وفاته سنة١٩٢٥:

عجبت أن جعلوا يومًا لذكراكا

كأننا قد نسينا بوم منعاكا

إذا سلت يا أبا شادى مطوقة

ذكر الهديل فثق أنا سلوناكا

قد عشت فينا نميرا طاب مورده

أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا

فما كأولاك في بر وفي كرم

أولى كريم، ولا عقبى كعقباكا

الضابط الشاعر

وأنتقل حافظ بعد ذلك إلى مكتب محام آخر هو المرحوم عبد الكريم فهيم، غير أنه سرعان ما ترك العمل في المحاماة كلها، ثم عاد للقاهرة حيث ألتحق بالمدرسة الحربية، وواصل الدراسة في هذه المرة إلى أن تخرج فيها برتبة الملازم سنة ١٨٩١ وهو يومئذ في حوالي العشرين من عمره.

عين حافظ بعد تخرجه في المدرسة الحربية ضابطًا بالجيش، فأمضى فيه نحو ثلاث سنوات، ثم نقل إلى وزارة الداخلية وعين ملاحظًا للبوليس في مركز بني سويف ثم في مركز الإبراهيمية. ولم تكن مدرسة البوليس قد أنشئت بعد فكان ضباط البوليس يؤخذون من بين المتخرجين في المدرسة الحربية. وأعيد بعد ذلك الى وزارة الحربية.

وإلى هنا، كان حافظ الضابط الشاعر، ما زال يداعبه الأمل في أن يبلغ ما بلغه الضابط الشاعر الذي أتخذه مثلًا وقدوة، وهو المرحوم محمود سامي البارودي. وكان حافظ على حق في هذا الأمل، فهو في ميدان القلم والشعر كان قد صار شيئًا مذكورًا في الأوساط الأدبية، وهو في ميدان السيف والحرب كان قد بلغ رتبة الملازم الأول!

على أن صرح آماله بدأ ينهار فجأة، إذ أحيل إلى الإستيداع منذ

إعادته إلى وزارة الحربية، فعاوده بؤسه القديم منذ ذلك الحين، لأن مرتبه في الإستيداع لم يكن يزيد على أربعة جنيهات في الشهر!

سفره إلى السودان

ولبث كذلك خمسة أشهر أو نحوها، ثم كللت مساعيه في سبيل الخروج من أزمته النفسية والمادية بالنجاح، فعين بإدارة التعيينات، وأضطر خلال عمله فيها إلى السفر إلى السودان في الحملة الأخيرة بقيادة لورد كتشنر. وهناك قضي في السودان الشرقي حوالي سنتين، عانى فيهما الأمرين. وكتب خلالهما إلى صديقه المرحوم مُحَمَّد بيرم يصف حاله ويشكو مآله، قال:

نزحت عن الديار أروم رزقي

وأضرب في المهامه والتخوم

وما غادرت في السودان قفرًا

ولم أصبغ بتربته أديمي

وها أنا بين أنياب المنايا

وتحت براثن الخطب الجسيم

كما كتب من هناك إلى بعض أصدقائه يقول:

من واجد منفر المنام

طريد دهر جائر الأحكام

مشتت الشمل على الدوام

ملازم للهم والسقام

يا ليت شعري بعد هذا العام

إليكمو ترمي بي المرامي

أم ينتويني رائد الحمام

فأنطوي في هذه الآكام

وتولي الضبع على عظامي

ولائما للوحش في الأظلام

وزاد في شقائه خلال عمله في السودان، أنه كان مغضوبًا عليه من كتشنر نفسه، ذلك الجبار العنيد كما وصفه هو في كتاب أرسله إلى الأستاذ الإمام قال فيه: «وقعدت همة النجمين، وقصرت يد الجديدين، عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد، فقد نما ضب ضغنه علي، وبدت بوادر السوء منه إلي، فأصبحت كما سر العدو، وساء الحميم».

وفي الوقت نفسه، كان رئيس فرقته حاقدًا عليه، لا يفتأ يذكره بالسوء

في تقاريره الرسمية، وذلك لأن حافظًا لم يكن يطيق غطرسته، وكثيرًا ما نظم في ذمة أراجيز ينشدها زملاءه الضباط، وفي إحداها قال فيه:

تــــراه إذ يـــنفخ في المزمـــار تحســـــبه في رتبـــة الســــردار

يجتنـــب العاقـــل والنبيهـــا ويعشـــق الجاهـــل والســـفيها

هذا إلى قسوة القيظ في السودان، وحرمان حافظ هناك من أصحاب سمره ومجالس أنسه في القاهرة، مما دعاه إلى أن يواصل الكتابة إلى الأستاذ الإمام وغيره ممن يؤمل في توسعهم لإعادته إلى العاصمة، فكتب إلى بعض أصدقائه يشكو تلك الحال:

رميت بها على هذا التباب

وما أوردتها غير السراب

وما حملتهــا إلا شـــقاء

تقاضيني به يوم الحساب

وما أعذرت حتى كان نعلي

دما، ووسادتي وجه التراب

وحتى صيرتني الشمس عبدا

صبيغا بعدما دبغت أهابي

وحتى قلم الأملاق ظفري

وحتى حطم المقدار نابي

إحالة إلى الإستيداع

وأخيرًا عاد حافظ إلى القاهرة، ولكنه عاد محالًا مرة أخرى إلى الإستيداع بعد أن حوكم وسبعة عشر ضابطًا من زملائه بتهمة العصيان، وهكذا تبخرت آماله وتبددت في أن يكون رب السيف والقلم مثل محمود سامي البارودي، وتراءى لعينيه ما ينتظره من عيش ضنك بالجنيهات الشهرية الأربعة التي هي مرتب الإستيداع، فكتب بعد سنتين وأربعة أشهر إلى الجهات المختصة طالبًا إحالته إلى المعاش، ذاكرًا في طلبه هذا «أنه مكث بخدمة الجيش ١٢ سنة، ولم يحصل فيها على غير رتبة ملازم أول، ومضي عليه أربع سنوات وهو في الإستيداع، وأنه فقد الأقدمية، ويلتمس إحالته على المعاش ليتمكن من وجود شغل له يقوم بنفقته ونفقة عائلته الكبيرة التي لا يقوم مرتب الإستيداع بلوازمها». وقبل طلبه فأحيل إلى المعاش في أول نوفمبر سنة ١٩٠٣.

حيرته وفقره

لبث حافظ بعد عودته من السودان يواصل السعي في سبيل الحصول على عمل ملائم يعيش منه. ولكنه فشل في سعيه هذا أكثر من عشر سنين، لم يدع خلالها بابًا إلا طرقه، ولا وسيلة إلا أتخذها. وكان حاله فيها كحاله حين كان صبيًا يعاني اليتم والبؤس، وكحاله وهو يقاسي الوحشة

والإضطهاد وفراق الأخدان والإخلاء في السودان، وفيها يقول:

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما

وعدت وما أعقبت إلا التندما

لحا الله عهد القاسطين الذي به

تهدم من بنياننا ما تهدما

إذا شئت أن تلقي السعادة بينهم

فلا تك مصريا، ولا تك مسلما!

وكقوله عند تهنئته للمرحوم عبد الحليم عاصم أمير الحج سنة ١٨٩٥:

يا لقـــومي أنـــني رجـــل   حـــرت في أمـــري وفي زمـــني
أجفـــاء أشـــتكي وشـــقا   إن هـــــــذا منتهـــى المحـــن

وقد صقلت هذه الأعوام نفس حافظ ومواهبه الشعرية، بما أتيح له فيها من تجارب ودراسات في صميم الحياة، وتوفر على صوغ الشعر وتجويده لإتخاذه وسيلة إلى بلوغ الغاية التي يريدها، وكانت غايته أول الأمر أن يحظى بمنصب في القصر، فأخذ يزجي إلى الخديو عباس الثاني مدحة بعد مدحة في مختلف المناسبات.

تشجيع الأستاذ الإمام

على أنه وقد يئس من نيل متمناه عند الخديو وشاعره، ظل يلقي عند الأستاذ الإمام مُحَّد عبده صدرًا رحبًا وعطفًا كريمًا وتشجيعًا عظيمًا. وقد سجل حافظ ما لهذا المصلح الكبير عليه من مآثر في كثير من القصائد والرسائل. كقوله من قصيدة طويلة:

لي كل حول لبيت الجاه منتجع

كما تشد لبيت الله أرحال

وزهرة غضة ألقي الإمام بها

ها على أختها في الروض أدلال

يا من تيمنت الفتيا بطلعته

أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

وبفضل تشجيع الأستاذ الإمام مُحَّد عبده أستطاع حافظ أن يزداد تألقًا ولمعانًا بين نجوم الشعر في ذلك الحين، كما أستطاع أن يتألق بين نجوم النثر بإخراجه كتاب البؤساء» للشاعر الفرنسي فيكتور هوجو في حلة عربية فاخرة كانت ولا تزال موضع الإعجاب لدى الأدباء والمتأدبين.

ولم يكن عجبًا أن يكون حافظ أشد أصحاب الأستاذ الإمام وتلاميذه حزنًا وفجيعة ولوعة عند موته في سنة ١٩٠٥ فقد ضاعت بفقده بقية ما

كان للشاعر العصامي من أمل في الحياة، كما عبر هو نفسه عن ذلك في رثائه للمرحوم قاسم أمين بعد ذلك بعامين فقال:

وأها على دار مررت بها

قفرا، وكانت ملتقى السبل

سائلتها عن قاسم، فأبت

رد الجواب فرحت في خبل

متعثرا، ينتابني وهن

مترنحا كالشارب الثمل

متذكرا يوم الإمام به

يوم أنتويت بذلك البطل

يوم أحتسبت، وكنت ذا أمل

تحت التراب بقيمة الأمل

وقد حرص حافظ على أن يسجل ذلك في رثائه للأستاذ الإمام في الحفلة الأولى التي أقيمت لذلك فقال:

فيا منزلا في «عين شمس» أظلني

وأرغم حسادي وغم عداتي

دعائمه التقوى، وأساسه الهدى

وفيه الأيادي موضع اللبنات

لقد كنت مقصود الجوانب آهلا

تطوف بك الآمال مبتهلات

مثابة أرزاق، ومهبط حكمة

ومطلع أنوار، وكنز عظات

حافظ في دار الكتب

ومهما يكن من أمر تلك السنين العجاف في حياة حافظ المادية، فلا شك في أنها كانت خيرًا وبركة على حياته الأدبية والإجتماعية، ففي خلالها أنشأ كثيرًا من غرر قصائده في السياسة والوطنية والأخلاق والعادات والتقاليد، وأخرج كتابه الثاني «ليالي سطيح». كما أشترك مع صديقه شاعر القطرين خليل مطران في ترجمة كتاب في «الإقتصاد». هذا إلى أن إتصالاته من طريق أدبه وشعره بكثيرين من الكبراء داخل الحكم وخارجه، إنتهت أخيرًا بأن عينه المرحوم أحمد حشمت ناظر المعارف رئيسًا للقسم الأدبي في دار الكتب في سنة ١٩١١ بمرتب شهري قدره ثلاثون جنيهًا، ثم ثبت في هذا المنصب بعد عام وأنعم عليه برتبة البكوية، وفي

ذلك قال من قصيدته في الحفل الذي أقيم لتكريمه في هذه السنة الأخيرة:
وما كنت أحلم لولا الوزير بهذا الهناء، وهذا اللقب

علــى أياد لــه جمـــــــــــة وفضــل قــديم شــريف الســبب
فــأنا أقــال بــه عثــــــرتي وأوري زنادي، وآنا وهـــــــــب
تفيــأت منــه ظــلال النعــيم وأصبحت أعـرف لـبس القصـب

حافظ الكريم

وكأنما شاء القدر إلا أن يبقى حافظ الشاعر العصامي طول حياته شاعرًا بما يشعر به البائسون والمعدمون، لكي يبقي لهم نعم النصير، وليختصهم من شعره الذائع بالشيء الكثير... ومن هنا عاش حافظ بعد ذلك ما عاش وهو ينفق باليمين ما يكتسبه باليسار، وقد يسخو بكل ما يملك من مال على صديق أو زميل بائس، وفي الوقت نفسه كانت عزة نفسه تأبى عليه أن يذل لغير الله.

عبده الحمولي .. زعيم الغناء في الشرق

د. محمود أحمد الحفني

لا تكون العصامية جديرة بالتخليد حتى تبدأ نفسها بنفسها مستغنية بعنصر القوة فيها عن العلل والأسباب جميعًا، وإن كانت سير العظماء خاضعة في كثير من شأنها لمقدمات من البيئة والظروف المحيطة والأوضاع الإجتماعية والنظم السياسية والمستوى الثقافي والفني. بيد أن الشخصية تسمو على الأسباب والعلل، يختفي تأثرها بها، وكأنها خلقت من لا شيء لتكون شيئًا جديدًا باهرًا لعصرها الحاضر وللعصور الآتية.

لم يكن القرن التاسع عشر ليسمح للعبقرية المصرية أن ترتفع هامتها، فالأفق قاتم والظلام مخيم. وهب أن ألوانًا من العبقريات شقت الطريق لنفسها، فما كان للموسيقى يومئذ طريق تشقه ولا جو تتنفس فيه الصعداء. ولا يعلم أحد إلا الله ما يعانيه رجال الموسيقى من الجفوة والإستبعاد عن كل ندوة عالية ووسط رفيع. وقد يتيسر الطريق أمام جاهل فينال في العلم مكان العظمة، أو إمام فقير بائس ملتصق بالتراب فيجتمع له الثراء من كل مكان، ويدخل هذا في زمرة أقطاب المعرفة وتنخرط ذاك في سلك أقطاب الثراء. ومهما يكن من أمر فقد كانت العظمة على أي حال غير مستحيلة على المكافحين المجدين. ولكنها بالنسبة لرجل الموسيقى تتطلب الكفاح مضاعفًا والجهاد متواصلًا والصبر مريرًا طويلًا

للوصول إلى الخطوة الأولى في طريق بناء الشخصية، ولا سيما في مثل البيئة التي عاش بها الناس في خاتمة عصر المماليك وبداية حكم يكرر نفسه بصورة أخرى. فإذا إستطاع إنسان أن يبني شخصيته بين تلك القيود والأغلال، وأن يطلق العنان لروحه الوثابة ليحلق في جو الإبداع والإبتكار كان هو المعجزة حقًا، وكان هو عبده الحمولي».

نهضة فنية

منذ بداية القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدأت تراجع حسابها مع التاريخ وتتطلع إلى التخلص من كابوس الظلام الجاثم على صدرها، وتلتمس لنفسها منفذًا من المظالم ومن ألوان التدهور الذي أصيب به الشرق والعالم الإسلامي معه. آن لمصر ألا تصبر على التخلف عن الأمم وهي أم المدنيات ومؤسسة الحضارات. وكان من الحوافز لها إلى النهوض تلك الجولات والإتصالات الحربية والعلمية بينها وبين دول الغرب، فكل شيء يأخذ سبيله إلى التطور ويمضي في طريقه إلى التجدد والإختراع والإبتكار. وسرعان ما وثبت مصر تنفض عنها الغبار بقوة من سواعد أبنائها ومن مواهب العبقريين فيها. وكانت الفنون في مقدمة ما أتجهت إليه المشاعر في هذه النهضة القومية الحديثة. والموسيقى من النهضة في الصميم والصدارة، ومن الفن في الذروة والقمة، لأنها المعبرة بلغتها عن لغة الحياة ولأنها هي التي تصحب القافلة في طريقها إلى المجد. فما لبثت مصر أن ظهرت بها مدرسة فنية ألتقي فيها رئيس الملحنين مُحَمَّد القباني وكبيرة المطربات سكينة وغيرهما. وإلى جانب هؤلاء أشرق الوعي الأدبي الذي

يغذي الموسيقى بتراث الشعر القديم ويعيد إلى الغناء العربي مجموعة صالحة من ثروته المشتتة. فصنف في تلك الآونة السيد مُحَّد شهاب الدين، وكان شاعرًا مجيدًا وموسيقيًا ماهرًا، كتابه «السفينة وقد جمع في مصنفه هذا عددًا عظيمًا من الموشحات العربية كانت عاملًا قويًا على إنعاش الفن القومي.

نشأته بطنطا

في هذه الفترة من بداية اليقظة بعد سبات عميق، وفي هذه الظروف التي لا تزال حالكة قاتمة إلا قليلًا من بصيص النور الآخذ في الإزدياد، شب عبده الحمولي» وترعرع بمدينة طنطا حيث كان مولده بها في نحو عام ١٨٤٣. وقد ولدت معه موهبة النبوغ الصوتي التي تنمو بنماء جسم الصبي الفنان رويدًا رويدًا، حتى تسامع به من حوله، وبدأ الناس يتحدثون عن صوت جديد لا عهد لهم به من قبل.

ولا شك أن الصبي الفنان قد أتخذ لصوته حلًا لفظية من الأهازيج الشعبية والأغنيات الريفية والمواليا الوطنية. إنها ثروة الريف والطبيعة الساكنة في هذه المدينة المحوطة بالمياه والأشجار، المليئة بالمساجد والمشاهد والموالد التي أستمع فيها وفي حلقات الذكر إلى أصوات المنشدين وترتيل القارئين. كان للقصائد النبوية والتواشيح الدينية بتلك الحلقات أثرها السحري الفعال في تلك الفطرة الناشئة فما أعظم ما حبته به الطبيعة في تلك الرقعة التي جمعت بين سكون القرية وحضارة المدينة.

هروبه من وجه أبيه

ما كاد أبوه المشتغل بتجارة البن يلمس الإتجاه الجديد في حياة نجله الصبي حتى ثارت ثورته وضاق ذرعًا بهذا العار الفني الذي سيلحق به وبأسرته فيسيء إلى السمعة ويصيب الكرامة في الصميم. وما لبث تاجر البن أن أنهال على ولده بالتنكيل والتنكيد والإيذاء المستمر والمعاملة النابية القاسية. وأدركت رحمة الله ذلك المسكين بأخ شقيق يكبره كان له خير معوان في محنته وخير مواس على إحتمال شدته. فإتفقا معًا، وسرعان ما نفذا تعهدهما، على أن يغادرا الوالد ويتركاه للبن يساوم فيه وللسمعة الطيبة يحتفظ بها ويصونها من خطر الموسيقى الداهم. وإذا سمعت بأن أخوين شقيقين قد أجمعا على الرحيل والإنفصال من أحب الأمكنة إليهما، ومن ظل الأبوة التي كان مفروضًا أن تكون أبر الظلال بهما... إذا سمعت بذلك فثق أن وراء الأخوين همومًا لم يطيقا الصبر عليها ففرا من وجهها إلى المصير المجهول. وهنا تتجلى العصامية على حقيقتها. فلو قد رأيتهما لهالك منظر فتيين يضربان في الأرض، فلا ثياب ولا طعام، يحمل كبيرهما صغيرهما إذا عجزت القدم وكلت الهمة عن مواصلة السير، في أرض موحشة وليال مظلمة، بين قطاع طريق ومخاطر مختلفة، في غربة وفاقة ودموع... كل ذلك كان سبيل العصامية إلى الظهور بعد كفاح مرير.

مع الأستاذ شعبان

انتهى المطاف بعبده الحمولي إلى «شعبان» فمن هو هذا؟.. إنه مهاجر من طنطا كذلك، وهو يحترف الغناء والعزف كيفما كان. وتستطيع

أن تقول إنه كان مدرسة للإستقبال والتعليم والتوجيه والتخريج، والإستغلال قبل كل شيء. فما كاد يتعرف مواهب «عبده» حتى ألتقطه وقبض عليه بيد قوية. فقد أستطلع بفراسته الفنية ما وراء تلك الموهبة من ثروة يمكن أن يستنزفها إذا أستخدم هذا الفنان بعد تدريبه والتعريف به والإعلان عنه. وكذلك صنع به. فقد مكنه من الإلمام بالفن بالقدر الذي يمكن معه إقامة أفراح وحفلات وإشتراك في سهرات. وكان شعبان هذا قد خشي أن يفلت من يده هذا الصيد السمين، ولعله لمح وجود منافسين جدد يحاولون أن يختطفوا الفريسة من بين يديه، فأسرع إلى تقييد «عبده» بالزواج من أبنته ليغلق بتلك المصاهرة باب المنافسة ويأمن على الصيد أن يطير. وفاته أن العبقرية أقوى من أن تكبل بمثل هذا الزواج المفرض المصطنع.

مع الفنان محمد المقدم

وقد ذاع أمر «الحمولي» بين الجمهور وبحكم طموحه الفني كان لا بد أن يلتمس المزيد من رسالته. فمن هو هذا المعلم الذي يقصد اليه ويستزيد من منهله؟ إن ذلك المعلم هو «مُحَمَّد المقدم» ذلك النجم اللامع في سماء القاهرة غناء وأداء، ولقد أعجب بعبده وشجعه لا على الفن وحده بل وعلى التخلص من المصاهرة المستغلة المتحكمة في كسبه وحياته. فوقعت الفرقة بين الزوج والضحية وتحرر الفنان والتحق بتخت «المقدم وأجاد ما لم يكن يحسنه من الفن المألوف في عصره. وكان لا بد له من تلك الفترة، يستكمل فيها خبرته ويستوعب الموجود في زمنه.

ولكن ما لبث «المقدم» أستاذه الجديد أن أعاد في إستغلال مواهب الفنان الفتى سيرة سلفه. إلا أن ذلك الإستغلال لم يدم له طويلًا، فقد أستيقظ وعي الموسيقار الصغير، وبدأ يتنبه لإستقلال شخصيته والثقة بمقدرته. ولم يمض عليه كبير وقت حتى أصبح له تخته الخاص بآلاته ومنشديه.

بزوغ نجمه

بدأ نجم «الحمولي» يسطع وأخذ صيته ينتشر ويأخذ سبيله إلى الأوساط الثرية وقصور الأعيان وذوي المنزلة، حتى أختصه إسماعيل بمجلسه وصحبته وضمه إلى من حوله. والذي يعنينا من هذه الصحبة هو ذلك الوسط الموسيقي الراقي من الفن التركي الذي تمكن «الحمولي» من الإتصال به سواء في القاهرة أو في الإستانة. لقد كان زعماء الموسيقى التركية وقتذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من إنتاج ومقدرة ومهارة. وقد ساعدت الزعامة الإسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى في كل بلاد الشرق. وكانت مصر أقرب الممالك الشرقية إستعدادًا لقبول ذلك الإنتاج الفني. وكانت موهبة «الحمولي» خير مرآة أعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الأقطار العربية الأخرى. ولم تكن عملية هذه الموهبة تقليدًا ومحاكاة، بل كان الأمر أعظم من ذلك شأنًا. فإن ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الإبتكار وقدرة الإرتجال، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والإبداع.

وكما إستطاعت "جميلة" في صدر عهد بني أمية أن تحفظ الألحان

الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها، وأن تضعها أوضاعًا عربية سليمة تجعلها صاحبة مدرسة ومذهب جديد، فكذلك كان صنيع "الحمولي" مما أستوعبه من الغناء الشرقي عامة والتركي خاصة، حيث أخد بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما أظهر هذا الفن في طابع جديد أخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف إلى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذي يخلق جوًا من المرح والحبور. وقام بتهذيب ألحان التواشيح والقصائد وقدم ألحانا هي مزاج من أذواق متقابلة متلاقية دون إخلال بالطابع العربي والذوق المصري.

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات في مصر محدودة، وكانت الأصوات تجري في مجال ضيق من المقامات لا تتعداه، ويبقى سر اللحن على وتيرة واحدة لوقت طويل في حال تدعو إلى السآمة والملل. فأخذ الحمولي يسلك في تلحينه وغنائه سبيل التلوين والتنويع، وراح يتنقل من مقام إلى مقام ومن نغمة إلى أخرى في سير اللحن. فخرج من جمود الترديد والإطالة إلى فسحة التجديد والإنتقال والتغيير في توافق وإنسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الإعجاب.

لم يكن الغناء المصري يصور المعاني أو يقدر الإرتباط بين الشعر والموسيقى كما ينبغي، فقام «الحمولي» بهذه الرسالة ولعب الدور الهام في إيجاد تفسير وشرح لمعاني الألفاظ بأسلوب أغانيه وحمل النغم مسئولية التعبير والإيضاح. وشعر المستمع بأن عليه أن يتابع المعاني في الأداء الفني

بما لا تستطيع الأداة المجردة أداءه، بل تجاوز ذلك إلى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغناء وتفسر الأداء. وكان ذلك تطلعًا إلى الموسيقى المسرحية التي كان له الفضل في توجيه صديقه الشيخ سلامة حجازي إليها.

قلما عرف أحد في تلك الآونة منطقة صوتية رحيبة الجنبات كالتي تمتع بها الحمولي» بين المغنين. وما أشبه تلاعبه في حنجرته القادرة بأصابع «بجانيني» في حركاتها على الكمان تلك الحركات التي أعجزت عصره وجعلته الفرد المثالي بين أنداده. لشد ما كان يكافح العازفون على تخت عبده في ملاحقته صعودًا وهبوطًا، والسير معه في تعاريج النغمات وإلتواء المقامات، وهو يتسرب من بعضها إلى البعض الآخر في مهارة ودقة وتفوق طالما أعجز الآلات في منطقتها الصوتية المحدودة من ملاحقته والتجاوب معه.

إن تفرد "عبده" في مكانته الموسيقية أتاح له فرصة الإنتاج المركز المتواصل من إبتكار وتصرف وبديهة حاضرة لها مقدرة الإرتجال والتصرف المفاجئ الذي يفوق الإستعداد والتحضير.

ومن طرائف ما يروى في إرتجاله حادثة أشبه بالقصص الخيالي منها بالوقائع. جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف وأعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديدًا للعدد وتفاديًا من الزحام. وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لا يحمل بطاقة. وحدث أن دخل رجال التخت وأستعدوا للحفل، وحضر «عبده» متأخرًا عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لا يعرفه ونشأ بينهما أخذ ورد أحس به الجمهور ومعهم صاحب العرس.

فحملوا الفنان الكبير وأجلسوه مع أصحابه في صدر السرادق. فما أسرع ما أرتجل موالًا» لمس فيه الموضوع، وأستغل الحادثة فأضفى عليها من يراعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء، وخلق منها موضوعًا وجدانيًا جميلًا جديًرا بالتقدير والتحليل، فقال:

ليه حاجب الظرف يمنعني وأنا مدعي

لري روض المحاسن من دما دمعي

كم أفتكر في إحتجابك وأشتكي وأنعي

سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح

قول لي بحق المحبة ما سبب منعي

عبده وألمظ

ولم يكن أحد من المعاصرين يساميه في المنزلة الفنية سوى الفنانة البارعة «ألمظ. كانت تجري معه في منهاجه، وتعزف الصوت على قيثارته، وإن كان لها مدرستها وأسلوبها النسوي في الغناء، وقد بدأت المنافسة بينهما ردحًا من الزمن قليلًا. وسرعان ما هدأت تلك المنافسة لأن باعثها الفن الجميل، ولا يمكن أن يكون الفن مثار حقد أو كراهية، كما قد يحدث في بعض الأحيان من صغار النفوس. بل أستحالت المنافسة إلى تجاوب قلبي أستخدم فيه الغناء على أن يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون إليه. كانت هذه المطارحات في ليالي الأفراح الساهرة التي

يلتقيان بها، وبينهما حجاب مسدول أن منع الرؤيا والمشاهدة فلن يمنع الإستماع إلى الأصوات. كان هو يغني للرجال بينما تختص هي ببنات جنسها. ويتبادلان معا أدوار الغناء على التعاقب، ولكل منهما «المطيباتي» الخاص به. وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وإرتجال، وخلق وإبداع، ثم تشوق وتعلق. وما أسرع ما أصبح المغنيان شاعرين مبدعين يناجي كل منهما الآخر في غنائه بشعر لا يقل في روعته عما كان يصنعه لهما إسماعيل صبري والشيخ علي الليثي والسيد مُحَمَّد الدرويش وغيرهم من أقطاب الشعر.. وقد سمعها «عبده» في إحدى تلك الليالي الساهرة وهي تغني:

يا سيدي أنا أحبك لله وربنا عالم شاهد

لا صبر على أحكام الله لما يبان لي معاك شاهد

خبط الهوى ع الباب، قلت الحليوه أهو جالي

أتاري الهوى كداب يضحك على القلب الخالي

فما كان منه إلا أن غناها إرتجالًا الدور الآتي:

روحـــي وروحـــك حبايـــب مـــن قبـــل دي العـــالم والله

وأهـــــل المـــودة قرايـــب الخ... الخ... الخ...

وبعد أن كانت تضمهما أفراح المتزوجين، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما. وكانت طليعته ليلة فخمة عظيمة أجتمع لها أقطاب الفن إحتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصري يلتقيان في قران سعيد. وإذا قيل

"عبده" و"ألمظ" فالنجوم لهما تبع والفن لإسميهما نشيد. فهذا هو أحمد الليثي كبير العازفين بالعود وإبراهيم سهلون أمير الكمان ومُحَمَّد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من أساطين الفن يحتشدون في ليلة الزفاف. وهذا هو عبده» نفسه يغني لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم في ليلته التي جاد عليه بها الزمن الضنين.

إلا أن زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكنت البلبلة الفريدة وأحتجبت بزواجها عن قبول إقامة حفلات العرس. أما هو فقد أصبح تاجرًا يبيع الأقمشة إلى أجل ويغني متبرعًا بغير أجر. ثم لا تمضي سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود إلى المهنة يسترحمها ويستجدي كفها السمح المعطاء، فتعوض على أبنها البار كثيرًا مما خسر.

ولم تشأ الأقدار لتلك السعادة الزوجية أن تدوم فتوفيت سكينة المشهورة بألمظ زوج عبده الحمولي، قرينته الوفية المضحية. وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة أدبية إشتركت فيها الموسيقى والشعر. وبدا لنا أن الزوج كان وفيًا وأن سعادته بها لم تكن قاصرة على الأيام الأولى، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن عليها، فبدأ يغني بعد وفاتها:

شربت الصبر من بعد التصافي

ومر الحال ما عرفتش أصافي

يغيب النـــــوم وأفكاري توافي

عدمت الوصل يا قلبي على دور

على عيني بعاد الحلو ساعة

ولكن للقضا سمعًا وطاعة

لأن الروح في الدنيا وداعة

عدمت الوصل يا قلبي على

مصائب الفنان

ولم يكن «عبده الحمولي» بمعزل عما أصاب النابغين في كل عصور التاريخ من نكبات وآلام. ولكي يكون واحدًا من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكأس المريرة التي ذاقوا بها الهموم والأكدار. وقد فاز «الحمولي» بنصيب الأسد من ذلك... طارده أبوه صغيرًا، وأستغله المعلم شعبان صبيًا، وأحتكره المقدم فتى، وحاربه زملاؤه بعد ذلك رجلًا وفنانًا، ثم قسى عليه القدر فأفقده " ألمظ" ثم أمعن القدر في قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو في ملابس العرس وأفراح الزفاف. فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغني شاعرًا يصور الكارثة أفدح تصوير لمأساته في ولده محمود فيغني مرتجلًا:

ليــه يا عــين ليــه ليــه يا عــين　　　يا حليوه يا نور العــــــــــــين

كبدي يا ولدي آه يا جميل يا جميل

لمـا رأيـت البـدن داب مـني ودمـع عيـني بعـد أن نشـف مـني

كبدي يا ولدي آه يا جميل يا جميل

ومما غناه في مصابه أيضًا:

زاهـي جمـالك فتـني لمـا بـدأ نـور جبينـك

ونبـل ألحاظـك تجـرح مـن سـهم قـوس حاجبينـك

كبدي يا ولدي

إحسانه إلى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الأول للعصامي الفنان فجعلت منه رجلًا تقيًا متعبدًا يقيم الصلوات لأوقاتها فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان في عهد بني العباس – حيث العصر الذهبي للغناء العربي – من قيام طائفة من الموسيقيين الممتازين الورعين الأخيار الأبرار. إلا أن عبده أمتاز بغناء ليس فيه حرص «الموصلي». فقد كان "الحمولي" ذا كرم وسماحة ومروءة وإيثار، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر. ولا ريب أنه في ذلك أنبل وأشرف من أرباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشون خسارة فيه. أما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومي، ويعطي كل ما في يده للفقراء ولمن أفتقروا بعد غني. جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد في قيمة ألف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين حين ألتجأ إليه. كما ترك إقامة حفل لغني بخيل وذهب فغنى في فرح رجل فقير قدم له الغناء وأنفق تكاليف العرس على حسابه الخاص. ولم تكن هذه وحدها بل لقد أقام

عشرات وعشرات من حفلات غنى بها وجمع فيها النقود لأصحابها، فأغاث فقيرًا بائسًا، أو أعان صديقًا مال به الدهر، حتى لقد جلس إلى جانب بائعة بائسة في الطريق المؤدي إلى شارع شبرا الآن ونادي بسلعتها في صوته الرخيم حتى أمتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلًا على البائعة البائسة، وعادت إلى منزلها وهي من أصحاب الثراء.

ومن خير ما يؤثر عنه إرتفاعه بنفسه وبالموسيقيين ودأبه المتواصل على إعلاء نظرتهم إلى فنهم ونظرة الناس إلى أشخاصهم. من ذلك أن السرأة والأعيان كأن من عادتهم أن يقذفوا بالذهب والجواهر في حفلات الزفاف والأعراس فيسرع الحاضرون إلى إلتقاطها. وهنا تتجلى نزاهة «الحمولي» وعفته وتساميه فيطلب إلى رجال تخته وتابعيه ألا ينحدروا إلى مثل ما يصنعه غيرهم من إلتقاط شيء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شيء.

إبداعه

ولقد أبدع "عبده" ثروة فنية من أدوار ومواليًا وتواشيح وقصائد أخذت منه وحفظت عنه، ثم أصبحت بعد ذلك تراثًا يخلد أسمه ويعلي ذكراه.

ومن أشهر أدواره غير ما قدمناه:

دور مطلعة:

الله يصون دولة حســـنك عـــــــلى الدوام من الزوال

ويصون فؤادي من نبلك ماضي الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه:

مليك الحسن في دولة جماله

ملك عقلي وأفكاري وروحي

ومن تيهه أسر قلبي دلاله

وزاد في محبته وجدي ونوحي

وآخر مطلعه:

يا منيـــــــــــــة الأرواح جـــــد لي بوصـــــلك يـــــوم

العقـــــــــل مــــــــني راح وهجـــــر عيـــــوني النـــــوم

والمــــــدامع مطـــــــــر يا شــــــقيق القمـــــــــــر

والقلـــــــب أنفطـــــــــر وأزداد عـــــــذولى لــــــــوم

وآخر مطلعه:

متـــع حياتـــك بالأحبـــاب أنســــــــــك ظهـــــــــــر

شـأن الطـرب يشـفي الأوصـاب   للـــــــــي حضـــــــــر
وكيـــــد زمانـــك وأهنـــا   وأفـــــــرح وطيـــــــب
وأنفي همـــــــومك بالأكواب   ســـــــــعدك أمـــــــر

وآخر مطلعه:

شربت الراح في روض الأنس صافي

على زهر الغصون وردي وصافي

وهنـــــــاني الزمان والوقت صـــافي

سمح بالوصـــــــل محبـــوبي إلي

المطر يبكي لحالي، والقمر يطلع يكيدني، وعذولي ما ربي لي

أما المقامات التي كان يجري فيها غناؤه لهذه الأدوار وأمثالها فقد كانت في الأهم: الحجاز كار والعجم والنهاوند والراست والبياتي والعراق والسيكاه والعشاق والجهار كاه.

ولقد سمعت الآذان المصرية من «عبده» جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة ألحانها في صوت سحري وألفاظ عربية وروح مصرية وإعجاز بلغ به الغناء غايته والفن الشرقي منتهى مداه.

وسافر "الحمولي" سنة ١٨٩٦ إلى الأستانة عاصمة الشرق يومئذ، فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الإعتراف لها في

شخص فنانها الكبير بما هي جديرة به من مكانة. وعاد «الحمولي» مزودًا بالهدايا، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير.

غروب نجمه

أما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه، فقد آن له أن يحول رويدًا رويدًا إلى الغروب والإحتجاب، وهكذا بدأت الأمراض تفعل به فعلها. وداهم مرض السل صدر ذلك العبقري فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والإقامة بأعالي الصعيد، حتى إذا سنحت بوادر الشفاء عاد إلى حلوان. وبها كانت نهايته في فجر اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ عن ستين عامًا، مثل فيها دور العصامي المؤمن بشخصيته وفنه، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبي بين ذوي المروءات. ولن تنسى الخدمات الإجتماعية في تاريخها ما تبرع به «الحمولي» من إحياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية.

وإنتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر، وتوارى عن الأنظار في بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده، وقفي على أثره من أمثال مُحَمَّد السبع وأحمد حسنين والشيخ أبو العلا مُحَمَّد وكثيرين غيرهم، وسوف تبقى ميراثًا للجيل وتراثًا للأجيال القادمة.

سمعان صيدناوي .. المغامر الشريف

رجل عصامي من الطراز الأول بني بيديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح الممردة المنيفة التي بدل بها الشرق العربي ويزهي ويباهى.

لم يكن سمعان صيدناوي في الرواد الكاشفين الذين يركبون الأخطار ويضربون في مجاهل الأرض مجازفين مغامرين ليعثروا على مناجم الذهب ويعودوا منها ممتلئي الحقائب والوطاب ولا كان من المضاربين في أسواق المال والأوراق ممن يلتمس الغنى والثراء في طرفة عين أو بين عشية وضحاها معتمدًا على حسن الجد والطالع ليختصر الطريق إلى قمم الفوز والنجاح. كذلك لم يكن في العلماء المخترعين الذين يوفقهم الله إلى إختراع نافع تتبناه الصناعة وتجعله في متناول الناس أجمعين وتدر على صاحبه أخلاف الرزق والثراء العريض. ولا هو عثر على حجر الفلاسفة فتمكن به من تحويل المعادن إلى ذهب وهاج.

ما كان سمعان صيدناوي واحدًا من هؤلاء ولكنه كان جميع هؤلاء فالعمل هو الذي كشف له مناجم الذهب، فأغترف منها، والإستقامة هي التي ضارب بها في أسواق التجارة الشريفة الحرة، فغمرته بدفعات الكسب الحلال. أما الذكاء فكان وسيلته إلى التفنن في الإختراع والإبتكار ففتح له مختلف أبواب الرزق وأما الإحسان فكان حجر الفلاسفة الذي قلب النحاس في يديه نضارًا فكلما أمعن في الإحسان زاده الله نعمًا وحول آماله

وأمانيه إلى حقائق ملموسة تتألق على جنباتها أشعة الظفر والفلاح.

نشأته

ولد المترجم له بمدينة دمشق سنة ١٨٥٦ من أسرة طيبة معروفة بحسن السيرة وصفاء السريرة كانت قد نزحت منذ زمن طويل من قرية «صيدنايا» إلى العاصمة وتلقي الصبي سمعان العلم في مدرسة من مدارس دمشق حتى إذا بلغ أشده كان قد ألم بما كان يلم به لداته في ذلك العهد من أطراف العلوم والآداب واللغات.

ها هو ذا فتى في ريعان الشباب قد تزود للحياة بأفضل زاد العصر مكنه منه ذووه غير وانين عن تضحية في هذا السبيل ليعدوه إعدادا حسنًا للجهاد والكفاح في الحياة وليكون لهم السند القوي والعماد المرتجى. وتضاربت الآراء في نوع العمل الذي يزاوله وطال بحث ذويه وتقصيهم وتملكت الفتى حيرة تتملك كل فتى يترك مقاعد الدراسة إلى مدرسة الدهر فهو بين نار الحماسة المتقدة في صدره ونار التلهف إلى عمل يضطلع به ويسير فيه إلى أبعد الغايات.

وتسوق الأقدار الفتى سمعان إلى تاجر من تجار العاصمة واسع الرزق والعمل والتجارة فيجعله في عداد موظفيه ويعهد إليه في عمل كتابي ينهض به على أحسن وجه ثم ينيط به بعد ذلك مختلف الأعباء والأعمال فيتوفر عليها بهمة ونشاط وذكاء وأمانة فلا تنقضي سنوات خمس حتى يكون على حداثة سنه مستشار الرجل وأمين سره وصاحب المنزلة الأثيرة لديه يعتمد

عليه في شؤون تجارته وضبط أعماله والسهر على مصالحه.

وبلغ من إعجاب الرجل بالشاب سمعان ومحبته له وإيثاره إياه أن هم بتزويجه من أبنته على إختلافهما في الدين فخشي أهل الفتى الفتنة، فأوعزوا إلى عم الفتى بالقاهرة أن يدعوه إليه ففعل ولبي سمعان الدعوة وشد رحاله إلى القاهرة تحدوه إليها الأماني الجسام.

الهجرة إلى مصر

مصر... ما أعذب هذا الإسم في أفواه العرب، وما أجمل الآفاق التي تتطلع إليها النفوس كلما رف على الأسماع ذكر مصر أو جال بالخواطر. مصر هي بلد الآمال والأحلام للعربي الذي ينبو به وطنه فيضرب في فجاج الأرض. كانت مصر في عهد المترجم له قبلة الأنظار وكعبة الرواد وكانت الهجرة إلى مصر قد جد جدها فقصدها رجال القلم هربًا من الظلم والإستبداد وسعي إليها المكافحون المجتهدون طلبًا للرزق من مناهل نيلها الفياض وكان من الطبيعي أن يدور ذكر مصر على الألسنة في بلاد الشام بعد إذ أستوطنها نفر غير قليل من الشاميين نعموا فيها بالأمن والدعة والحرية ولقوا فيها ميدانًا واسع المسالك والشعاب لجدهم ونشاطهم فتواترت على الوطن الأول أنباء أبنائه المهاجرين وكلها أنباء حلوة طيبة سارة فما عتمت مصر أن أصبحت الجنة التي يحلم بها الشباب فالسعيد منهم من حقق الدهر له حلمه الجميل وساعده على النزول بواديها الأمين الخصيب.

بمثل هذه الفرحة الشاملة التي تخف لها أحلام الرجال أستقبل الشاب سمعان دعوة عمه فما هي إلا أسابيع قليلة حتى كان مشدوها بعظمة مصر وجمال القاهرة...

نزل سمعان بالقاهرة في سنة ١٨٧٨ وكان عمه نقولا صيدناوي تاجر أصواف في حي الحمزاوي فألحقه بالعمل عنده ولم يفكر ولا فكر الفتى في السعي إلى الالتحاق بوظيفة كتابية في دائرة من دوائر الحكومة أو في شركة من الشركات الكبرى. ولعل البيئة التجارية التي عاش فيها بدمشق وأنتقل إليها في كنف عمه بالقاهرة قد حصرت تفكيره في التجارة وضروب أعمالها وما من شك أيضًا في أن التجارة فن من الفنون لا بد له من إستعداد خاص وموهبة خاصة وإلا كان صاحبه كالقابض على الماء فالعمل الذي لا يعدنا الله له ولا يهبنا ملكته ولا نزاوله بحب وشوق وشغف هيهات أن ننجح فيه ولو بذلنا له وافر القوى وأرسيناه على أضخم القواعد والأركان.

ولا جدال في أن سمعان صيدناوي كان الله قد وهبه ملكة التجارة ويسر له العمل والحياة في بيئة تجارية وحباه نفسًا جادة نشيطة مجتهدة تحب العمل الذي وقفت عليه فكأن الله قد منحه بذلك أول مقومات النجاح.

مائة جنيه

مكث سمعان يعاون عمه في عمله مدة ثلاثة أشهر وأظهر من ضروب النشاط والحذق ما حمل عمه على العناية بمستقبله، فمثل هذه الطاقة من النشاط يجدر بها أن تستغل في عمل مستقل يستفيد منه الفتى ويشيد به

صرح مستقبله فنفح أبن أخيه برأس مال صغير أضيف إلى المبلغ الضئيل الذي كان سمعان قد أدخره من عمله بدمشق ولعل هذا وذاك لم يبلغا مائة جنيه فكانت هذه المائة من الجنيهات رأس مال حانوت صغير في الحمزاوي لا تزيد مساحته عن مترين في مترين أستقل به سمعان وتعاطي فيه تجارة ما نسميه بمصر بـ الخردوات وهي مجموعة من السلع الصغيرة كبكر الخيط والمناديل والقمصان الداخلية والأزرار والشرائط والجوارب والأقمشة الرفيعة المخرمة وما لي ذلك.

وسار الفتى على بركة الله يدير محله الصغير بنشاط لا يعرف الملل وهمة تفتك بالصعاب ومقدرة فذة راضيًا بالربح القليل مقتصدًا في النفقات حتى بدأت بواكير النجاح تبتسم له إبتسامة الخيط الرفيع من النور قبل إنبلاج الفجر

وترامت أخبار سمعان إلى أهله بدمشق فقرت أعينهم وحببت إلى سليم أخيه الأكبر أن يولي وجهه شطر مصر شطر جنة الله في أرضه ليجني من ثمرة كده وفلاحه فها هو ذا شقيقه سمعان لم يحل عليه الحول بمصر حتى إستقامت له تجارة ولو صغيرة يكسب منها رزقه في جو مشبع بالحرية والاستقلال.

الإخوان بالحمزاوي

هبط سليم القاهرة فأخذ كما أخذ شقيقه سمعان من قبل بمعالمها العظيمة ومجال العمل الواسع فيها فطاب له أن يزاول بها الصناعة التي كان

يزاولها بدمشق وهي خياطة الملابس. فأشترك هو وصديق له يدعى متري صالحاني وفتحا دكانًا لخياطة الملابس فقد كان سليم حاذقًا في هذه الصناعة غير أن القدر بعد أن بسم للشريكين قليلًا فجعهما بإحتراق الدكان وذهاب ما فيها طعمة للنار. فطيب سمعان خاطر أخيه ونصحه بهجر صناعة الخياطة وأقترح عليه مشاركته في حانوته فرضي بالإقتراح وأضاف إلى رأس مال الحانوت ما كان قد أدخره من نقود وهكذا أسس محل «سليم وسمعان صيدناوي» في ذلك الحانوت الصغير بحي الحمزاوي.

انقطع الشقيقان إلى عملهما لا تأخذهما فيه ونية ولا هوادة وأفرغا عليه من نشاطهما وجهدهما ما أنتزعا به من يد الدهر قصب السبق والفلاح، فالعمل ولا شيء غير العمل هو شغلهما الشاغل وهو الأنس والبهجة والمراح، فما عرفا طريقًا إلى مقهى يقطعان فيه الوقت بمدى الكسل والتراخي، وإنما عرفا طريقًا واحدة يذرعانها كل يوم بين حانوتهما الصغير وغرفتهما المتواضعة التي يسكنانها في حي درب الجنينة». فكانا إذا أقبل المساء وإنقطعت السابلة سهرًا في دكانهما حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلًا يدبران أمورها وينظمان شؤونها، ويرتبان رفوفها وعلبها ويصفان صررها وبقجها ليستقبلا العملاء في صباح اليوم التالي على خير وجه من الإستعداد والنظام والترتيب. وكانا إذا أويا إلى غرفتهما دارت أحاديثهما على البيع والشراء وعلى حركة الأخذ والعطاء يتفننان في إبتكار الوسائل التي تقودهما في معارج النجاح.

مثابرة وجهاد

ولئن كان الأخ الأكبر لم يعمر طويلًا فإن سمعان قد عمر حتى بلغ الثمانين فما خبا له نشاط حتى في شيخوخته فكان يقبل على العمل في الصباح مع مستخدميه أو قبلهم وينصرف في المساء بعدهم فرجل هذا شأنه وهذا تقديسه للعمل وإنقطاعه إليه ناجح لا محالة في الحياة فالنجاح طائر يقتنص بشرك العمل ولنا بسيرة سمعان صيدناوي الأسوة الحسنة والمثال الحي.

مشي الاخوان بحانوتهما الصغير من نجاح إلى نجاح وكافأهما الدهر على همتهما القعساء وجهادهما المتواصل ولكن العمل لم يكن وحده السهم الذي ضربا به كبد الفلاح والنجاح فهناك عامل آخر كان له نصيب كبير في نجاحهما وهو الإستقامة والصدق في المعاملة وإلتزام الكسب الحلال ليس إلا... وفي حياة سمعان صيدناوي الطويلة أمثلة كثيرة للإستقامة التي كانت عاملًا من عوامل نجاحه وإليك مثلًا واحدًا منها:

كانت نساء البيوتات في عهده لا ينزلن إلى الأسواق مشتريات. وإنما كن ينلن ما يبتغين بوساطة الدلالات وهن نسوة كن يطفن بالدكاكين وينتقين منها الأقمشة والسلع ويعرضنها على ربات البيوت المخدرات فيشترين منهن ما يروق في أعينهن ويحلو.

وفي صباح يوم من الأيام بينما كان سمعان في دكانه الصغير قد أستعد لإستقبال العملاء وافته إحدى الدلالات وإشترت منه عشرين مترًا من

الشبيك المخرم (الدنتلة) ونقدته الثمن وإنصرفت وراجع سمعان مبلغ النقود بعد إنصرافها فإذا هو ضعف ما يقتضي ففطن إلى أن الدلالة حسبت السعر «بالقرش الصاغ» في حين طلب هو السعر بالقرش التعريفة»[٣] فركض خلفها ليفهمها أنها غلطت في الحساب، وليرد إليها فرق الثمن فأدركها على مسافة بعيدة وصاح فيها وهو يلهث:

– حسابك مغلوط يا سيدتي

– لا. لا. لا غلط. دفعت الحساب تامًا كاملًا.

وأصمت أذنيها عن سماع أي شرح وتفسير كان وهمت بمتابعة السير إلى غايتها فأستوقفها وقال:

– دفعت زيادة عن المطلوب. دفعت ضعف الثمن.

فأصاخت إليه وعادت معه أدراجها إلى دكانه، وبين لها مصدر الغلط ونقدها الفرق فتهلل وجهها وشكرته على إستقامته وأمانته وأستودعته الله وإنصرفت تنقل الخبر إلى سيدات الدائرة» من عميلاتها وتروي لهن أمانة «الجدع الشامي الحليوة» وكان سمعان على ما وصفت الدلالة وسامة وقسامة حباه الله جمال الخلق والخلق، فتطاير الخبر من دائرة إلى دائرة ومن بيت إلى بيت، وأصبحت سيدات القصور والبيوتات يوصين الدلالات بإبتياع حاجاتهن من دكان الشاب الشامي الوسيم الأمين.

---

٣ من العادات بمصر إطلاق لفظ القرش الصاغ على القرش الواحد الصحيح ولفظ القرش التعريفة على نصف القرش.

شهرة ونجاح

اتسعت أعمال الأخوين وكثر عملاؤهما وإزدادا همة ونشاطًا وتدفق عليهما الرزق وأصبح لهما في المصرف رصيد يعتد به جمعاه بالجد والإجتهاد والمثابرة ففكرا في الإنتقال بتجارتهما إلى مكان أوسع فأشتريا في حي "الموسكي" منزلًا قديمًا هدماه ثم شيداه تشييدًا جديدًا يفي بالغرض الذي توخياه وإفتتحاه في عام ١٨٩٦ وكان أكبر محل للبيع بالقاهرة في ذلك العهد، وهو الذي كان معروفًا بمحل "بلاتشي" في حي «الموسكي» فنظماه صفوفًا وأجنحة وخصصا كل جناح بضرب من السلع ففتح الله عليهما أبواب الرزق وصارت أمنية كل شار أن يزور أولًا محل سمعان ويبتاع منه ما يهوى ويشتهي.

وطارت شهرة المحل وأصبح لا يعرف إلا بمحل سمعان لأن سمعان كان فيه الركن الركين لا يغيب عنه لحظة واحدة من لحظات النهار ذلك بأن الأخوين كانا قد إقتسما العمل فيما بينهما فأختص سليم وكان إداريًا حازمًا بمهمة الإدارة والشراء وتزويد المحل بالسلع اللازمة يسافر من أجلها إلى أوربا ويشتريها من مواردها الأصيلة، وأختص سمعان وكان لسنًا لبقًا ظريفًا بمهمة إستقبال العملاء والإشراف على صفقات البيع وإرضاء كل عميل فلا يخرج من محله إلا وهو شاكر راض. فكان من حسن إدارة سليم أن سار محلهما سيرًا قويمًا منظمًا. وكان من بعد نظره أن وظف الفائض من أموالهما بشراء الأرضين التي يتوسم لها مستقبلًا زاهرًا، فإشترى كثيرًا من العقار والأرض الفضاء في حي الخازندار وحي إبراهيم باشا وكان من قبل

يعرف بحي نوبار باشا، فإرتفعت قيمة الأرض والعقار على توالي السنين، وجني الإخوان من ذلك الربح الحلال. وكان من إضطلاع سمعان بشؤون البيع والسهر على رضى العملاء أن نمت تجارتهما نموًا مطردًا ودارت كلمة «سمعان» على كل لسان حتى أن النساء المحصنات ما كن يرضين ببضاعة تزجيها إليهن الدلالات إن لم تكن ملفوفة بورق يحمل أسم سمعان.

وازداد الإقبال على محل سمعان فأصبحت رقعة المحل على كبرها وأتساعها لا تفي بإزدياد حركة البيع وإزدحام العملاء فأشتري الإخوان محلًا جديدًا إزاء محلهما الكبير يقع على شارع الخليج المصري وخصصاه ببيع "المفروشات" فدرت عليهما الإستقامة ودر عليهما العمل الحثيث الجزاء الأوفى يهطل عليهما من شآبيب محلهما الكبير ومحلهما الجديد ومحلهما الصغير الأول في حي الحمزاوي.

وينتقل سليم الأخ الأكبر فجأة إلى رحمة الله في سنة ١٩٠٨ فيجزع عليه سمعان جزعًا شديدًا ويفقد فيه شقيقًا غاليًا ونصيرًا ومعاونًا ويأبى أن يستقل بالعمل وحده من بعده فيشرك معه ورثة أخيه.

محلات صيدناوي بالخازندار

وينهض سمعان بالعبء العظيم وتزداد أعماله أتساعًا ويزداد هو جلدًا على الجهاد والكفاح والعمل المتواصل ويرى أن ثقة الناس به تضطره إلى التوسع فيقرر توحيد محاله الثلاثة في محل واحد كبير واسع ولم يجد خيرًا من العقار الذي يملكه في حي الخازندار وكان مجموعة من الدكاكين والمقاهي

فبدأ يهدمها في سنة ١٩١١ ويبني على أنقاضها محله العتيد الكبير حتى فرغ من البناء في سنة ١٩١٣ واحتفل بإفتتاح «محلات سليم وسمعان صيدناوي» في اليوم الثاني من شهر نوفمبر من عام ١٩١٣.

وكان نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه إلياس قد بلغوا في ذلك العهد طور الشباب والرجولة فعهد إليهم في إدارة هذا المحل الكبير وبقي هو حتى آخر لحظة في حياته يضطلع بالعمل كأي فرد من الأفراد حتى توفاه الله عن شيخوخة صالحة في سنة ١٩٣٦ بعد إذ أكتحلت عينه برؤية حانوته الصغير في حي الحمزاوي ينمو وينمو وينمو حتى ينقلب إلى ذلك البناء الواسع الفخم في حي الخازندار وحتى يكون له فروع بالإسكندرية والمنصورة وطنطا والفيوم وأسيوط وبور سعيد وباريس ومنشستر، ويضطلع اليوم بإدارة هذا العمل الواسع أنجاله وأحفاده يتزعمهم نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه إلياس ناهجين جميعًا نهج الأبوين في العمل والإستقامة والذكاء والإحسان.

عناصر النجاح

يعزي نجاح سمعان صيدناوي إلى العمل والإستقامة وهما عنصران رئيسيان من عناصر النجاح ويعزي نجاحه كذلك إلى الذكاء الفطري الذي توجهه الملكة التجارية فالعمل المضنى والإستقامة إذا أجتمع إليهما الذكاء تألف منهما ثالوث كفيل بأن ترسى عليه قواعد النجاح. ولقد كشفنا في نفس سمعان صيدناوي أقنومين من ذلك الثالوث فلنجتزئ في الكشف عن الأقنوم الثالث في نفسه بسرد الواقعتين التاليتين ففيهما الدليل المقنع على

الذكاء المنبعث من الملكة التجارية فيه:

كان سمعان ذات صباح واقفًا على باب محله في حي الموسكي يشيع بإبتسامته الحلوة وتحيته الرقيقة العملاء الخارجين من محله بعدما إبتاعوا منه حاجاتهم فلمح وراءهم سيدة صفر اليدين قد جمعت ملاءتها وهمت بالخروج فأقبل عليها كعادته يسألها لماذا لم تشتر مطلوبها، فقالت له أن الأثمان عندكم غالية، فبكرة الخيط تباع بتسعة مليمات وأنتم تبيعونها بعشرة، فطيب خاطرها وعاد بها إلى جناح بكرة الخيط وقال:

– كم بكرة تريدين يا سيدتي؟

– أربع وعشرون.

فأمر البائع بحسبان سعر البكرة الواحدة بتسعة مليمات فأفترت أسارير المرأة وعلت وجهها قسمات الرضي. وكانت إحدى الدلالات جاءت تبتاع جهاز عروس فإبتدأت ببكر الخيط. وكان الجناح الخاص به في مقدمة المحل ثم ما لبثت أن إبتاعت كل ما تريد فبلغت قائمة الحساب ١٢٠ جنيها ذهبًا نفدته إياها راضية مسرورة، فلولا ذلك المليم الذي نزل عنه لفاته الربح الذي جناه من بيع تلك الصفقة، ولكنها النظرة السديدة وذكاء المهنة...

والواقعة الثانية تتلخص في أن سمعان كان في سنة ١٩٠٨ يصطاف بلبنان فأنتهي إليه أن الشيخ سلامة حجازي قد وفد إلى بيروت على رأس جوقه الشهير فخف سمعان هو ونفر من أصدقائه المصريين إلى بيروت

لسماع الشيخ سلامة، ولكن الشيخ عز عليه أن لا يزيد عدد النظارة على عدد أصابع اليدين فألغي الحفل وأدعي المرض فذهب إليه سمعان وصحابه يعودونه ويستفسرون عن صحته فأخبرهم بخيبة أمله، وبأنه صحيح معافى ولكن يشق عليه بعد النفقات الطائلة التي تجشمها أن يغني ويمثل في حضرة أفراد قلائل لا يملئون مقاعد صف واحد من صفوف القاعة فأخذ رفاق سمعان يواسون الشيخ سلامة ويمنونه بالإقبال في الليالي المقبلات فيجيب الشيخ على هذه الأماني ببسمة صفراء تشتمل كل معاني اليأس والقنوط. وعلى حين فجاة ينتفض سمعان ويقترب من الشيخ وهو يقول:

– يا عزيزي الشيخ

– لبيك يا أخي سمعان

– إن الشعب اللبناني مرح طروب يقدر الغناء ويعشق الصوت الجميل ولكنه لا يتحرك إلا عن ثقة وإقتناع وهذه هي المرة الأولى التي تزور فيها بيروت فأعذره إذا هو لم يعرف من هو الشيخ سلامة حجازي.

فلم يخرج الشيخ عن بسمته الصفراء فأستأنف سمعان حديثه وقال:

– ألم تكن يا عزيزي الشيخ ترتل القرآن وتعلو المآذن قبل أن تعلو المسارح.

– بلى...

– إذن تذهب غدًا وهو يوم جمعة إلى مسجد بيروت وتؤذن الظهر

بصوتك الرخيم فيتساءل عنك الناس حتى يعرفوك ولسوف يقبلون على مسرحك في المساء وأنا كفيل بأنه لن يكون فيه موضع لقدم.

وكان ما قدره سمعان...

ليس الذكاء علمًا بالغيب وإنما هو تقدير صحيح للأمور ونتائجها فمن وهب ملكة من الملكات ساعده الذكاء المنبثق منها على جلاء الغوامض وتدارك العواقب. فالملكة التجارية هي التي أوحت إلى سمعان بذلك الاقتراح فنعم الشيخ سلامة بنتيجته الحسنة. ونحن إن عرفنا عن سمعان صيدناوي هاتين الحادثتين وحكمنا له إستنادًا إليهما بالذكاء فما من شك أن هناك كثيرًا من مثيلاتهما عرضت له في الحياة ووجهه فيها الذكاء وبقيت سرًا مكتومًا توشح بها سر النجاح.

الجزء الثاني

عصاميون من الغرب

توماس أديسون .. العالم العصامي

كان في السابعة من عمره حين دخل المدرسة لأول مرة، في بلدة «بورت هورون» بولاية "متشيجان" الأمريكية، بعد أن أنتقل إليها مع والديه: "صمويل أديسون" و"نانسي إليوت" من قرية «مويلان» الصغيرة بولاية "أوهيو" حيث رزقا به في ١١ من فبراير سنة١٨٤٧.

ولم تزد فترة ألتحاقه بهذه المدرسة على ثلاثة أشهر، ثم لم يدخل بعدها أية مدرسة، فقد صرح معلموه فيها بأنه من الغباء والبلادة بحيث لا يصلح للتعليم، ولم يكن رأى والده فيه خيرًا من رأي معلميه!

على أن والدته وكانت مدرسة سابقة، عز عليها أن يخيب أملها في وحيدها العزيز «توماس» فأخذت على عاتقها مهمة تعليمه في المنزل، وواصلت القيام بهذه المهمة زهاء ثلاث سنوات، أتقن الصبي خلالها القراءة والكتابة، وألم بمبادئ بعض من العلوم والفنون. وقرأ بإشرافها طائفة من الكتب المفيدة أهمها: دائرة المعارف الصغرى» و«قاموس العلوم» للأستاذ «بور» و«تاريخ إنجلترا» للأستاذ «هيوم وكتاب إضمحلال الدولة الرومانية وزوالها» للمؤرخ جيبون. وحاول قراءة كتاب نيوتن» لكنه لم يطق المضي فيه، وكره الرياضيات كلها من ذلك الحين!

وكان هذا نجاحًا عظيمًا لتوماس الصغير ووالدته، غير أن ظروف الأسرة المعيشية، قضت بأن يقف الصبي عند هذا الحد من الدراسة

المنزلية، وبأن يعمل بائعًا للصحف، سعيًا وراء القوت!

وبعد قليل، أنتقل الصبي من بيع الصحف في الشوارع، إلى بيعها في قطارات السكة الحديدية فيما بين "بورت هورن" ومدينة "دترويت" وأتسع نطاق تجارته فصار يبيع للمسافرين – علاوة على الصحف – بعض الكتب، وأكياس الحلوى والفول السوداني وما إليها!

ورغم قلق والدته الدائم وخشيتها على حياته من أخطار الحوادث في عمله اليومي الشاق، كانت حريصة على تشجيعه، وتقوية روحه المعنوية، مع العناية بنظافته ونظافة ملابسه. ولكنه لم يكن يعبأ كثيرًا بمظهره، فيكتفي في أكثر الأحيان بنظافة وجهه ويديه وأقمصته، أما بذلته فلم يكن يبدلها إلا حينما تبلي، وأما حذاؤه فلم يكن تنظيفه يعنيه في قليل ولا كثير.

يصدر مجلة

مضي توماس أديسون في عمله المضني المتواصل، راضيًا به، باذلًا من النشاط ما لا يطيقه إلا أولو العزم من الشباب الأقوياء، مع أنه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره!... وما كاد يمضي فيه سنتين حتى تاقت نفسه الطموح إلى المزيد من النجاح، وهداه ذكاؤه إلى إصدار مجلة صغيرة سماها "ويكلي هيرالد" طولها شبران، وعرضها شبر ونصف شبر، وثمن النسخة منها ستة مليمات، وإشتراكها الشهري ستة عشر مليمًا. فأشتري لذلك بعض الحروف القديمة من مطبعة «ديترويت الحرة» كما أشتري آلة طباعة صغيرة كانت تستعمل لطبع الحسابات في أحد الفنادق، ثم أخذ

يحرر المجلة ويجمع حروفها ويطبعها ويوزعها في القطار. وظهر العدد الأول منها في ٣ من فبراير سنة١٨٦٢ وسرعان ما أجتذبت أخبارها الطريفة إعجاب المسافرين، فبلغ ما كان يوزعه من كل عدد منها ٢٠٠ نسخة، ولم تتم المجلة سنتها الأولى حتى جاوز عدد المشتركين فيها خمسمائة. وبذلك تضاعف إيراد الصبي المجد المبتكر، إذ بلغ ربحه من مجلته وحدها ٤٥ دولارًا في الشهر، وكان بارًا بوالديه فخصص هذا الربح كله لمساعدتهما!

لم يكن الكلل أو الملل يعرف سبيله إلى نفس الصبي توماس، وقد شجعه نجاح مجلته على مضاعفة جهوده الشاقة لبلوغ غايات أبعد، فأنشأ بجانب مطبعته في القطار معملًا صغيرًا جمع فيه بعض آلات التلغراف والأسلاك المختلفة وزجاجات بها بعض المواد الكيمياوية، وأخذ يمضي أوقات فراغه من العمل في إجراء التجارب لإختراع آلة تلغرافية من نوع جديد.

على أن الحظ بدأ يقلب للصبي المجتهد ظهر المجن، فحدث يومًا وهو منهمك في تجاربه أن أشتد إهتزاز القطار أثناء اجتيازه طريقًا وعرًا، فإنقلبت زجاجة الفوسفور وأنسكب ما فيها على أرض العربة فإشتعلت النار فيها. ومع أنه سارع إلى إطفاء الحريق ونجح في ذلك بعد جهد جهيد، لم يسع سائق القطار في شدة غضبه وحنقه إلا أن ينزل به أشد العقاب، فقذف به وبمطبعته وكل أدواته وأمتعته من القطار في أول محطة وقف بها بعد إطفاء الحريق. ولم يكفه ذلك فأهوى بيده الغليظة على وجهه بضربة قوية أليمة، بقي الصبي يعاني آثارها طيلة عمره، إذ أدت إلى فقد أذنه اليسرى قوة

السمع، وذهبت كل محاولاته لعلاجها مع الريح!

مصاعب وعقبات

ولم يفت ذلك الحادث في عضد الصبي فأستأنف إصدار مجلته وتجاربه الكيميائية في غرفة خصصها له والداه بأعلى المنزل. وإستطاع أن يحافظ على ما بلغته المجلة من رواج كما وصل في تجاربه التلغرافية إلى ما يبشر بالنجاح، فمد بين غرفته وبين مساكن بعض زملائه من صبية المدينة أسلاكًا كالتي تستعمل في المواقد، مستعينًا على ذلك بالأشجار القائمة في الطريق، وأستعمل أعناق بعض الزجاجات لتقوم مقام الآلات العازلة. ولكنه قبل أن يتم ذلك المشروع فوجئ بحادث لم يكن في الحسبان، إذ أتفق أن نفرت بقرة لأحد الجيران ذات ليلة، فحطمت إحدى الشجرات التي ربط بها أسلاكه، ثم أخذت تحاول التخلص من الأسلاك التي ألتفت حولها، وتطلق في خلال ذلك خوارًا عاليًا أزعج الجيران جميعًا، فهبوا من مراقدهم ساخطين، وكانت النتيجة أن أتلفوا كل تلك الأسلاك والأدوات التي أعدها لمشروعه الخطير!

وأبى سوء الحظ إلا أن يمتد إلى العمل الصحفي الذي نجح فيه توماس. فقد أشار عليه صديق له أن يصدر صحيفة جديدة بإسم «بول براي» بدلًا من مجلته الأولى، ولم تض على ذلك أسابيع حتى نشر خبرًا خاصًا في صحيفته الجديدة أسخط عليه أحد رجال المدينة، وما كاد يلقاه بعد ذلك حتى أنتقم منه شر إنتقام إذ قذف به في نهر "سان كلير" ولم ينج الصحفي الصبي من الغرق إلا بأعجوبة. وكان هذا الحادث بداية النهاية

لذلك المشروع الصحفي، فأحتجبت «بول براي» فجأة بعد قليل، وعاد توماس يبحث لنفسه عن عمل جديد.

عامل تلغراف

وفق توماس بعد أشهر إلى الإلتحاق بوظيفة عامل تلغراف ليلي في محطة «بورت هورون» بمرتب قدره خمسة وعشرون دولارًا في الشهر. وكان الفضل في إلتحاقه بهذه الوظيفة للمستر ماكنزي ناظر محطة "مونت كليمان" وهي المحطة التي قذف إليها سائق القطار بصاحبنا توماس وأدوات معمله منذ أربع سنوات. فقد تطوع ذلك الناظر لتدريب الصبي على إستعمال آلة التلغراف حتى حذقه، ثم ساعده في الحصول على تلك الوظيفة. وكان في عطفه عليه وإعجابه بجده وطموحه يرد له جميلًا صنعه معه، إذ خاطر بحياته يومًا لينقذ طفله الحبيب من موت محقق تحت عجلات القطار!

وما كاد توماس يطمئن في وظيفته حتى عاوده حنينه إلى تجاربه العلمية، فأعاد إنشاء معمله في مسكنه، وأخذ يمضي أكثر أوقاته عاكفًا على تلك التجارب. وكانت نتيجة هذا الجد أنه فقد عمله الليلي في المحطة، لأن النوم كان يغلبه وهو يؤديه! والتحق بعد ذلك بوظيفة مماثلة في مدينة "سارينا" لكنه فقدها أيضًا بسبب إنشغاله بتجاربه، فضلًا عن أن ذلك كاد يؤدي إلى كارثة إصطدام قطارين!

وفي سنة ١٨٦٤ ، عين توماس أديسون عاملًا للتلغراف بمدينة إنديانا

بوليس» وبلغ مرتبه خمسة وسبعين دولارًا في الشهر، فكان يبعث إلى أسرته بأكثر مرتبه، ويخصص الجانب الأكبر من بقيته لشراء الكتب العلمية والأدوات التي يستعملها في إجراء تجاربه.

عنايته بالتجارب العلمية

وتنقل في وظيفته هذه بين مدن أخرى أهمها سنسناتي، وممفيس، ولويستيل. وعرف في هذه المدن كلها بأنه أسرع عامل في إرسال البرقيات. ولكن رؤساءه كانوا يضيقون بإنكبابه على المطالعة والتجارب العلمية التي يعدونها عبثًا لا فائدة فيه... وهكذا كان لا يكاد يستقر في عمل حتى يضطر إلى تركه والبحث عن عمل آخر في مدينة أخرى. وكثيرًا ما أضطر إلى السفر ماشيًا وهو يحمل كتبه وأدواته وآثار الفاقة ظاهرة في بذلته وحذائه الباليين. ثم لا يكاد يستريح من عناء رحلته الشاقة ويجد العمل المناسب لكفاءته حتى يعود سيرته الأولى!

وحدث يوما وهو في "سنسناتي" أن كاد يقتله أحد رجال البوليس، إذ أرتاب في أمره وحسبه لصًا، نظرًا إلى هيئته الرثة ولسيره في ساعة مبكرة حاملًا رزمة ثقيلة من أعداد مجلة قديمة كان قد إشتراها في مزاد عام. ولما صاح به آمرًا إياه بالوقوف، لم يسمع توماس صيحته بسبب أذنه الصماء وواصل سيره. فأطلق الجندي عليه رصاصة من بندقيته كادت تطيح بأذنه الأخرى وبحياته كلها!

وأخيرًا أنتهي به المطاف إلى أن أضطر إلى العودة لمدينة بورت هورون،

حيث لازم فراش المرض بمنزل والديه، وبقي ثمانية عشر شهرًا يعاني ضعف صحته بجانب آلامه النفسية بسبب فصله من عمله برغم تفوقه فيه، وإمتناع مكاتب التلغراف عن إستخدامه، لا لذنب غير إشتهاره بحب المطالعة وإجراء التجارب الكيميائية أملًا في الوصول إلى إختراع جديد مفيد!

ما كاد توماس أديسون يسترد صحته، حتى أعتزم السفر إلى «بوسطن» لإستكمال أبحاثه الجديدة في الكهرباء هناك. وقد منحته شركة السكة الحديدية «جراند ترنك» تذكرة سفر مجانية، مكافأة له على إقتراح قدمه لها أمكنها بتنفيده إستخدام سلك مائي واحد لإحداث دورتين كهربائيتين فعاد ذلك عليها بربح كبير نتيجة لقلة التكاليف!

أول إختراع له

ووجد عملًا ليليًا في مكتب تلغراف لشركة «وسترن يونيون. وقسم أوقات فراغه بين مطالعة المؤلفات عن الكهرباء وبين إجراء تجاربه فيها بالمعمل الصغير الذي أنشأه في مسكنه. وكان زملاؤه مع إعترافهم ببراعته في عمله لا يكتمون سخريتهم منه لقلة عنايته بمظهره، ولأن إشتغاله بتلك التجارب والمطالعات كان في رأيهم جهدًا ضائعًا لا خير فيه!... لكنهم لم يجدوا بدًا من العدول عن هذا الرأي حين علموا بتسجيله أول إختراع كبير له في سنة١٨٦٩ ، وهو يومئذ في الثانية والعشرين من عمره، وكان ذلك الاختراع آلة كهربائية لتسجيل أصوات الناخبين!

على أن هذا الاختراع لم يفده شيئًا، إذ رفضت الهيئة التشريعية في الولاية إستخدامه. وحدث في ذلك الحين أن دعي إلى إلقاء محاضرة عن التلغراف بإحدى المدارس، وشغلته تجاربه عن تذكر موعد المحاضرة، إلى أن نبهه إليه صديقه «آدامز» في آخر لحظة، وإصطحبه إلى المدرسة وهو ما زال يرتدي ثوب المعمل، وشد ما كان حرجه حين فوجئ بأن أكثر من في قاعة المحاضرات من السيدات والآنسات المتأنقات، لا من الطلبة كما توقع هو وصديقه!

ولم يطق البقاء طويلًا بعد ذلك في بوسطن، ولا سيما أن ديونه أخذت تزداد حتى بلغت نحو ثلاثمائة دولار، فترك عمله فيها، وسافر إلى نيويورك حيث أمضي ثلاثة أسابيع متعطلًا لا يكاد يجد القوت الضروري لبقائه على قيد الحياة!

وفي ذات صباح، توجه إلى مكتب المالي المعروف مستر "لو" صاحب شركة "ريبورتنج" للذهب، ليطلب عملًا يعيش منه، وأتفق أن أغمي في المكتب على الموظف المختص بكتابة أسعار الأسهم، وأدي ذلك إلى تعطل الأعمال في نحو ستمائة بيت من بيوت الأوراق المالية المتعاملة مع المكتب. فأنتهز توماس أديسون هذه الفرصة، وقدم لصاحب الشركة إقتراحًا عمليًا لتلافي مثل ذلك التعطيل في المستقبل، فأعجب هذا باقتراحه، وعينه مديرا لإدارة المكتب بمرتب شهري قدره ثلاثمائة دولار!

٤٠ ألف دولار

أتصل أديسون بعد قليل بالجنرال مارشال مدير شركة «جولد ستوك تلغراف» وأخترع للشركة آلات مختلفة لكتابة أسعار الأسهم وغيرها، وقد وصف هو فيما بعد ما شعر به حين عرض عليه ٤٠ ألف دولار ثمنًا لأحد إختراعاته، فقال: «لم أصدق سمعي أول الأمر، فلما تحققت ذلك كدت أقع مغشيًا علي من شدة المفاجأة!».

وما كاد هذا المبلغ يصل إلى يده حتى أنشأ به مصنعًا لنفسه في «نيو آرك) بمدينة «نيو جرسي». أستخدم فيه نحو ثلاثمائة عامل. ثم توالت مخترعاته التلغرافية، وفي مقدمتها: آلة مزدوجة ترسل بواسطتها على سلك واحد في وقت واحد، رسالتان إلى جهتين مختلفتين. وآلة رباعية ترسل بها في وقت واحد أربع رسائل كل إثنتين منها إلى جهة، وقد أشترهما منه شركة «وسترن يونيون» بثلاثين ألف دولار، أنفقها كلها في سبيل إختراع آلة سداسية، أشترها منه الشركة نفسها، فوفرت باستعمالها ملايين الدولارات.

وفي سنة ١٨٧٣ تزوج توماس أديسون من إحدى العاملات في مصنعه، فأنجبت له أبنته ماري أستل، وولديه توماس ألفا، ووليام لسلي. وبرغم حبه لزوجته وأولاده كان يبذل الجانب الأكبر من وقته وجهده وماله في سبيل تجاربه العلمية، وأعلن أنه بسبيل إختراع آلة تلغرافية تعمل بنفسها، فكان ذلك مدعاة لتهكم الصحف عليه والسخرية منه، على أنه لم يعبأ بشيء من ذلك، ومضي في سبيله حتى حقق تلك المعجزة الكبرى!

ثم أخترع آلة تسجل مائتي كلمة في الدقيقة وترسلها على سلك واحد طوله ٢٥. ميلًا، وأدخل على هذه الآلة تحسينات عدة فصارت تسجل في الدقيقة الواحدة ٣٢٠٠ كلمة!

وفي سبيل تحقيق هذه المعجزة، أضطر العالم المخترع الشاب إلى قراءة أكداس من كتب الكيمياء، جلبها من لندن وباريس ونيويورك، وبقي ستة أسابيع لا يغادر معمله ليل نهار أجري خلالها أكثر من ألفي تجربة، وملأ مجلدًا ضخمًا بملخصات الكتب التي قرأها، وكان يأكل أثناء قراءته، وينام على الكرسي الذي يجلس عليه!

إختراع المصباح الكهربائي والفونغراف والسينما

وفي سنة ١٨٧٨ عكف أديسون على إختراع مصباح كهربائي صغير الحجم محتمل الضوء يمكن إستخدامه بدلًا من مصابيح الغاز، وقضي في تجاربه المتواصلة ثلاثة عشر شهرًا، أنفق في خلالها ما يزيد على مائة ألف ريال، ولكن جهوده كللت بالنجاح فسجل إختراعه لذلك المصباح في يناير سنة ١٨٨٠، وأشرف على إنشاء مصنع في منلو بارك» لصناعة الزجاجات المفرغة من الهواء، ثم توفر على إنشاء محطة لتوليد الكهرباء في نيويورك لمن يريد إستعمال ذلك المصباح!

وقبل ذلك بسنتين سجل أديسون إختراعه آلة لتسجيل الصوت "الفونغراف"، وكانت آلة "الكينمتوسكوب" التي أخترعها بعدئذ تمهيدًا لطريق إختراع السينما!. ثم أخترع آلة للسينما الناطقة لم يقدر لها الرواج

لكثرة تكاليفها. كما أخرج عشرات من المخترعات من بينها: «التاسيمتر لقياس حرارة النجوم، و «الميجافون» لحمل الصوت مسافات شاسعة، و"الأيروفون" لتكبير الصوت إلى مائتي ضعف، و«الميميوجراف» لطبع المذكرات وما إليها، وآلة مغناطيسية لتحليل المعادن. كما سجل عشرين إبتكارًا لتحسين البطارية المشحونة بالكهرباء، فمهد السبيل إلى إبتكار العربات التي تسير الآن بالكهرباء فوق الأرض وتحتها!

زواج أديسون

وفي ذلك العام نفسه تزوج من الآنسة «مينا ميلر» وهي أبنة أحد أرباب الصناعة، ثم أشتري ضيعة على مقربة من معمله، مساحتها ثلاثة عشر فدانًا من حدائق وبساتين، و فيها بيت أنيق مبني بالآجر والخشب. وهناك ولد له أبناؤه الثلاثة مدلين» و«شارلز» و «تيودور» وتوافدت عليه الهدايا في بيته الجديد تبعث إليه من أطراف الأرض، فتماثيل من الرخام المجزع أهداها إليه قيصر روسيا، وأواني يابانية ثمينة أهدتها إليه جمعية المهندسين باليابان، ومحبرة عجيبة أهدتها إليه مصانع كروب الألمانية في صورة مدافع وقنابل مصغرة. وكان من بين هذه الهدايا وسام "البرنس ألبرت"الذهبي قدمته إليه جمعية الفنون في لندن عام ١٨٩٢، كما أهدت إليه فرنسا الطبقات الثلاث من أوسمة «اللجيون دونور». وبعثت إليه جمعية التصوير الشمسي بفرنسا وسامها البرونزي، كما بعثت إليه إيطاليا وسام «التاج الإيطالي». هذا إلى أوسمة شتى جاءت إليه من المعاهد الأمريكية في بوسطن ونيويورك ومن المعارض التي أقيمت في أستراليا والنمسا وإنجلترا وفرنسا وأمريكا.

وفاة أديسون

وتوالت السنوات على أديسون وفترت عنه قوة الشباب، وبلغ من حياته ما لم يبلغه غيره من مخترعات.ثم إنطفأت الشعلة آخر الأمر وخمد نشاطه الدائب في يوم وفاته في الثامن عشر من أكتوبر سنة **١٩٣١**، وكان قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر.

تشارلز ديكنز .. عبقري صنعه الفقر

في كوخ بسيط متواضع بقرية «بورتسي» في ضواحي ميناء "بورتسماوث" الإنجليزي، ولد تشارلز جون هسنام ديكنز» في ٧ فبراير سنة ١٨١٢. وما أتم العام الأول من عمره حتى نقل أبوه الكاتب في البحرية إلى لندن، فأقام بها وأسرته أشهرًا معدودات، ثم نقل مرة أخرى إلى ميناء "تشاتم" وهناك في كوخ بسيط متواضع أيضًا إستقرت الأسرة المؤلفة من الزوجين وولديهما، وكان تشارلز أصغرهما ثم أخذ عدد أفراد الأسرة في التكاثر، بينما بقي دخلها الضئيل على ما كان عليه، فأخذت حالتها تبعًا لذلك تنتقل من سيئ إلى أسوأ، ولا سيما أن عميدها كان بفطرته مسرفًا يميل إلى التأنق والحياة المرحة اللاهية، كما أن ربة الأسرة كانت ساذجة لا تحسن التدبير!

دراسته وشقاء أسرته

وبقي تشارلز حتى بلغ التاسعة من عمره لا يعرف القراءة والكتابة، إذ عجزت أسرته عن إدخاله المدرسة، على أن والده كان يختصه بكثير من رعايته وعنايته، ويصطحبه في رحلاته القصيرة الريفية حيث يزوده بطرائف المعلومات والمشاهدات، ويروي له الكثير من القصص والحكايات المسلية، كما يقوم أمامه أحيانا بتمثيل الأدوار الهزلية التي برع في أدائها... ثم أتيح للصبي أن يبدأ دراسته في مكتب أولي يشرف عليه الأب جيلز قسيس طائفة المعمدين بالقرية، فمكث في هذا المكتب نحو سنتين تعلم فيهما

القراءة والكتابة، وإمتلأ خياله بعشرات من الصور الرائعة عن الشخصيات التي قرأ عنها في مجموعة الكتب والصحف القديمة التي كانت مكدسة في غرفة على سطح ذلك المكتب.

ثم أنتقل الصبي مع أسرته إلى لندن للمرة الثانية، إذ نزح إليها عميدها بعد أن أثقلته الديون، راجيًا أن يجد فيها مخرجًا من الضائقة التي أستحكمت حلقاتها، لضآلة مرتبه وكثرة أولاده!

على أن الشقاء الذي لقيته الأسرة في لندن كان أشد وأقسى، فقد حول عميدها مرتبه إلى دائنيه، وحاولت ربة الأسرة إيجاد حل لأزمتها الطاحنة، فإنتقلت بها إلى مسكن جديد أعتزمت أن تجعل منه مدرسة للفتيات، وأرسلت أبنها تشارلز إلى المنازل القريبة ليوزع الإعلانات التي ضمنتها برامج الدراسة، ولكن الفشل الذريع كان نصيب كل هذه المحاولات، وسرعان ما تبخرت آمال الزوجين، فأوقع الدائنون الحجز على أثاث مسكن الأسرة، وسيق عميدها إلى سجن «المارشالسي» المخصص للمدينين المماطلين. وأنتهي الأمر بتشارلز المسكين إلى أن أضطر وهو في الحادية عشرة من عمره إلى أن يخلد إلى اليأس من إستطاعته مواصلة الدراسة، وأن يتناسى آماله التي طالما راودت خياله وفي مقدمتها أن يصبح مالكًا لقصر «تل كاد» التاريخي الفخم، الذي كان يسترعي أنتباهه ويثير خواطره وأحلامه كلما مر عليه في جولاته الريفية مع أبيه بالقرب من قرية تشاتم!.. وهكذا وجد الصبي نفسه في هذه السن الغضة، يرزح تحت أعباء ثقيلة من الأعمال المنزلية المختلفة، ومن التردد إلى السوق، ورعاية الصغار

من إخوته وأخواته، ومحاسبية الدائنين، وزيارة أبيه في السجن من حين إلى حين!

عمله في مصنع

وقدر للصبي البائس أن يجد عملًا أكثر إستقرارًا وأعظم أجرًا، وإن لم يكن فيه ما يتفق وأحلامه وأمانيه في مواصلة التعليم. وكان عمله الجديد هذا في مصنع متواضع مظلم لإنتاج نوع من الدهان الأسود، كان يملكه قريب لوالدته. فصار يمضي أكثر ساعات النهار في تعبئة ذلك الدهان في الزجاجات المعدة لذلك، ثم يضع كلًا منها في ورق خاص يلفه حولها بإحكام، بعد أن يلصق بها بطاقة بإسم المصنع وعنوانه ونوع الدهان. وقد أستطاع تشارلز أن يحذق عمله ويتقنه، برغم أنه يختلف عن ميوله كل الإختلاف، وبرغم شعوره بالمرارة فضلًا عن التعب لإضطراره إلى ترك الدراسة وإحتراف عمل يدوي حقير، يزامله فيه رفاق غلاظ القلوب والطباع، لاحظ لهم من المعرفة أو حسن الذوق، وفيهم مع ذلك من يتناول ضعف أجره الذي لم يكن يزيد على ستة شلنات في الأسبوع!

ولم تستطع السيدة ديكنز أن تصمد طويلًا للقيام وحدها بحمل أعباء الأسرة المدينة البائسة، وكان مصرحًا لأهل المدينين المسجونين أن يعيشوا معهم في السجن على أن يدفعوا أجر سكنهم فيه، فإنتقلت إلى هناك بأولادها جميعا – ما عدا تشارلز – إذ أتخذ لنفسه مسكنًا خاصًا بالقرب من المصنع الذي يعمل فيه، مكتفيًا بتمضية يوم الأحد من كل أسبوع مع أسرته في السجن!.. ثم أنتقل إلى مسكن آخر أقرب إلى السجن، وبذلك

صار في إستطاعته أن يفطر مع الأسرة في ساعة مبكرة من الصباح، وأن يمضي معها فترة أخرى في المساء بعد فراغه من عمله إلى أن يحين موعد إنصراف الزائرين وغلق أبواب السجن على من فيه!

شعاع من الأمل

وفي ظلام البؤس واليأس الذي ساد حياة أسرة ديكنز، أنبثق فجأة شعاع من الأمل، مصدره ميراث صغير هبط على عميدها من حيث لا يحتسب، فأستطاع أن يسدد الديون التي أدت به وأسرته إلى الإقامة بالسجن، ولكن تشارلز لم يستطع الإستغناء عن عمله في المصنع ليواصل تعليمه إلا بعد أشهر طويلة حين وقع خلاف بين والده وبين صاحب المصنع قريب زوجته. وكانت المدرسة التي أقنع الصبي والده بأن يلحقه بها هي «أكاديمية ولنجتن هاوس» والدراسة فيها تسير طبقًا للطرائق التربوية العتيقة، والمدرس الأول فيها هو ناظرها مستر «جونز» الطاغية الفظ الغليظ القلب، الذي كان لا يكتفي بتوجيه الشتائم المنكرة إلى التلاميذ، بل يكيل لهم اللكمات أحيانًا، ويهوي على ظهورهم أحيانًا بعصا غليظة خاصة أتخذها على هيئة السيف!

وأيًا ما كان الأمر فقد عد «تشارلز» دخوله هذه المدرسة وهو في الرابعة عشرة من عمره أكبر حادث سعيد صادفه في ذلك الحين، وأظهر فيها تفوقًا ملحوظًا في التمثيل وتأليف المسرحيات الفكهة، كما أصدر صحيفة مدرسية، كان يحررها ويوزعها بنفسه، بعد أن يكتب نسخها المعدودة على أوراق ينتزعها من كراساته!

ولكن سعادة الصبي لم تلبث إلا قليلًا، ثم وجد نفسه مرة أخرى مضطرًا إلى ترك الدراسة للبحث عن عمل يعيش منه، لأن أسرته عادت فقيرة كما بدأت، بعد أن نفدت البقية الباقية من الميراث القليل الذي آل إلى أبيه!

كاتب في مكتب محام

وأنف تشارلز من العودة إلى الأعمال اليدوية المهينة لكرامته، وكان قد أتقن القراءة والكتابة وألم بشيء من اللغة اللاتينية، فاستطاع أن يجد لنفسه وظيفة كاتب في مكتب محام بسيط، بمرتب قدره ثلاثة عشر شلنًا وستة بنسات في الأسبوع، ثم رفع مرتبه الأسبوعي إلى خمسة عشر شلنًا مكافأة له على ما أظهر في عمله من نشاط وإخلاص!

وكان أبوه قد بدأ حياة جديدة بعد نفاد المال من يده، فتعلم فن الإختزال، وألتحق بوظيفة كاتب للمحاضر في مجلس النواب... فأعجب تشارلز بهذه الخطة الحازمة الحكيمة التي أختطها أبوه لنفسه، واعتزم إقتفاء أثره في ذلك وسرعان ما أقتني كتابًا قديمًا في فن الإختزال، دفع ثمنًا له كل ما أدخره من مرتبه حتى ذلك الحين، ثم عكف على دراسة هذا الفن في جد ورغبة صادقة حتى بلغ في إتقانه مرتبة لم يبلغها أحد قبله في لندن كلها، وبذلك أستطاع الحصول على وظيفة مختزل في دار قاضي القضاة، ثم عمل محررًا برلمانيًا في بعض الصحف الصغيرة، ولم يمض عليه في هذا العمل بضع سنوات حتى عين محررًا خاصًا في صحيفة «مورنينج كرونيكل» الكبيرة سنة ١٨٣٤ وهو في الثانية والعشرين إذ ذاك، وبلغ مرتبه

الأسبوعي خمسة جنيهات!

فشله في الحب

عرف تشارلز الحب، وذاق حلوه ومره، منذ كان في الثامنة عشرة من عمره. ففي ذلك الحين، ولم يكن بعد قد حصل على وظيفته في البرلمان، تعرف إلى فتاة تدعى «ماريا بيدنل» كان أبوها صاحب مصرف متوسط في لندن. وبادلته الفتاة الإعجاب والحب والتعاهد على الزواج، ولكن أسرتها برغم عطفها عليه لم ترض لأبنتها زوجًا في مثل الحالة التي كان عليها هو من الفقر وضآلة التعليم، وما لبثت قليلا حتى أرسلتها إلى الخارج في بعثة لإتمام دراستها العالية، فلما عادت بعد ذلك، كان إستقبالها إياه فاترًا بل باردًا، ولم تجده شيئًا محاولاته المتكررة لإستعادة مودتها. ثم تزوجت بعد قليل رجل أعمال أسمه «هنري ونتر» فأنقطع بذلك آخر خيط من خيوط الآمال التي تعلق بها العاشق البائس المسكين!

إشتغاله بالقصص

وكان تشارلز قبيل ألتحاقه بصحيفة "مورننج كرونيكل" قد عالج كتابة قصص صغيرة عن الحياة في لندن والريف، ونشر سلسلة منها في إحدى المجلات الشهرية بعد أن شجعه على ذلك نشرها أول قصة بعث بها إليها بتوقيع مستعار. فأتفق مع أصحاب الصحيفة الجديدة على نقل هذه السلسلة إليها، في مقابل أجر إضافي قدره جنيهان في الأسبوع، وبذلك بلغ مرتبه الأسبوعي سبعة جنيهات. وكان إقبال القراء على هذه القصص

كبيرًا جدًا، مما عزز مركز الكاتب الشاب، وما كاد يطبع المجموعة الأولى منها في كتاب مستقل، حتى لقي رواجًا منقطع النظير، جعله يقرر التفرغ للتأليف، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ وهو في الرابعة والعشرين من عمره!

أخذ الناشرون يتسابقون إلى التعاقد مع المؤلف الناجح الشاب «تشارلز ديكنز. وإتفقت معه "هيئة شابمان وهول للنشر في لندن" على إخراج سلسلة من القصص الرياضية الفكهة، وظهر العدد الأول منها بعنوان «مذكرات بكويك» مزينًا برسوم إيضاحية للفنان سيمور». ولكن ذلك العدد لم يلق النجاح المنشود، ثم حدث أن أنتحر الفنان سيمور، فحل محله في أعداد الرسوم للأعداد التالية فنان آخر أقرب أسلوبًا إلى روح ديكنز، هو الفنان هوبلت براون. فأخذ الإقبال يزداد على هذه الأعداد حتى بلغ ما نشر منها ست حلقات. ثم قدم ديكنز لقرائه شخصية «سام ولر» التي أبتكرها فضاعف ذلك من إقبالهم على قصصه، وقفز عدد النسخ المطبوعة من الحلقة الخامسة عشرة إلى أربعين ألف نسخة، بيعت كلها قبل طبعها، في حين أن ما طبع من الحلقة الأولى لم يزد على أربعمائة نسخة، لم يبع إلا حوالي نصفها!

شقاؤه الزوجي

وفي خلال نشر هذه السلسلة، تزوج تشارلز ديكنز بكاترين هوجارت الأبنة الكبرى لأحد أصحاب صحيفة «مورننج كرونيكل» وكانت يومئذ شابة جميلة مثقفة، وجد في حبها له ما لم يجد من ماريا بيدنل التي أحبها لأول مرة قبل ذلك ببضع سنين. وتم هذا الزواج في إبريل سنة ١٨٣٦،

ولكن تشارلز ما لبث قليلًا حتى ضاق بما تبينه في زوجته من ضعف العزيمة وجمود العاطفة، وإن وجد بعض العزاء في شقيقتها «ماري» التي كانت مقيمة معها. غير أن القدر لم يسعده طويلا بهذا العزاء، إذ توفيت ماري إثر مرض مفاجئ في مايو من السنة التالية. وكان ذلك عقب عودة الأسرة من سهرة ممتعة في أحد المسارح!

وبلغ من فرط الحزن الذي شعر به ديكنز لفقد شقيقة زوجته، أنه مكث شهرًا كاملًا لا يستطيع مزاولة عمله، فلم تصدر الحلقة المعتادة من سلسلة "مذكرات بكويك" في ذاك الشهر!

وأزدادت الجفوة بين الزوجين بعد ذلك، برغم كثرة أولادهما، وكان للفتاة «جيورجيتا» الشقيقة الصغرى للزوجة، فضل كبير في تخفيف حدة تلك الجفوة بينهما، وكانت قد إنتقلت إلى منزلهما بعد وفاة ماري، وخلفتها في القيام بمهام تدبير المنزل ورعاية الأولاد.

طريقه إلى النجاح

وفي سنة ١٨٣٨ بدأ نشر السلسلة الثانية من قصص ديكنز، وهي قصة "أوليفر تويست" فرسخت شهرته الأدبية. ثم توالى نشر سلاسل قصصه في الصحف، وفي كتب مستقلة، فأخرج خمس روايات مطولة رائعة، ومجموعات من القصص القصيرة، وكتابًا عن "الثورة على البابوية سنة ١٧٨٠" ثم سلسلة من الأحاديث عرفت باسم «ساعة السيد همفري». لكنه قطع هذه السلسلة وعاد لكتابة القصص المطولة ذات

الموضوع الواحد، فأخرج قصة دكان التحف القديمة التي كانت سببًا لذيوع شهرته في أمريكا أيضًا، وبلغ من أثر الإقبال على حلقاتها هناك أن كانت جموع القراء تقف ساعات في إنتظار وصول السفينة التي تحمل الحلقة الجديدة إلى الميناء!

وتلقي ديكنز على أثر ذلك دعوات إلى زيارة أمريكا، وقام برحلته الأولى إليها في سنة١٨٤٢ حيث أستقبل بأعظم الحفاوة والترحيب، ولكنه لم يجد في مشاهداته هناك ما يطابق الصورة التي تخيلها عن الحياة في العالم الجديد، وصدم شعوره على الأخص ما لاحظه من تفشي الرق هناك، كما سخط على الأساليب التي يتخذها الأمريكيون في حياتهم الخاصة، وكان سخطه أشد على الناشرين هناك لأساليبهم الملتوية وحيلهم العجيبة لسرقة حقوق المؤلفين الإنجليز.

وفي الوقت نفسه نقم عليه الأمريكيون إنتقاده الصريح اللاذع لأخلاقهم وعاداتهم، وأنكر عليه المتزمتون منهم ظهوره في حفل رقص بمدينة بوسطن وهو يرتدي صديريًا من القطيفة الخضراء الزاهية، ورباط عنق قرمزي، وسروالًا أحمر ضاربًا إلى الزرقة، ويضع على صدره مجموعة من الأزهار المختلفة الألوان.

ومهما يكن الأمر، فقد أتم رحلته في أمريكا وبلغ مدينة «سان لويس» في أقصاها غربًا، وبعد أن عاد لإنجلترا أخرج كتابًا عن هذه الرحلة سماه «اللمحات الأمريكية» وضمنه كثيرًا من الإنتقادات اللاذعة للأمريكيين، لكنه برغم ذلك لم يتردد في الرحلة إلى أمريكا مرة ثانية بعد سنوات.

وقد كان لمواطنيه الإنجليز أنفسهم نصيب كبير من إنتقاداته، فقد أخرج في سنة ١٨٤٤ قصته «مارتن شوز لوليت» وضمنها حملة شديدة على بعض العيوب المتأصلة في الإنجليز، وفي مقدمتها الأثرة والنفاق. ولم تلق هذه القصة مثل الرواج الذي لقيته مؤلفاته السابقة، أما لعنف الحملة الإنتقادية التي تضمنتها، وإما لأن حوادثها كانت تنطوي على كثير من التعقيد!

وضاقت به الحياة في إنجلترا بعد ذلك، أو ضاق هو بها، فقام برحلة في أوربا مصطحبًا أسرته، وكان ذلك عقب نشر كتابه «أغنية عيد ميلاد» في سنة١٨٤٣. فزار إيطاليا وفرنسا، وأنتج خلال ذلك كتبًا ورايات عدة، آخرها كتاب دومبي وأبنه» الذي نشره عقب عودته إلى لندن، فجدد ثقة الجمهور فيه وإعجابه بأسلوبه الخاص!

مسرحياته

أتجه ديكنز بعد عودته من رحلته الأوربية الطويلة إلى إشباع هوايته القديمة الأصيلة للمسرح، فتوفر على إعداد مسرحية «بن جونسون» وأشرف على إخراجها وعرضها وأشترك في تمثيلها مع نخبة من أصدقائه أختارهم لذلك. وبذل في ذلك كله جهدًا مضنيًا حطم صحته، ولا سيما بعد توالي عرض تلك التمثيلية في العاصمة والريف.

وفي سنة ١٨٥٠ تولي تحرير صحيفة «ديلي نيوز» وبذل برغم سوء صحته نشاطًا كبيرًا في سبيل العمل بالشعار الذي أتخذه لنفسه وهو

"مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع"... على انه زهد في عمله الجديد بعد بضعة أشهر فأعتزله وتفرغ لإصدار مجلة أسبوعية خاصة به سماها "الكلمات المنزلية" وأستمر في إصدارها ثماني سنين بنجاح كبير، ثم أعاد تنظيمها سنة ١٨٥٩ وأختار لها أسمًا جديدا هو "على مدار العام" ولم يغفل خلال إصداره مجلته هذه في عهديها الأول والثاني عن إنتاج مؤلفاته الأخرى من الكتب والروايات، فأخرج قصة دافيد كوبر فيلد». ثم قصة «المنزل الموحش». فقصة «أوقات عصيبة». وكان في هذه المؤلفات كلها يصور مختلف ألوان الحياة التي درسها وخبرها بنفسه منذ طفولته، كما يصور مختلف الشخصيات التي عرفها وكان لها في حياته أثر ملحوظ، فضلًا عن تصوير حياته الخاصة وتحليل ما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس.

حياته الأخيرة

وفي سنة ١٨٥٨، تم الإتفاق بينه وبين زوجته على أن يفترقا، وذهب أبنهما الأكبر ليعيش مع والدته، بينما عاش بقية الأولاد مع أبيهم وخالتهم جورجيتا، ولم يمض قليل حتى إنتقلوا إلى الإقامة معه بقصر «تل كاد» الذي أشتراه ليحقق حلمه القديم الذي طالما راوده في طفولته البائسة حين كان يسكن مع أبيه وأمه كوخًا متواضعًا بالقرب من ذلك القصر التاريخي العظيم!

وبدا أول الأمر أن ديكنز أخلد إلى حياته الجديدة في هذا القصر، حيث أخذ يكثر من إقامة الحفلات لأصدقائه ومعارفه، ولكنه ما لبث

قليلًا حتى عاوده حنينه القديم إلى التمثيل، فقام بجولات في أنحاء إنجلترا وإسكتلندا، كان خلالها يظهر على المسارح لقراءة فصول من رواياته، فيلقي من الجمهور أشد الإقبال والإعجاب.

وفي خلال هذه الجولات، أخرج رواياته الأخيرة: «قصة مدينتين» و«الآمال العريضة وصديقنا المشترك, ثم زار أمريكا للمرة الثانية سنة ١٨٦٧.

وبعد عودته إلى لندن في سنة ١٨٧٠ بدأ تأليف روايته في تلك السنة بوعكة مفاجئة بعد أن قضي يومه عاكفًا على الكتابة في ركنه المختار بحديقة قصر تل كاد، وأغمي عليه وهو على المائدة، فنفل إلى فراشه، ودعي الأطباء الى إسعافه وعلاجه. ولكنه بقي في غيبوبة حتى أعلنت وفاته في اليوم التالي، فكان لنعيه صدى أليم في إنجلترا وفي مختلف أنحاء أوربا وأمريكا.

الشقيقان رايت .. عاملان حققا معجزة الطيران

في خريف عام ١٩٠٣ ظهر مقال لعالم شهير يثبت إثباتًا قاطعًا أنه يستحيل على البشر أن يحلقوا في الجو. وكان البشر منذ قرون تراودهم الأحلام أن يقلدوا الطير في طيرانه. وحاول كثير من أصحاب العقول الراجحة أن يحلوا هذه المشكلة ولكنهم لم يستطيعوا.

وأنه لمن أعجب الأمور ألا تمضي أشهر ثلاثة بعد ظهور مقالة ذلك العالم حتى يتحقق الحلم الذي كان الناس يرونه مستحيلا. وكان الفضل في تحقيق معجزة الطيران راجعًا إلى إثنين من صانعي الدراجات، هما الشقيقان رايت.

عائلة دينية

شهدت ولاية أوهيو مولد «ولبر واورفيل» رايت. وكان والدهما قسيسا يدعي ملتن رايت» وأمهما «سوزان كويرنر رايت». وقد ولد ولبر في السادس عشر من أبريل عام١٨٦٧ في مزرعة غرب ميلفيل، وأما شقيقه اورفيل، فقد ولد في التاسع عشر من أغسطس عام ١٨٧١ في مدينة دايتون... وكان أبوهما الطيب القلب أحد رجال كنيسة الإخوان المتحدين، مارس التعليم حينًا في كلية هارتسفيلد، ثم قام في عام١٨٦٩ على تحرير جريدة دينية تنشرها هذه الهيئة الدينية في دايتون. ثم أضطرت أسرة رايت إلى الإنتقال من موطنها وحلت في مدينة سيدار رابيدز ، ثم في

رتشمند وهناك كان مهد طفولة الشقيقين ولبر، وأورفيل، فقد نشأ هناك في رفقة أخويهما الكبيرين «ريشلين» و"لورين" وأختهما الصغرى "كاترين"...

وفي شهر يونيه من عام١٨٨٤ عاد الأب ملتون مع أسرته إلى دايتون وأستقروا مرة أخرى في منزلهم الأول وكان لا يزيد على كوخ خشبي به غرف سبع. وهناك واصل ولبر دراسته مستقلًا بنفسه، بعد أن أنتهي من دراسته في رتشموند، وهناك كذلك أستمر اورفيل في دراسته الثانوية.

ولم تمض على هذه الأسرة الوادعة في مسكنها المتواضع إلا بضع سنوات حتى تفرق شملها بموت الأم العزيزة سوزان رايت، ثم ما هو إلا قليل حتى تزوج لورين وريشلين، ونزحا ليؤسس كل منهما لنفسه أسرة. ولكن عري المودة بين آل رايت زادت توثقًا وتماسكًا.

ميكانيكية الحيوان

وكانت لهم في الطابق الأسفل من المنزل مكتبة وكان ولبر، وارفيل، يعكفان فيها على الدرس، إذ كانت تحوي – فيما حوت كتاب التراجم لبلوتارخ وطائفة من القصص والأساطير، وكتاب جيبون عن إنحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ثم تواريخ فرنسا وإنجلترا. وقد جذب أنتباههم أكثر ما جذب كتاب ماريه عن ميكانيكية الحيوان. ثم الموضوعات العلمية في دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف «شامبر» التي إحتوتها المكتبة أيضًا. وكم من مرة قلب الصبيان صفحات هذه الكتب منذ طفولتهم الأولى.

وكان أورفيل رايت خلال سني مراهقته يهتم إهتمامًا بالغًا بالطباعة. فأعد لنفسه مطبعة صغيرة وكان يقوم بأعمال شتى في الطباعة والنشر بمساعدة شقيقه ولبر.

يشتغلان بتجارة الدراجات

وفي سنة ١٨٨٨، شرع «أورفيل» في إستغلال خبرته بالطباعة، فأصدر مجلة أسبوعية صغيرة سماها "أخبار الجانب الغربي" وأستأجر لها مكتبًا خاصًا، ثم شجعه رواجها في عامها الأول، فحولها إلى جريدة يومية بإسم خبر المساء» ولكن هذه الطفرة ما لبثت أن قضت عليها بعد قليل!

ومضت بعد ذلك سنوات، أمضاها الشقيقان في إنتاج بعض المطبوعات، ثم حولا نشاطهما المشترك إلى تجارة الدراجات التي بلغ الإقبال عليها ذروته في ذلك الحين، فأسسا شركة رايت» لصنعها وبيعها فبدأت أعمالها في أواخر سنة ١٨٩٢، وإنتقلت من نجاح إلى نجاح سنة بعد أخرى. ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان لها مبنى فسيح خاص، وغمرت الأسواق بمئات من مختلف أنواع الدراجات، ومن بينها دراجة شعبية تحمل الشعار الخاص بالشركة، ولا يزيد ثمنها على ١٨ دولارًا، وهو يومئذ ثمن زهيد كفل لها الإنتشار في جميع الأنحاء!

دراستهما للطيران

لم يكتف الشقيقان: "ولبر" و"اورفيل" بنجاحهما الباهر في شركة رايت للدراجات. فأنشآ فروعًا لها لإنتاج الإطارات والجرارات والآلات

الكاتبة والحاسبة وغيرها، وقد لازمهما التوفيق والنجاح في كل هذه الأعمال!

على أنهما كانا مولعين بدراسة الطيران، وبدأ ذلك منذ حداثتهما حين أهدي إليهما والدهما لعبة هي نموذج صغير لطائرة، صنعه فرنسي يدعي "بينو"من الخيزران والورق والفلين وخيوط من المطاط. وفي سنة ١٨٩٥، حدث أن أطلعا في إحدى المجلات على مقال عن «طيران الإنزلاق» كتبه ألماني يدعي «أوتو ليلنتال». فكان له أكبر الأثر في نفسيهما، وفي تغيير مجرى حياتهما، إذ عاودهما الحنين إلى هوايتهما المفضلة الأولى. ثم أشتد هذا الحنين حينما علما بعد قليل بمصرع «ليلنتال» المذكور أثناء تجربته طائرة صنعها بنفسه محاولًا الطيران بها. وسرعان ما قررا التفرغ لدراسة الطيران وما طرأ عليه من تحسينات.

وأتصل الشقيقان بالدكتور «لانجلي» مدير معهد سمبثون» في وشنطن ليدلهما على المراجع التي تفيدهما في دراساتهما وأبحاثهما الجديدة، فكتب إليهما في يونية من سنة ١٨٩٩ يوصيهما بالإطلاع على كثير من الكتب والتقارير.

وعكف الشقيقان «رايت» على دراسة كل هذه المراجع وغيرها، ومناقشة ما تضمنته من بيانات وملاحظات ومقترحات، فتبين لهما أن مشكلة الطيران الكبرى تتمثل في ضرورة الوصول إلى طريقة لحفظ توازن الطائرة في الجو، ووجها كل عنايتهما وإهتمامهما إلى البحث والدرس وإجراء مختلف التجارب لإيجاد هذه الطريقة. وفيما كان «أورفيل» يقلب

بين يديه صندوقًا من الورق المقوى لإستخدامه في بعض التجارب، لاحت له فجأة فكرة لإيجاد الطريقة المنشودة. وما شرح هذه الفكرة لشقيقه "ولبر" حتى أقرها، ثم شرعا من فورهما في تنفيذها، فصنعا طائرة طولها خمس أقدام، ووصلا جناحيها بخيوط يمكن بها تحريكهما وتغيير وضعهما بما يتفق مع درجة الضغط الجوي، كما زودا هذه الطائرة بذيل في مؤخرها ليعاون على إرتفاعها. وقد كللت بالنجاح تجربة الطائرة الجديدة بإطلاقها في الجو خارج مدينة دايتون وأمكن حفظ توازنها بتحريك جناحيها بواسطة تلك الخيوط!

أول تجربة للطيران

وفي سنة ١٩٠٠، أتصل «ولبر» بالمهندس "أوكتاف شانوت" صاحب كتاب «تاريخ الطيران الآلي» وكان يعيش في شيكاغو حينذاك، وأجري تجارب عدة في طيران الإنزلاق. وكانت نتيجة هذا الإتصال أن وضع الشقيقان تصميمًا لطائرة زلاقة جديدة، وإختارا لتجربتها منطقة كيتي هوك» على ساحل كارولينا الشمالية، مسترشدين بآراء «شانوت» في هذا الشأن، وبما إنتهت إليه دراستهما لسرعة الرياح وتقلبات الجو. وهناك في هذه البقعة النائية، الخالية إلا من محطتين للإنقاذ والأرصاد الجوية وبضعة أكواخ متناثرة للصيادين، بني الشقيقان معسكرًا متواضعًا، نقلًا إليه كل ما يحتاجان إليه لصنع طائرتهما الجديدة، وشرعا في صنعها في سبتمبر من تلك السنة، فجعلا هيكلها إطارًا كالأضلاع صنعاه من خشب الحور، وغطياه بالتيل الفرنسي الأبيض، وزوداها بجناحين طول كل منهما ١٧,٥ قدمًا

قابلين للتحرك طبقًا لنظريتهما السابقة، كما زوداها بدفة متصلة بمقدمها، وجعلا لها زلاقات في موضع العجلات لتنزلق بها على رمال الشاطئ.

وأسفرت تجربة الطائرة من نجاح طريقتهما المبتكرة لحفظ توازن الطائرة في الجو. وفي صيف سنة ١٩٠١ عادا إلى "كيتي هوك" ومعهما زلاقة جديدة طول كل من جناحيها ٢٢ قدمًا، ووزنها ٩٨ رطلًا، وهي أكبر حجمًا من زلاقة السنة السابقة ومساحة الرفع بها أوسع. وزارهما شانوت» مشجعًا، ونجحت تجاربهما في هذا العام نجاحًا عظيمًا كان الأول من نوعه في طيران الإنزلاق. وقد تبين لهما من هذه التجارب أن طريقتهما المبتكرة لحفظ التوازن يجب أن يؤيدها ذيل عمودي للطائرة، كما تبين لهما وجوب إعادة النظر فيما أعتمدا عليه من نظرية أساطين العلماء المختصين في تصميم الطائرة. وعلى هذا قاما بإعداد جهاز هوائي بأعلى مبنى شركتهما، هو صندوق خشبي مربع طول ضلعه قدم ونصف، سلطا عليه من تحته مروحة آلية، ثم أمضيا الشهرين الأخيرين من تلك السنة في إختبار ما يزيد على مائتين من الأجنحة المختلفة الأشكال والأحجام والأوزان للوقوف على حقيقة مدى تأثر أسطحها المنحنية بضغط الهواء. وكانت النتيجة أن كشفا عن أخطاء عدة في التصميمات السابقة، ووضعا بدلًا منها بيانات دقيقة كل الدقة ما زال العمل يجري على أساسها حتى الآن!

وفي خلال السنتين التاليتين، أجري الشقيقان رايت ما يزيد على ألف تجربة في طيران الإنزلاق، زادا خلالها طول جناح الطائرة عشر أقدام وأضافا إلى دفتها ذيلًا عموديًا طبقًا للحقائق الجديدة التي أنتهيا إليها...

ثم حولا هذا الذيل الى دفة متحركة وسجلا نموذجًا جديدًا على هذا الأساس، فأصبح بذلك سر أتزان الطائرة حقًا محفوظًا لهما.

بدأ الشقيقان بعدئذ خطوة مهمة أخرى هي بناء طائرة تستطيع الارتفاع فوق الأرض والتحليق في الجو، وقام مسبك دايتون بإعداد هذه الطائرة طبقا للتصميم الدقيق الذي أعداه بمساعدة «شارل تيلور». وكانت زنتها حوالي مائتي رطل، وقوتها نحو أثني عشر حصانًا، وقد وفقا إلى تزويدها بمروحة خاصة من إبتكارهما، وبلغ عرض جناحيها أربعين قدمًا، ولكل منها طرف متحرك، ومجموع زنتها براكبها نحو ٧٥٠ رطلًا... ثم عادا إلى «كيتي هوك» لتجربتها هناك، فتمت التجربة في ١٤ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ فتحركت الطائرة وفيها «ولبر» وجرت على خط حديدي أعد لذلك بأعلى تلال كل ديفيل» ثم إرتفعت به في الهواء وحلقت فترة قصيرة لم تزد على ثلاث ثوان ونصف ثانية، ثم هبطت إلى الأرض. وفي اليوم السابع عشر من ذلك الشهر، أعيدت تجربتها، وركبها في هذه المرة الشقيق الثاني "أورفيل" فبقي بها في الجو ١٢ ثانية، برغم سرعة الريح حينذاك إذ كانت لا تقل عن ٢٧ ميلًا في الساعة. وفي التجربة الثالثة أستمر تحليق الطائرة ٥٤ ثانية، وعند هبوطها أصيبت بصدع حال دون طيرانها حتى آخر ذلك العام.

وهكذا حقق الشقيقان لأول مرة معجزة الطيران الآلي، فصار حقيقة واقعة، بعد أن ظل قرونًا وهو لا يزيد على حلم يراود خيال الإنسانية!.. ولكن هذه المعجزة الخالدة لم تجد يومئذ ما تستحقه من الإيمان والتنويه بها،

فلم يصدقها أكثر الناس، وأهملت الصحف شأنها فيما عدا صحيفة واحدة لم تسلم الأنباء التي نشرتها عنها من التحريف!

ولم يثبط ذلك الجحود من عزم الشقيقين العبقريين، وضنا بوقتهما على إضاعته في مجادلة المكذبين والساخرين، وإنصرفا إلى تهذيب الآلة الطائرة التي إخترعاها وإدخال مختلف التحسينات على صنعها بحيث تصبح سهلة القيادة ويتسع نطاق الإنتفاع بها. وما مضت سنة على ذلك حتى إنتهت أبحاثهما وتجاربهما المتواصلة إلى نصر باهر آخر، فإستطاعا أن يحلقا بطائرتهما في الهواء خمس دقائق كاملات، مع التحكم في إتجاهها. ورآها الناس وهي ترتفع في الجو من الأبراج العالية التي أعداها لذلك، ولم يستطيعوا أن يكتموا عجبهم وإعجابهم حين شاهدوها تدور عدة دورات في الفضاء ثم تهبط إلى ميدان التجربة بسلام!

وفي السنة التالية، أدخل الشقيقان على آلتهما تحسينات عدة أخرى، شملت الدفة والمروحة والجناحين، والآلة نفسها... وكان عجب النظارة وإعجابهم أشد حينما حلقت الطائرة في هذه المرة أكثر من نصف ساعة، وقطعت خلال ذلك أكثر من٢٤ ميلًا! ولم يسع الصحف بعد ذلك إلا العدول عن سخريتها بالشقيقين المخترعين، وكانت صحف أوربا ونواديها أكثر إحتفالًا وتكريمًا لهذا الإختراع الجديد المفيد، ولكن لم تعره الصحف الأمريكية إهتمامًا جديًا إلا بعد ظهوره في أمريكا نفسها بثلاث سنوات!

أول تجربة رسمية في أمريكا

أجريت التجربة الرسمية الأولى لطائرة الشقيين رايت» في أمريكا، بمدينة «فورت مير» في ولاية فرجينيا، وركب الطائرة «اورفيل» على مشهد من الجموع الحاشدة التي حرصت على مشاهدة التجربة.وتوالت تجارب طيران الشقيقين، لحساب الجيش الأمريكي، وكان الحد الأقصى لسرعة الطائرة، طبقا للإتفاق أربعين ميلًا في الساعة، ولكنهما وفقا إلى تسجيل زيادة على ذلك الحد، مقدارها ثلاثة أميال!

وفي أكتوبر سنة ١٩٠٩، أنشئت في أمريكا شركة لإنتاج الطائرات جعلت مقرها في نيويورك، وإختارت لإقامة مصانعها مدينة «دايتون» حيث نشأ الشقيقان المخترعان.

وفي الوقت نفسه بدأت الدول الأخرى تزيد في عنايتها بهذه الصناعة الجديدة، فأنشئت شركة مماثلة في فرنسا وألمانيا... ثم في غيرهما من البلاد!

جورج كارفر.. الزنجي النابغ

كان مولده في أمريكا خلال الأيام السوداء للحرب الأهلية التي إجتاحتها في منتصف القرن الماضي، وكان هو نفسه زنجيًا أسود، وبدا حظه يومئذ أشد سوادًا من لونه ومن الظروف التي ولد فيها. فقد خرج إلى الحياة محرومًا من كل شيء..حتى من إسم الأسرة التي ينتمي إليها، فأبوه غير معروف، وأمه «ماري» جارية زنجية مملوكة لصاحب مزرعة صغيرة في قرية «دياموند جريف» في ولاية «ميسوري» يدعى «موسى كارفر»..وهكذا لم يكن هناك بد من الإكتفاء بإختيار إسم «جورج» لكي يعرف به بين من ضم إليهم من العبيد القليلين المملوكين لصاحب المزرعة!

وقبل أن يجاوز مرحلة الطفولة، وقع في أيدي جماعة من تجار الرقيق المنتشرين في تلك الأصقاع حينذاك، وكادوا يذهبون به إلى حيث يبيعونه في مكان آخر، ولكن صاحب المزرعة وزوجته رق قلباهما له، فأنقذاه في آخر لحظة من ذلك المصير المجهول الرهيب..ولم يكلفهما ذلك أكثر من حصان إفتدياه به من النخاسين الذين اختطفوه!

ومنذ ذلك الحين، صار الزنجي الطفل «جورج» موضع عطف خاص لدى سيديه، وما كاد يشبه عن الطوق ويبلغ السن التي تؤهله للعمل في المزرعة مساعدًا لزملائه العبيد الكبار حتى ضن به سيداه الطيبان على العمل المرهق، وإكتفيا بأن عهدا إليه في أعمال سيرة أخرى، كالإشتراك في إطعام الدواجن، وتنقية حديقة المنزل من الحشائش الطفيلية. وعرف

زملاؤه موضعه عند صاحبي المزرعة ودالته عليهما، فتركوه وشأنه، يلهو ويلعب ويمرح في الحديقة المجاورة للمزرعة. وعرف بينهم بهوايته المفضلة حينذاك، وهي التجول في الغابة، والتأمل في أشجارها وأعشابها وصخورها. ثم العكوف بعد عودته على فحص ما جمعه من غرائب الحجارة والنبات، وأطلقوا عليه من أجل ذلك لقب «طبيب الغابة».

ولم يمض قليل حتى أعلن سيداه أنهما أعتقاه، وبذلك تحققت حريته من الوجهة الرسمية. ثم إستمرا في إغداق عطفهما عليه، وعاملاه كأنه ولدهما، وأخذت السيدة «كارفر» في تعليمه القراءة والكتابة، مستعينة على ذلك بكتاب قديم في الهجاء وجدته في المنزل، وكان إقباله شديدًا على التعلم، فما لبث قليلًا حتى وعى ذهنه كل ما في ذلك الكتاب من دروس.

وألح الزنجي الصبي في أن يواصل الدرس، وتردد سيداه القديمان في أول الأمر، إذ لم تكن هناك مدرسة يستطيع الإلتحاق بها إلا مدرسة مدينة «نيوشو» وهي تبعد أميالًا من المزرعة، ثم لم يسعهما إزاء إلحاحه المستمر إلا إجابة رغبته فسمحا له بالتوجه إلى تلك المدينة كي يلتحق بمدرستها. وقد سافر إليها وحده، وبات ليلة في طريقه إليها، مفترشًا كومة من العشب. على أنه سرعان ما نسي كل ما لقيه من تعب وعناء، حينما وصل إلى المدرسة في اليوم التالي، وقدر له أن يقبل وهو الزنجي الأسود في عداد تلاميذها البيض!

لم يكن لونه وحده ما إعترض طريق تعلمه، فقد كان عليه أن يدبر أمر

معيشته في خلال ذلك، لكنه عرف بهمته وطموحه وصبره الجميل كيف يذلل جميع العقبات. وقضى سنة في تلك المدرسة الصغيرة إستوعب خلالها كل ما كانت تمنحه لتلاميذها من الدروس، ولم يحل دون إحرازه هذا التقدم والتفوق على أقرانه البيض فيها، أنه كان يقضي جانبًا كبيرًا من وقته في العمل لكسب رزقه!

وكان في أول الأمر يقوم بأعمال مضنية تافهة في الوقت نفسه، كالخدمة في المنازل ومساعدة الطباخين والغسالين، ثم بدأ يختار لنفسه أعمالًا تتفق ورغبته في الإستزادة من العلم، فكان يعمل في مساعدة الخياطين والنساجين وصانعي السجاد والقائمين بالتطريز والحفر، ومن إليهم. وبذلك أتقن كثيرًا من الصناعات الفنية، بجانب الحصول على نفقات دراسته الأخرى ومعيشته.

وبقي هذا شأنه في البلاد الكثيرة التي رحل إليها وعاش فيها ملتحقًا بمدارسها الإبتدائية والثانوية، إلى أن تركز عمله أخيرًا في إنشاء مغسل خاص به في البلد الذي يقيم به. وإستطاع بحسن سياسته وإتقانه عمله أن يجتذب إلى مغسله كثيرين من العملاء، مما زاد في دخله، وجعل في إستطاعته أن يعيش في سعة من الرزق، إذا هو إتخذ من هذا العمل حرفة له.

غير أن همته العالية أبت عليه أن يقف عند هذا الحد، وآنس من نفسه إستعدادًا للدراسة العليا، فأرسل إلى «جامعة هايلاند» طالبًا الإلتحاق بها، ولم يتردد لحظة في بيع مغسله ليحصل على أجر السفر إليها

حين جاءه الرد بقبول طلبه!

وهناك في مكتب المسجل بهذه الجامعة، فوجيء الطالب الزنجي بإنهيار كل ما شاده من صروح الآمال، إذ تبين أن الجامعة قبلت طلبه من غير أن تفطن إلى أنه زنجي، في حين أنها لا تقبل في كلياتها غير الطلبة البيض!

وكانت هذه الصدمة القاسية جديرة بأن تبعث اليأس إلى قلب الطالب الزنجي الشاب، ولكنه لم يكن يعرف اليأس، لم يكن لونه وحده ما إعترض طريق تعلمه، فتلقى الصدمة بروح قوية عالية، بل حرص على إنقاذ مسجل الجامعة من مأزقه الحرج، فسحب طلب إلتحاقه المقبول بها، ثم إنصرف بعد أن حياه مبتسمًا شاكرًا، مع أنه لم يكن يملك حتى قوت يومه، إذ أنفق كل ما حصل عليه من بيع مغسله في أجر سفره على أمل الإلتحاق بالجامعة!

وفي السنة التالية، سنة ١٨٩٠ أتيح للطالب الزنجي الشاب أن يحقق أمنيته الكبرى، فقبل طلب إلتحاقه بجامعة «سمبسون» الحرة في ولاية «أيووا». ولم يقف توفيقه عند حد قبوله بها برغم زنجيته وإضطراب دراسته السابقة بل شفع له ذكاؤه وحرصه الشديد على التعلم، فسجل إسمه في كلية الآداب، وسمح له في الوقت نفسه بأن يدرس البرامج التي تتفق مع ميوله ومؤهلاته في كلية العلوم!

وفي قسم الفنون بكلية الآداب، وجد جورج كارفر معونة صادقة كبيرة من الآنسة أتابد Etta Budd رئيسة القسم، فأمضى السنوات

الثلاث التي لبثها بالجامعة ملازمًا حلقات دروسها الفنية، حيث أهله إستعداده للتقدم يومًا بعد يوم في ميدان الفن. وإستطاع في سنة ١٨٩٣ عرض مجموعة من لوحاته في معرض شيكاغو الدولي فكانت محل التقدير والتكريم!

وكتب جورج كارفر إلى بعض خلصائه من أهل قريته واصفًا شعوره بالغبطة والفخر لهذا النجاح الذي أحرزه، كما أثنى على أستاذته الآنسة أتابد أجمل الثناء، وقال عن أيامه الأولى بالجامعة: «إنها كانت مليئة بالتعب والشقاء، وقد كدت أهلك جوعًا لعدم الإقبال على المغسل الذي أنشأته لأعيش منه، إذ إنصرف عني الناس لغير سبب سوى لوني الأسود، ولكني لم أيأس، ومضيت في سبيلي صابرًا مثابرًا حتى تبدلت الحال، فأقبل العملاء على مغسلي، وصار الجميع يلقونني بالبشر والترحاب في الجامعة ونادي الموسيقى وملاعب الكرة وغيرها من المنتديات العامة».

وسألته الآنسة أتابد عما يعتزم عمله بعد أن أتم دراسته الفنية، فلم يجد أول الأمر ما يجيب به عن هذا السؤال، ثم ما لبث قليلًا حتى وجد الجواب، وعجب من نفسه كيف غفل عنه في حين أنه كان يفكر فيه ليل نهار..ولم يكن العمل الذي إعتزم القيام به بعد إتمامه دراساته الفنية إلا دراسة العلوم الزراعية والميكانيكية، لكي يستطيع أن يقدم خدمات نافعة لقومه السود!

وهكذا إلتحق جورج كارفر بكلية الزراعة في جامعة أيووا، وكان من حسن طالعه أن توثقت صلاته فيها بالأستاذ جيمس ولسن مدير المحطة

الزراعية، والأستاذ هنري كانتول والاس، أستاذ الزراعة بالكلية، فلقى منهما كل عون وتشجيع وتقدير، وبقيت صلته الوثيقة بهما أكثر من ثلاثين عامًا بعد تخرجه في الكلية وتعيينه مدرسًا بها سنة ١٨٩٤.

لبث جورج كارفر حوالي سنتين مدرسًا في الكلية التي تخرج منها، وقد كان خلالهما موضع الثناء المستطاب من إدارة الجامعة وأساتذتها وطلبتها، لما لمسوه جميعًا من إخلاصه في عمله، وحسن معاملته لهم. وفي خلال السنة الثانية تحققت أمنيته الكبرى إذ كتب إليه معهد توسكيجي Tuskegee يعرض عليه رياسة قسم الزراعة الذي أنشيء فيه. فقبل هذا العرض فورًا. وكان هذا المعهد قد أنشيء حديثًا ليكون مركزًا لتدريب الشبان المثقفين الزنوج وإعدادهم لتعليم أبناء جلدتهم وتثقيفهم.

ولو أن رجلًا آخر غير كارفر عين رئيسًا لذلك القسم، ولما رضى ولما إستطاع البقاء فيه شهرًا واحدًا، ذلك لأن مجموع الطلاب الذين تيسر إلحاقهم بالقسم المذكور لم يكن يزيد على ثلاثة عشر طالبًا، لا يجمع بينهم سوى اللون والرغبة في الدراسة. وهم بعد ذلك مختلفون كل الإختلاف من حيث الاستعداد! ولكنه كان فيما بينه وبين نفسه قد إقتنع بأنه وضع قدمه في أول الطريق الصحيح إلى الغاية التي وهب حياته للعمل على بلوغها. ولم يكن غير الموت شيء يستطيع أن يثنيه عن المضي قدمًا في هذا الطريق.

وسرعان ما أعد كارفر برنامجًا مرنًا للدراسة يلائم طلبة القسم جميعًا، ولم تقف ضآلة الميزانية حائلًا بينه وبين تزويد القسم بعمل بديع مفيد، فلم تمض أسابيع حتى أنشأ هذا المعمل، مستعينًا بما وجده من الأشياء المهملة

في مخازن المعهد والمناطق المجاورة له من قطع السلك والحبال، وألواح الصفيح، والزجاجات القديمة المكسورة والجرائد المهملة وما إليها، ومجموعات من الحشرات المنتشرة في تلك الأصقاع.

وكان يعامل تلاميذه كأنهم إخوته الصغار، فيشعر كل واحد منهم بأنه يختصه بكل رعايته وعطفه، ولا يدخر جهدًا في سبيل تدريبهم على تطبيق ما يزودهم به من علم غزير أو في سبيل الترفيه عنهم لتجديد نشاطهم وتحبيب العمل إليهم. وبذلك كله أخذ عدد الطلاب في القسم يزداد عامًا بعد عام، كما أخذ المعمل في الوقت نفسه ينتقل من حسن إلى أحسن، بفضل جهوده المتواصلة ليل نهار!

وبعد سنوات، رأى كارفر أن عمله في المعهد وحده لا يكفي لبلوغ الغاية التي ينشدها، فأخذ يطوف من حين إلى حين بمناطق الجنوب، حيث يحضر إجتماعات الفلاحين في قراهم النائية وأسواقهم وحقولهم، وهناك يتبسط معهم في الحديث، ويزودهم بإرشاداته ونصائحه الزراعية المفيدة، ويدعوهم إلى زيارة مركز الأبحاث الزراعية الذي أنشأه في المعهد، لكي يقفوا على مزيد من المعلومات النافعة لهم.

وفي هذه الرحلات والزيارات المتعددة، أخذ كارفر يدعو الفلاحين إلى زراعة محصولات أخرى كالبطاطا والفول بدلًا من الإكتفاء بزراعة القطن، مؤكدًا لهم أن تعدد المحصولات المزروعة مما يعود عليهم بفائدة أكبر، وأنه في الوقت ذاته ضروري لضمان التربة وجودتها وقدرتها على الإنتاج.

وكانت دعايته هذه لا تجد قبولًا من الفلاحين الذين يستمعون إليها،

لخروجها على ما ألفوه، ولخشيتهم عواقبه الإقدام على التجديد. ثم شاء القدر أن إستجاب له بعضهم، فزرعوا مساحات صغيرة من أرضهم فولًا بدلًا من القطن، فكان ربحهم من ذلك كبيرًا..وشجعهم هذا كما شجع غيرهم فزادت المساحة المزروعة فولًا في السنة التالية إلى حد كبير، بحيث ضاقت الأسواق عن تصريف محصوله الكثير، وضاعت بذلك جهود زارعيه وأصيبوا بخسارة فادحة بدلت إعجابهم بكارفر سخطًا ونقمة عليه!

وفي سنة ١٩٢١ ألفت في واشنطن لجنة لبحث الوسائل الكفيلة بحماية المحصولات الزراعية، ودنى كارفر إلى إجتماعاتها، حيث قوبل بفتور، ولم يخف أكثر الأعضاء سخريتهم من الزنجي الكهل الطويل الذي دخل عليهم مثقلًا بأحمال من الحقائب والغرارات، وحينما طلب الكلام ليدلل على صحة الفكرة التي يدعو إليها، لم يسمح له بأكثر من عشر دقائق، حتى لا يضيع وقت أعضاء اللجنة الثمين.

ولم يزد كارفر على أن إبتسم شاكرًا للجنة، ثم فتح حقائبه وغراراته، وأخذ يخرج منها نماذج عدة مختلفة مما إستخرجه في معمل المعهد من مشتقات الفول والبطاطا. وقد بلغ عددها ١٤٥ بين دقيق وقهوة ولبن وجبن وطلاء للوجه ومخللات ودهان للشعر، وحبر، وطلاء للبيوت، وغيرها.

وهكذا إضطر أعضاء اللجنة إلى الإصغاء بكل جوارحهم إلى الشرح الذي ألقاه عليهم العالم الزنجي الكهل الطويل، عن كل مستخرج من هذه المشتقات. وإمتد حديثه لا عشر دقائق كما قرروا أول الأمر، بل حوالي ساعتين!

ولم تعد المشكلة بعد ذلك مشكلة إيجاد أسواق للمحصولات الجديدة التي أشار كارفر بزراعتها إلى جوار القطن، بل صارت منذ تلك الساعة في مشكلة العمل على مضاعفة تلك المحصولات للإنتفاع بتلك المشتقات!

واستطاع كارفر بعد ذلك أن يكتشف في معمله كثيرًا من الخواص والمنافع التي كانت مجهولة للمحصولات الزراعية المختلفة، فإستخرج من القطن كتلًا للرصف، ومن قشور البنجر والأعشاب أدوية كثيرة نافعة، كما إستخرج المطاط من القمامة، ومن التربة الطينية في ولاية الباما صنوفًا من الأصباغ ومواد التلوين التي كان لها أكبر الأثر في قيام مصانع كبيرة للطلاء، جمعت ثروة طائلة بفضل ذلك الكشف العظيم!

إستمر كارفر خمسين سنة، يواصل جهوده العلمية المثمرة التي عادت على أمريكا كلها بأكبر الفوائد الزراعية والصناعية.وفي سنة **١٩٤٣** توفي جورج كارفر، بعد أن خلد إسمه في سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية أجل الخدمات. وهناك في رحاب معهد توسكيجي الذي قضى حياته عاملًا فيه يقوم متحف صغير يحمل إسمه العظيم، ويضم مئات المنتجات النافعة التي إكتشف إستخراجها من مواد مهملة تافهة، كما يضم أمثلة للصناعات اليدوية الدقيقة التي كان مولعًا بها. وفي ناحية من المتحف عرضت لوحاته الفنية التي أبدعها وصور فيها أحلامه وأمانيه لخير بلاده وخير البشرية جمعاء. وقد شاء القدر فتحققت في حياته أكثر تلك الأحلام!

الفلاح الذي رأس الولايات المتحدة!

في سنة ١٨١٩م، وصلت إلى محلة «جنتزفيل» في إقليم «أنديانا» شمال غربي أمريكا–أسرة صغيرة مؤلفة من أربعة أفراد، هم: «توماس لنكولن» عميدها الفلاح الأمي الأجير، وزوجته الضعيفة البنية الشاحبة الوجه «نانسي هانكس» وإبنهما «إبراهام» الذي لم يتجاوز السابعة من عمره، وإبنتهما «سارة» التي تصغره بسنتين أو ثلاث سنوات.

وكان واضحًا أن هذه الأسرة المهاجرة من إقليم «كونتكي» البعيدة تعاني بجانب فقرها المدقع أثقالًا أخرى من الجهد والقلق والأعباء ، فقد طال سفرها في القفر الوحش المترامي المخيف الذي قطعته، ولم يكن لها من طعام خلال ذلك السفر الطويل الشاق سوى ما يوفق عميدها إلى صيده من طير أو حيوان!..على إنها برغم ذلك كان عليها أن تواجه ألوانًا أخرى من التعب والعناء، قبل أن تستقر في كوخها الجديد الذي أقامته لنفسها، في اليوم الأول لوصولها، من جذوع الأشجار وفروعها، متخذة من ورقها الجاف فراشًا، ومن بقايا الجذوع والغصون وسائد ومقاعد ومناضد!..ثم بدأ عميد الأسرة منذ اليوم التالي جهاده الجديد في الزراعة وما إليها، ليكفل لها القوت..والإستقرار المنشود في الموطن الجديد!

والدته تعلمه القراءة والكتابة

وهناك في جانب من الكوخ البدائي البسيط، وضع الوالدان كيسًا من

التبن لينام فوقه إبنهما الحبيب «إبراهام» أو «آب» كما كانا يدعوانه من قبيل التدليل، ولم يكن في طاقتهما أن يزوداه عدا ذلك بغير الضروري من الغذاء، أما الغطاء والكساء والحذاء وما إليها، فكان حسبه منها سراويل من جلد الغزال، لا تفارق بدنه ليل نهار. وأما تزويده بالتعليم، فلم يكن هناك مكتب يمكن إرساله إليه كالمكتب الأولي المجاني الذي أمضى فيه شهرين في «كونتكي» قبل أن تغادرها الأسرة، ولكن أمه كانت تعرف القراءة والكتابة، فعز عليها أن يشب أميًا كأبيه، وأخذت على عاتقها أن تعلمه في أوقات فراغها بقدر ما تستطيع!

ولم يكن لدى الأم أي كتاب غير نسخة قديمة من الإنجيل فإستعانت بها على أداء تلك المهمة، وكان لذكاء «آب» ورغبته القوية في التعلم، فضلًا عن فرط تعلقه بوالدته، أكبر الأثر في تيسير مهمتها، فسرعان ما أتقن القراءة والكتابة، ثم أخذ في حفظ ما تيسر من الإنجيل عن ظهر قلب، فما مضت سنتان وأوشك أن يتم العاشرة حتى كان قد حفظ الكثير من آياته، ووعى معانيها وأهدافها، وأصبح لهذا مرموقًا بالإعجاب والتقدير من والديه وجميع عارفيه!

عامل في مزرعة

أبت الأقدار إلا أن تمتحن الصبي الصغير الفقير، بلون جديد من الشقاء والحرمان، فما أتم العاشرة من عمره حتى فجع بوفاة والدته الحبيبة الحنون. ومنذ الشهور التالية، بدأ «آب» جهاده في سبيل العيش عاملًا في المزارع المجاورة لكوخ الأسرة، لقاء أجر زهيد، ولكن شغفه بالقراءة لم يزايله، وأتيح له أن

إستعار كتاب «طواف الحاج» للمؤلف الإنجليزي «بانيان» فقرأه مثنى وثلاث ورباع حتى علق بذاكرته أكثر ما فيه، ثم إستعار كتبًا أخرى وقرأها على هذا النحو، وفي مقدمتها «خرافات أيسو ب» و«روبنسون كروزو».

ووقع في أثناء ذلك حادث كان له أكبر الأثر في تشجيع الصبي على الإستزادة من العلم والمعرفة، فقد تزوج والده، وجاءت الزوجة الجديدة إلى الكوخ، ومعها أطفالها الثلاثة من زوجها الأول، وقطع مختلفة من الأثاث، وشيء غير قليل من الفراش والأدوات المنزلية. وهكذا أتيح له–لأول مرة في حياته– أن ينام في فراش مريح. ووجد من عطف ربة الكوخ الجديد عليه وعلى شقيقته ما ألهج لسانه بالثناء عليها والتحدث بفضلها حتى آخر حياته!

نبوءة عجيبة

ووقعت في يده بعد ذلك نسخة من كتاب «حياة وشنطن» زعيم الثورة الأمريكية، فإستأثرت بإعجابه قصة تلك الثورة وما قام به ذلك الزعيم العظيم من أعمال خالدة، وبدأت الأماني الكبار والأحلام الذهبية بالمستقبل المجيد تثير خياله، وتملك عليه تفكيره. وحدث يومًا أن عنفته جارة للأسرة على إثر مشاجرة بينه وبين ولدها، فقالت له ساخرة:

– ماذا تظن أن ستكون في المستقبل؟

فما كان جوابه إلا أن قال لها على الفور: «أظن أني سأكون رئيسًا للولايات المتحدة!»

وقد أكسبته أعماله اليدوية قوة بدنية كبيرة، ولكنه لم يكتف بذلك فكان يخصص جانبًا من أوقات فراغه القليلة لممارسة الألعاب الرياضية، حتى صار من البارعين المعدودين في القفز والمصارعة وغيرهما!

دراسته للقانون

وحينما بلغ الثامنة عشرة من عمره سنة ١٨٢٧، وجد لنفسه عملًا آخر، بدا له في أول الأمر أسهل وأحسن، وكان هذا العمل الجديد هو القيام بمهمة البيع في متجر بالقرب من القرية، ولكنه ما لبث قليلًا حتى ضاق به فتركه غير آسف عليه. على أن الفترة التي أمضاها في ذلك العمل أفادته من جهة أخرى، إذ قرأ خلالها كتاب «القوانين المعدلة لولاية أنديانا» فإتجه منذ ذلك الحين إلى دراسة القانون، وحرص في الأشهر التالية على قضاء الأيام التي يخلو فيها من العمل في التوجه إلى المحكمة التي كانت تعقد على مسافة خمسة عشر ميلًا من القرية. فكان يقضي هناك أكثر النهار في تتبع القضايا المعروضة، والإستماع لما يدور فيها من المرافعات والمناقشات!

ومن طريف ما يذكر، أنه إستمع هناك يومًا لمرافعة بليغة من المحامي «جون بريكنردج» فأعجب بأسلوبه، وما كاد الحكم يصدر ببراءة موكله المتهم بالقتل، حتى إندفع من بين جموع النظارة ومد إليه يده يريد مصافحته وتهنئته، ولكن ذلك المحامي المشهور لم يلتفت إليه، وإنصرف غير عابىء بالفتى الريفي الفقير المتحمس له!

وفي السنة التالية، أتيح للفتى وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره أن يغادر قريته لأول مرة إلى مدينة «أورليان» إذ إستأجره صاحب سفينة ذاهبة إليها لحراسة ما بها من بضاعة، في مقابل دولارين في الأسبوع عدا الطعام. وقد كان لهذه الرحلة أعمق الأثر في نفس «إبراهام لنكولن» الفلاح الأجير الفقير الطموح، ففي خلالها وقف بنفسه على ألوان الحياة التي يحياها كبراء المدن وأثرباؤها، وشاهد للمرة الأولى أسواق الرقيق حيث يساق بعض الناس في السلاسل والأغلال، وينتقلون بالبيع والشراء من سيد إلى سيد، يفعل بهم ما يشاء، دون أن يكون لهم أي حق في الرفض أو المعارضة وهكذا نبتت في ذهنه فكرته السامية الخالدة التي وقف حياته على الدعاية لها وتنفيذها..فكرة تحرير العبيد!

عودته أجيرًا بالمزارع والمتاجر

لم تطل بعدئذ إقامة أسرة لنكولن بمحلة «جنتزفيل» أكثر من سنتين، فقد رأى «إبراهام» أن ينتقل بالأسرة إلى ولاية «الينوي». وحملتهم جميعًا إلى هناك عربة ريفية كبيرة يجرها أربعة ثيران! قضت أيامًا وليالي في سفر شاق رهيب!

وما حملت الأسرة رحالها في موطنها الجديد حتى أخذ «إبراهام» في إقامة كوخ لها من جذوع الشجر، ومن هذه الجذوع نفسها أقام سياجًا حول قطعة من الأرض البكر، ثم بدأ يستصلحها للزراعة، ويلقن إخوته من أبيه خير الوسائل لبلوغ هذه الغاية. ولما إطمأن إلى قيامهم بزراعة الأرض إستأنف العمل أجيرًا في المزارع المجاورة، مخصصًا الجانب الأكبر من أجره

لمساعدة الأسرة، بل كثيرًا ما كان يختصها بكل ما يحصل عليه من أجر عمله اليوم العادي، ثم يقوم بأعمال إضافية مجهدة لكي يحصل على ما ينفقه في شئونه الخاصة كشراء الملابس والكتب وما إليها. وقد إضطر لكي يحصل على سراويل جديدة في تلك الأيام إلى أن يقوم في أوقات فراغه بقطع ما يزيد على ألف غصن من أغصان الأشجار!

وعلى هذا النحو، قضى أكثر من عام، ثم إتفق معه صاحب مطحن بالمنطقة على أن يتولى إنشاء سفينة نقل لحسابه، ثم الإشراف على أول رحلة لها إلى مدينة «أورليان». فقام «إبراهام» بهاتين المهمتين خير قيام، وبلغ من إعجاب صاحب المطحن بخبرته ونشاطه وأمانته أن عينه مديرًا لمتجر يملكه في «نيوسالم».

زواجه وإشتغاله بالمحاماة

في ذلك الحين، كانت ثورة الهنود الحمر قد بلغت أشدها بزعامة «الصقر الأسود» رئيس قبائل «الساكس». ولم يجد حاكم الولاية بدًا من إعلان الحرب على أولئك الثائرين وفتح باب التطوع للإشتراك فيها. فأجمع المتطوعون من أهل «نيوسالم» على إختيار «إبراهام» قائدًا وزعيمًا ومرشدًا لهم. وكان هو عند حسن الظن به من أولئك المواطنين المتطوعين، فقاد كتيبتهم من نصر إلى نص ، وكانت خططه الحكيمة موضع تقدير الجميع. فلما إنتهت الحملة وعادوا لبلدتهم، ثم بدأت الإنتخابات العامة للمجلس التشريعي، أبوا إلا أن يرشحوه لعضوية المجلس، وكان عدد الناخبين منهم ٢٨٠ فإنتخبه من بينهم ٢٧٧.

وكان رئيس المساحة بالمنطقة في حاجة إلى مساعد فعرض هذه الوظيفة على «إبراهام» وأعطاه كتابًا في المساحة ليدرسه، فحفظه عن ظهر قلب في ستة أسابيع!

على أنه كان قد وطد عزمه على الإشتغال بالمحاماة، فعكف على دراسة كل ما تصل إليه يده من كتب القوانين، وإتفق في ذلك الحين أن إنقطعت أخبار خطيب الآنسة «آن» إبنة المستر «رتلج» صديقه الذي أسكنه بمنزله، وكان هذا الخطيب قد سافر إلى «نيويورك» لقضاء مصلحة له فيها بعد أن حدد موعد الزفاف، ثم أرسل من هناك خطابين، ضمن أحدهما نبأ مرض أبيه، ونعاه في الخطاب الثاني، ثم لم يعد أحد يعرف عنه شيئًا بعد ذلك، إلى أن فات موعد الزفاف. وقد شعر «إبراهام» بالعطف على الفتاة الحسناء إبنة صديقه، وما لبث هذا العطف أن تحول إلى حب قوي، جعله يطلب يدها لنفسه، فرحب والدها بذلك. ولم تكن «آن» أقل رغبة في قبول الخطيب الجديد، ولكنها تمنعت أول الأمر محتجة بأن خطيبها الأول قد يعود فجأة بعد قليل فلما إنقضى عام على إنقطاع أخباره، لم تجد بدًا من إعلان موافقتها على الزواج بإبراهام، ثم كانت له نعم الخطيبة الوفية الملهمة. وسرعان ما أتم دراسة القانون وإستوعب كل المؤلفات فيه، ثم أسعده الحظ في الإنتخابات النيابية التالية، فإنتخب عضوًا في المجلس التشريعي عن الولاية.

مكافحته لتجارة الرقيق

شهدت سنة ١٨٤٦ نصرًا جديدًا لإبراهام لنكولن المحامي القدير،

فقد فاز في إنتخابات «الكونجرس» فوزًا منقطع النظير، وطارت شهرته في السنين الأربع التاليات بوصفه نائبًا جريئًا عقد له لواء الزعامة في معارضة إعلان الحرب على المكسيك، وفي مكافحة تجارة الرقيق ، ولكن جهاده وإنتصاره في سبيل تحرير العبيد لم يلق ما يستحقه من النجاح الكامل المنشود، فإنتهى الأمر في سنة ١٨٥٠ بموافقة المجلس على تسوية غير كاملة، وذلك بإلغاء الرق في كاليفورنيا وكولومبيا، مع إبقاء الحق لصاحب العبد الآبق في إعتقاله وإعادته للرق والعبودية عنده حتى إذا كان في ولاية تحرم تجارة الرقيق!

إنتخابه رئيسًا للولايات

وفي مايو سنة ١٨٦٠ دعي إلى مؤتمر الحزب الجمهوري في «سبرنجفيلد» وكانت الحماسة في إستقباله بحيث لم يستطع بلوغ المنصة إلا بشق النفس. ثم لم تمض على ذلك عشرة أيام حتى أعلن فوزه في ترشيحات المؤتمر الوطني بشيكاغو ضد «وليام سيوارد» ممثل نيويورك في ذلك الحين. وترقب الجميع نتيجة المعركة القادمة لإنتخابات رياسة الجمهورية بين «لنكولن» و«دوجلاس» بصبر نافد، وما أعلن فوز «لنكولن» على خصمه العتيد حتى عمت البلاد موجة من الإضطرابات إنتهت بإعلان العصيان في الولايات الجنوبية.

وقد حرص «لنكولن» عند رحيله من «سبرنجفيلد» إلى «وشنطن» على إبقاء إسمه على لوحة مكتب المحاماة. وكان أشد ما يكربه أن الخزانة العامة خاوية، وأن الحرب الأهلية توشك أن تشب بسبب تمرد الولايات الجنوبية، فأعلن في خطبة إفتتاح المجلس النيابي أن الحكومة لن تهاجم المتمردين في الجنوب إلا إذا بدأوا مهاجمتها، ثم أخذ يكرر الدعوة إلى الإتحاد. ولكن الولايات الجنوبية لم تلبث أن هاجمت قلعة «فورت سومتر» في أبريل سنة ١٨٩١ فبدأ

القتال بين الفريقين من ذلك الحين، وبقي الصراع يشتد، وتزداد الخسائر، في الأرواح والأموال. وكانت إنجلترا تساعد الجنوبيين ضد الحكومة في الشمال حرصًا منها على مصالحها الخاصة عندهم. وكان «ويلي» إبن الرئيس لنكولن أحد الضحايا العديدين في تلك الحرب الضروس، فكانت فجيعته فيه عظيمة، لكنه بقي بعدها يعلن عطفه الشديد على المقاتلين جميعًا من الشماليين والجنوبيين على السواء، لأن هؤلاء وهؤلاء مواطنوه!

وفي سبتمبر سنة ١٨٦٢، أصدر «لنكولن» بيانه الخالد الذي ضمنه قرار تحرير أربعة ملايين من الرقيق، وما أقبل العام التالي حتى إشتد أوار القتال بين الفريقين، ووقف «لنكولن» يخطب الناس قائلًا: «إن هذه الأمة ستشهد مولدًا جديدًا لحريتها، وستكون حكومتها حكومة الشعب وستبقى خالدة أبد الدهر».

وفي العام التالي، أحرزت جيوش الشمال إنتصارات كبيرة وأعيد إنتخاب «لنكولن» رئيسًا للجمهورية، فأعلن في خطبة إفتتاح البرلمان أن الحرب الأهلية يجب أن تنتهي عاجلًا، لكي تبدأ البلاد عهدًا جديدًا سعيدًا من السلام والعدل والرخاء وحسن العلاقات بالشعوب الأخرى.

وفي التاسع من أبريل سنة ١٨٦٥ تحققت آمال لنكولن العظيم، فإنتهت تلك الحرب، وعادت إلى الأمة الأمريكية وحدتها، وزالت معرة الرق عن جبينها.

الناشر العبقري

ولد في ٢٧ يناير سنة ١٧٠٦ بمدينة «بوسطن». وكان الإبن الخامس عشر من سبعة عشر ولدًا رزق بهم أبوه «يوشيا فرانكلين» العامل في صناعة الشمع والصابون، فكان طبيعيًا حين بلغ العاشرة من عمره أن إكتفى والده بتعليمه القراءة والكتابة وألحقه بأحد المصانع ليتدرب فيه على عمل يعيش منه. ولكن الصبي بنيامين كان أكثر طموحًا وأملًا في المستقبل فلم يرض لنفسه أن يكون نجارًا أو حدادًا أو بناء أو صانع أحذية كما أراد له والده، وإقترحت أمه إعداده ليكون قسيسًا، فرضى بذلك حينًا، ثم عزف عن دراسة الدين.

عامل في مطبعة

وحاول أبوه أن يدربه على العمل معه في صنع الشمع، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضًا، وسرعان ما شعر الوالد بأن إبنه الصغير يحاول الهرب من المنزل كما صنع إخوته من قبل، فأعفاه من العمل معه، وأجابه إلى رغبته في تعلم فن الطباعة وكان إبنه الأكبر «جيمس» قد سبق إلى تعلم هذا الفن الجديد وأنشأ لنفسه مطبعة صغيرة، فألحقه بالعمل فيها، وتعهد «جيمس» بأن يجعل من أخيه طابعًا ممتازًا في خلال تسع سنين!

وكان هذا العمل الجديد شاقًا مضنيًا للصبي الصغير، وزاد في شقته أن «جيمس» كان حاد الطبع، شديد الوطأة، لا يكتفي بتدريبه على صف

الحروف وإدارة آلة الطباعة، وتفهيمه دقائق الصناعة وأسرارها، بل يكلفه فوق ذلك كله كثيرًا من الأعمال المرهقة داخل المطبعة وخارجها، ولا يتورع عن ضربه بقسوة إذا لاحظ عليه أي إهمال أو ملال. على أن «بنيامين»، لم يبد برغم ذلك تأففًا أو تبرمًا، بل مضى قدمًا في الطريق التي إختارها لنفسه، ولم يكتف بما لقى من ترقية جزاء مثابرته ودقته وخبرته، فصار يقضي أمسياته في المطالعة للتزود بما يحتاج إليه من مختلف العلوم والفنون والآداب. وساعده ذكاؤه وطموحه فلم يمض إلا قليل حتى أحس في نفسه قدرة على الكتابة في الموضوعات التي كانت تنشر في الصحف الثلاث التي كانت تصدر في أمريكا حينذاك، وفي مقدمتها صحيفة «بريد إنجلترا» التي يصدرها ويشرف على تحريرها أخوه. على أنه خشى ألا يشجعه أخوه على المضي في هذا الطريق خشية أن يلهيه عن الطباعة، فكتب أول مقال له ولم يوقع عليه، ثم وضعه خفية في مكتب أخيه، فلما قرأه هذا أعجب به ونشره في صحيفته وهو يحسب أنه لكاتب كبير!

رحلات لطلب الرزق

ولم تقف همة الطابع الشاب عند حد إجادة الكتابة النثرية، فحاول قرض الشعر أيضًا، وأصاب في ذلك نجاحًا غير قليل. ثم إتفق أن علم أبوه بإتجاه إلى الكتابة فسارع إليه غاضبًا ناصحًا له بالعدول عن هذا الإتجاه. وفي الوقت نفسه أخذ أخوه يزداد شدة في معاملته له، فلم يجد بدًا من النجاة بنفسه من العناء الذي يقاسيه، وغادر المطبعة في ذات ليلة إلى غير رجعة، إذ ترك المدينة كلها وتوجه إلى «نيويورك»، فقد رفضت مطبعتها

الوحيدة إلحاقه بعمل فيها فواصل رحلته قاصدًا إلى «فيلادلفيا»..وكان عليه أن يقطع أكثر الطريق إليها ماشيًا، إذ فرغ ما كان معه من مال قليل. وهكذا لقى من المشقة والعناء ما لا طاقة به لصبي في مثل سنه، وقبض عليه غير مرة في الطريق بإعتباره خادمًا هاربًا، وإجتمعت عليه آلام التعب والجوع وخيبة الرجاء..ثم أتيح له أخيرًا أن يجد سفينة صغيرة متجهة إلى فيلادلفيا، ورضى بحارتها بإصطحابه معهم في مقابل قيامه بالعمل فيها بقية الرحلة!

جوع٠٠وجمال

وفي فيلادلفيا، كانت الصعاب والعقبات التي لقيها الصبي الهارب أدهى وأمر، وقد بقي يذكر يومه الأول فيها حتى آخر حياته. فقد دخلها وحيدًا شريدًا مهلهل الثياب، لا يكاد يقوى على المشي من فرط التعب والجوع، ولم يكن يملك أكثر من ثلاثة بنسات، فإشترى بها ثلاثة أرغفة من أول خباز صادفه، ثم سار على غير هدى في طرقات المدينة وهو يقضم في شراهة أحد الأرغفة الثلاثة بينما الرغيفان الآخران تحت إبطه..وهناك على باب أحد المنازل التي مر عليها يومذاك وقعت عيناه الزائغتان على فتاة حسناء وقفت تبتسم وهي في دهشة من منظره، فلم يزد على أن إبتسم بدوره، ثم إنطلق في سبيله مواصلًا التغلب على جوعه بقضم الرغيف٠٠٠وبعد سبع سنين على ذلك المشهد الطريف..شاءت الأقدار إلا أن تجمع بين ذلك الفتى الشريد وبين تلك الفتاة الحسناء «ديبورا رير» فإذا هما زوجان متحابان سعيدان، يتبادلان التقدير والإخلاص.

يعمل ويتعلم

إتخذ بنيامين فرانكلين شعارًا لنفسه منذ وصل إلى فيلادلفيا، هو أن يعمل ويتعلم..وكثيرًا ما آثر أن يبيت طاويًا، ليشتري كتابًا جديدًا يقرؤه بدلًا من طعام العشاء!

وما بلغ العشرين من عمره حتى بدأ الخطوة الأولى في سبيل نجاحه، فصار صاحب «مجلة فيلادلفيا» وإستطاع أن يجعل لها مكانًا بارزًا بين الصحف التي كانت تصدر بأمريكا في ذلك الحين، بما أدخل على تحريرها من تحسينات ومبتكرات. وسرعان ما إشتد إقبال القراء عليها، لما وجدوا فيها من مقالات بليغة تعالج الموضوعات التي تتصل بحياتهم، وتنشر من الأنباء ما يثير إهتمامهم، بجانب ما إبتدعته من نشر الإعلانات المختلفة مما عد حدثًا جديدًا.

وشجع هذا صاحب المجلة الشاب، فأخذ يستغل خبرته بالطباعة والصحافة في إخراج نشرات وكراسات مطبوعة كانت النواة الأولى للكتب المطبوعة فيما بعد..وفي تلك النشرات والكراسات كان عشاق الحرية من الأمريكيين في عصر الإستعمار يجدون ما يشفي غليلهم ويشبع رغبتهم ويقوي آمالهم من المقالات الجامعة المعالجة لمختلف الشئون السياسية والإجتماعية..وكانوا إلى ذلك يحصلون على هذه النشرات بثمن مقبول.

وما كاد يطمئن إلى نجاح مشروعاته في دار الطبع والصحافة والنشر، حتى ترك الإشراف الإداري عليها لشريك يثق به، وإكتفى هو بالإدارة

الفنية، لكي يقوم بجانب عمله فيها بإشباع رغبته في البحث والدرس وإبتكار ما ينفع المواطنين.

نواة المكتبات العامة

وإستطاع أن يعلم نفسه اللغة الفرنسية ثم الإيطالية والأسبانية واللاتينية..وقرأ روائع الأدب العالمي، وألم بجميع العلوم المعروفة في عصره، كما أتقن العزف على الكمنجة وغيرها من الآلات الوترية، وبرع في لعبة الشطرنج..وصار من أساطين المحدثين.

وبدأ مبتكراته العامة لخدمة مواطنيه، فأنشأ مع بعض زملائه ناديًا يتبادلون فيه الكتب والآراء، إسمه «نادي الجنتو» أو «الفوطة البيضاء». وكان المبدأ الذي وضعه لتبادل الكتب بين الأعضاء نواة لإنشاء المكتبات العامة التي كانت ولا تزال من أهم الوسائل التثقيف الشعوب!

نظام حديث للبوليس

وأنشأ بعد ذلك إتحادًا أهليًا لمكافحة الحريق، وشركة للتأمين ضده، وإقترح على المسئولين عن حفظ الأمن نظامًا جديدًا كان نواة النظام الحديث للبوليس. ثم أنشأ جمعية لدراسة العلوم، ودعا إلى إنشاء مدرسة عالية هي التي صارت فيما بعد «جامعة بنسلفانيا». كما كانت له اليد الطولى في إنشاء المستشفيات العامة لأول مرة في العالم.

وفي سنة ١٧٣٧ تولى فرانكلين إدارة البريد في فيلادلفيا، ثم عين

مديرًا عامًا للبريد في جميع المستعمرات التي كانت تتألف منها أمريكا، فنقل هذا المرفق الهام من الحالة البدائية التي كان عليها إلى العمل طبقًا لنظام دقيق جعله أسرع وأنفع، وفي الوقت نفسه إبتدع فكرة طوابع البريد، ثم نفذها فغطى إيرادها جميع نفقات البريد!

ويعد فرانكلين في أوائل رواد البحث العلمي في الزراعة والصناعة، وقد نجح بالوسائل العلمية التي إستحدثها في إصلاح قطعة كان يملكها من الأرض البور فصارت تنتج أجود الحاصلات، ووضع بحثًا عن حياة النحل ضمنه كثيرًا من الملاحظات الدقيقة والبيانات الوافية، وإستطاع أن يستنبط الكهرباء بوسيلة علمية بسيطة لم تزد على طائرة حريرية وحبل من قنب ومفتاح من حديد.

وكان طبيعيًا أن تتجه همة فرانكلين إلى ميدان الإصلاح السياسي، وإليه يعزى الفضل الأول في وضع أول خطة مشتركة لتوحيد صفوف الأمريكيين وضمهم في إتحاد عام، وحينما إشتد الخلاف بينهم وبين إنجلترا حول رغبتهم في التخلص من إستعمارها، لم يجدوا من هو أصلح منه للتحدث بإسمهم والدفاع عن مطالبهم، فأوفدوه إلى إنجلترا لهذا الغرض، حيث مكث فيها عشر سنين، واصل خلالها العمل لإنجاز مهمته، ثم عاد إلى فيلادلفيا، ليشترك مع قومه في الجهاد إستخلاصها بالحجج والبراهين، وعلى أثر عودته عين عضوًا في المؤتمر الوطني الثاني، وأسندت إليه مهمة المعاونة على تنظيم الجيش والبحرية وتدبير المال اللازم لبدء الجهاد. وكان يومئذ قد بلغ التاسعة والستين من عمره، لكنه تقبل هذه المهمة الشاقة

بإرتياح، وأبدى في سبيل إنجازها همة عالية يحسده عليها أقوى الشبان، وكان له أكبر الفضل في حمل جماعة الكويكر على الإكتتاب في الجهاد!

ولا شك في أن الأعباء التي ألقيت على كاهله في تلك السن المتقدمة والظروف العصيبة قد خفت كثيرًا بعد أن عين «جورج وشنطون» صديقة الحميم قائدًا للجيش، وكان هذا يصغره بستة وعشرين عامًا، وكل منهما مؤمن بصاحبه، ويضع كل ثقته فيه.

وحينما ألفت لجنة إعداد الوثيقة الخاصة بإعلان الإستقلال، أختير فرانكلين لعضويتها، وكان له نصيب كبير في تحرير هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة، ووقع عليها معه: توماس جيفرسون، وجون آدامز، وروجر شيرمان، وروبرت لبفنجستون. ثم عرضت على نواب الأمة فوقعوا عليها جميعًا، بعد أن ألهب فرانكلين حماستهم بقوله لهم:

– إسمعوا أيها السادة..يجب أن يتعلق بعضنا ببعض حتى لا يعلق كل منا على حدة في حبال المشنقة !

أبو الطب الأمريكي

في سنة ١٨٤٥، هبط أمريكا مهاجر شاب، يختلف كثيرًا من حيث الثقافة والهدف عن المهاجرين الذين كانوا يتدفقون عليها من جميع الأنحاء في ذلك الحين، سعيًا وراء العمل والثراء.

كان هذا الفتى – وإسمه «ويليام دبرال مايو»– طبيبًا إنجليزيًا، أتم دراسته ومراته في أكبر المستشفيات بلندن وجلاسجو ومانشستر، وإكتسب خبرة ممتازة في الكيمياء من عمله سنوات مع الكيميائي الكبير «جون والتون». فلم تكن هجرته إلى العالم الجديد للبحث عن عمل، كما أنها لم تكن عن طمع في الغنى أو الشهرة، إذ دل تاريخ حياته فيما بعد على أنه من أشد الناس زهدًا فيهما، وإنما هاجر من إنجلترا ضيقًا وتبرمًا بإزدحامها الذي لا يتفق مع ما في فطرته من حب العزلة والهدوء، وسخطًا على ما كان يسودها من إستعلاء بعض الطبقات على بعض، الأمر الذي لم يكن ينسجم مع تواضعه الجم ورقة طبعه ودماثة خلقه وبغضه الشديد للكبرياء والمتكبرين!

وشاء القدر أن يستقر المقام بالطبيب الشاب في الولايات الغربية، وهي يومئذ لا تعرف من الأطباء غير جماعات من الدجالين الذين لا علم لهم ولا خبرة، وإنما كل همهم أن يغرروا بجماهير المرضى البسطاء لكي يبتزوا أموالهم، ويمتصوا دماءهم، معتمدين على ما يقوموا به لأنفسهم من دعايات كاذبة جوفاء!. وعلى هذا لم يرض لنفسه أن يكون زميلًا لأمثال

هؤلاء الدجالين، وآثر أن يترك لهم ميدان الطب حرصًا على كرامته التي يعتز بها، وضنا بالمهنة التي يجلها ويقدسها على الهبوط بها إلى الدرك الأسفل الذي يعملون فيه. وقضى زهاء ثلاث سنوات متنقلًا بين أعمال أخرى في مدن تلك الولايات وقراها، ثم إنتهى به المطاف إلى مدينة «لافييت» بولاية «إنديانا»..حيث أنشأ مصنعًا لحياكة الملابس، وإستطاع أن يحرز نجاحًا كبيرًا!

ومضت خمس سنوات، غلبه الحنين إلى الطب في نهايتها، فإذا به يضحي بمصنعه الناجح، لكي يدخل جامعة «ميسوري» في سنة **١٨٥٣** حيث حصل منها على درجة طبية جديدة، ثم يرحل ومعه زوجته إلى مقاطعة «مينسوتا» في الجانب الأقصى من الحدود الأمريكية، وهناك قضى بضعة أشهر في الطواف بالقرى البدائية المنعزلة والقفار المحيطة بها، لتفقد أحوال القبائل الهندية القاطنة هناك، ودراسة عاداتها وتقاليدها وكل شيء في حياتها.

وحينما نشبت الحرب الأهلية بعد ذلك، عين الدكتور مايو جراحًا في الجيش الإتحادي، وكان من نصيبه أن أقام طول فترة هذه الحرب بمدينة «روشستر» الصغيرة، ثم حببت إليه الحياة بها بعد إنتهاء الحرب، فإعتزم الإقامة الدائمة بها، وأنشأ لنفسه عيادة في منزل صغير بالشارع الثالث فيها، كما سكن وزوجته في المنزل نفسه، وجعل من إحدى غرف المنزل معملًا يجري فيه ما يعن له من تجارب وأبحاث.

نجح الدكتور مايو نجاحًا عظيمًا في عيادته الخاصة، وكان لمعرفته

السابقة بأهل المنطقة وحسن معاملته إياهم أثر كبير في هذا النجاح. على أن الجانب الأكبر من نجاحه يرجع ولا شك إلى عاملين مهمين آخرين: أحدهما إخلاصه وتفانيه في حب مهنته، والآخر حبه لأهل تلك المنطقة ورغبته الصادقة القوية في خدمتهم بخاصة وخدمة الأمريكيين مواطنيه الجدد بعامة!

وهكذا قسم الطبيب الشاب وقته بين العمل في عيادته ومعمله وبين المشاركة في النشاط الإجتماعي والسياسي في المنطقة والولاية كلها، ولم يكف مع هذا كله عن الإستزادة من معلوماته، بالمطالعة المنظمة، والقيام برحلات إستطلاعية في المناطق المجاورة، وفي الولايات الشرقية للمدارسة والمباحثة مع كبار الأطباء فيها.

ولم يمض قليل حتى لمع إسمه وبرزت شخصيته وصار موضع الحب والإجلال من الجميع، ولاسيما بعد أن تعددت الخدمات العامة التي قدمها للأهلين، كإبتكاره نظامًا للصحة العامة في المدينة، وسعيه في سبيل إنشاء مكتبة عامة بها، وفي سبيل توسيع مدرستها، فضلًا عن دعوته كثيرين من العلماء والأطباء الذين عرفهم في الولايات الشرقية وغيرها إلى زيارة المدينة وإلقاء محاضرات عامة بها.

وقد رزق بوسلدين: أولهما «وليم» الذي ولد في سنة ١٨٦١، والثاني «شارلي» الذي ولد في سنة ١٨٦٥، وكان طبيعيًا أن نشأ ولداه على حب مهنة الطب، والرغبة في أن يكونا طبيبين مثله. ولم يدخر هو جهدًا في تقوية هذه الرغبة وتنميتها، فكان يصطحبهما منذ طفولتهما إلى عيادته، وإلى

جولاته في المزارع القريبة حيث يشاهدان في إغتباط ما يقوم به من الفحص والعلاج. وما كادا يشبان عن الطوق حتى كان كل منهما يعرف الكثير من أسرار المهنة ويعرف جميع الأجهزة والأدوات التي يستعملها أبوه في العيادة والمعمل، لكثرة ما شاهداها، وساعدا والدهما في إستعماله إياها!

وواصل الطبيب العالم جهوده الطبية في سبيل إعداد ولديه ومعاونتهما على التفوق في دراساتهما الجامعية والشخصية، وما تخرجا في سنة ١٨٨٣ حتى عادا إلى «روشستر» حيث إستأنفا العمل مع والدهما، لا مساعدين في هذه المرة بل طبيبين أصيلين، وسرعان ما أحرزا ثقة الأهلين.

كانت سنة ١٨٨٣ بداية تحول في تاريخ آل مايو، ففي هذه السنة التي بدأ فيها العمل المشترك للأطباء الثلاثة، الوالد وولديه، هبت عاصفة شديدة في اليوم الحادي والعشرين من شهر أغسطس، أتت في دقائق معدودات على جانب كبير من المدينة الصغيرة التي يعملون فيها، وكان ضحايا هذه الكارثة كثيرين جدًا، فشمر الأطباء الثلاثة عن سواعدهم وأخذوا يواصلون العمل لإسعاف الجرحى وعلاجهم في مستشفى مؤقت إتخذوه لذلك في قاعة للرقص بأحد المنازل التي تشملها كارثة العاصفة الهوجاء. وواجهتهم مشكلة كبرى هي مشكلة تمريض ذلك العدد الكبير من المصابين، ولكنهم سرعان ما تغلبوا على هذه المشكلة إذ إستطاعوا إقناع رئيسة دير القديس فرنسيس، القائم على مقربة من المدينة، بأن تمدهم بطائفة من راهبات الدير، ليقمن بمهمة التمريض!

ومضت أشهر، والعمل يجري بنجاح في المستشفى المؤقت الذي أقامه

آل مايو، ولم يكن إعجاب الناس بالتضامن التام بين الأطباء الثلاثة البروتستانيين وبين أولئك الممرضات من الراهبات الكاثوليكيات بأقل من إعجابهم بالهمة الصادقة التي بذلت في المستشفى وكان لها كل الفضل في تخفيف آثار النكبة الفادحة التي نزلت بالمنطقة، من جراء تلك العاصفة القاصفة!

وعرضت رئيسة الدير على آل مايو إستعدادها للإشتراك معهم في إنشاء مستشفى دائم في المدينة بإسم القديسة ماري، ليعالجوا فيه المرضى والجرحى من أهل المنطقة جميعًا بلا تفريق بين أديانهم وألوانهم وحالاتهم المالية، وتم الإتفاق على ذلك أخيرًا، وإستغرق إعداد المستشفى الجديد سنوات، تناوب الأطباء الثلاثة خلالها القيام برحلات لزيارة المعاهد والمستشفيات الكبيرة في الولايات الشرقية، للبحث و الدرس وإقتباس أحدث النظم وأحسنها.

وبدأ العمل في مستشفى القديسة ماري سنة ١٨٨٩، وأقبل المرضى عليه من أنحاء المنطقة وما يجاورها، ولم تمض سنتان حتى كان إسم «مايو» يتردد في جميع أنحاء أمريكا مشفوعًا بأكبر الإجلال والإعجاب، وبدأ الأطباء أنفسهم في الولايات الأخرى يبعثون إلى المستشفى بالمرضى الذين يحارون في تشخيص أمراضهم وعلاجها، وهناك يجد هؤلاء المرضى من العناية والرعاية، ما يلهج ألسنتهم بالدعاية الضخمة للمستشفى والقائمين بالعمل فيه!

وأخيرًا..رأى الدكتور وليام مايو أن ولديه النجيبين الشابين صارا

جديرين بأن يستقلا بإدارة المستشفى الناجح الكبير، فتركه لهما، وتفرغ للمهام السياسية والإجتماعية التي إضطلع بها بوصفه عضوًا في مجلس الشيوخ بالولاية وبقى كذلك حتى إعتزل العمل في المجلس في الرابعة والسبعين من عمره.

وكان أول ما صنعه الطبيبان الشقيقان بعد إستقلالهما بإدارة المستشفى، أن قررا تزويده بكل ما من شأنه أن يدعمه ويوسع نطاق الخدمات التي يؤديها، وعلى هذا الأساس المتين أخذا يضمان إليه كل نابه كفء من العلماء والأطباء والكيميائيين، ويزودانه بكل مستحدث من الأجهزة والآلات والأدوات!

وحرصا في الوقت نفسه على معاملة جميع المعاونين لهما أحسن المعاملة، بل حرصا على أن يكون عمل هؤلاء في المستشفى على أساس أنهم شركاء. وكان الدكتور هنري بالمر في مقدمة العلماء الأكفاء الذين إنضموا إلى المستشفى، فما لبث قليلًا حتى جعل من معامله أكبر مؤسسات علمية من نوعها، وصار في إستطاعتها أن تقدم مساعدات فنية لا يمكن تقدير قيمتها لعدد كبير من الأطباء والباحثين. وعلى مر الوقت تحول المستشفى من بضع غرف في الطابق الثاني من بناء المعهد الماسوني بالمدينة، إلى بناء مجمع ضخم يشغل مساحة كبيرة جدًا، وإلى جواره عشرات من الملحقات المنشأة على أحدث طراز، بين مصحات لإيواء المرضى، وأخرى للعناية بالناقهين، ومؤسسات للإستشفاء، وفنادق مختلفة لإقامة من شاء من النزلاء.

لم يكن النجاح العظيم الذي أحرزه الشقيقان مايو ليقعد بهما عن مواصلة الدرس والبحث، وقد زودهما ذلك بأصدقاء كثيرين من العلماء والأطباء في مختلف أنحاء أمريكا، كما بقيت صلاتهما وثيقة بكبار الأطباء الذين عرفوهما بالولايات الشرقية في مستهل حياتهما العملية، كالدكتور برايس فى فيلادلفيا، والدكتور هلستيد طبيب مؤسسة جون هوبكنس، وغيرهما من كبار الأطباء في نيويورك وبوسطن.

وكان لنجاحهما الباهر في كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق في نفوس الأمريكيين جميعًا، حتى لقد راجت عن نجاحهما هذا حكايات كثيرة أشبه بالأساطير، وحدث يومًا أن أرسل الدكتور «ول» إلى صحيفة طبية في إحدى الولايات الشرقية بحثًا ضمنه طريقة إبتكرها لعلاج المرارة بالجراحة، وكانت هذه الجراحة من التعقيد بحيث لم يصدق نجاحها رئيس تحرير الصحيفة، فلم ينشر البحث الخاص بها، وأعاده إلى صاحبه بالبريد!

مخترع أول آلة بخارية

هناك في مدينة «جرينوك» الصغيرة بأسكتلندة، ولد «جيمس وات» في ١٩ يناير سنة ١٧٣٦، وكان والداه الفقيران يختصانه بمزيد من حنانهما وعطفهما، لأنه أضعف أولادهما جسمًا، وأرقهم طبعًا، وأوفرهم ذكاء. وحينما حال ضعف صحته دون إلحاقه بالمدرسة كإخوته، تكفلت والدته بتعليمه في المنزل، فتلقى عليها مبادىء القراءة والكتابة والحساب، ووجد منها خير تشجيع على ممارسة هوايتيه المفضلتين وهما: الرسم، وإصلاح الآلات والأدوات المنزلية!

ومنذ السادسة من عمره، بدأ شغفه الشديد بكل ما يتصل بالعلم والمعرفة، فكان يمضي الساعات الطوال كل يوم في تأمل الأشكال الهندسية المختلفة، محاولًا رسمها بالطباشير الملون على جدار الموقد بالمنزل أو تكوينها بواسطة القطع الخشبية الصغيرة. كما كان يطيل التأمل في «غلاية الشاي» ومراقبة أثر البخار المتصاعد منها في غطائها، أو في ملعقة أو نحوها، يقربها من ذلك البخار. وفي الوقت نفسه كان ولوعًا بقراءة القصص الخيالية والإستماع لها، وروايتها لإخوته وأترابه بطريقة مشوقة جذابة، تدل على موهبة ممتازة في سعة الخيال وقوة الذاكرة وعذوبة الحديث!

طالب ممتاز

ولم يكن عجيبًا أن يبرز تفوقه على أقرانه الذين يتعلمون في المدرسة،

وما بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كانت ذاكرته العجيبة قد وعت ما قرأه في عشرات من الكتب العلمية المختلفة، وفي مقدمتها كتاب في فلسفة الطبيعة لم يكن يحسن فهمه من الكبار إلا قليلون!..وكان حريصًا على تطبيق ما يتعلمه، فأخذ لنفسه مصنعًا خاصًا بالمنزل، فصنع بعض أدواته وآلاته بنفسه، ومن بينها آلة كهربائية كان يحلو له أن يداعب أصدقاءه الصغار بصدماتها، كما صنع آلات عديدة لرفع الأثقال، ومضخات، وأصلح كثيرًا من الآلات والأدوات المستعملة في السفن، وحصل على معلومات فلكية قيمة.

رأى «جيمس وات» حين بلغ الثامنة عشرة من عمره أن رقة حال أسرته توجب عليه ألا يجشمها عناء إعالته، فسافر إلى «جلاسجو» ليتعلم هناك صناعة الآلات الرياضية، ووصل إلى تلك المدينة وهو لا يملك غير ملابسه التي عليه، وبعض أدوات النجارة التي حملها معه. وكان إغتباطه شديدًا حين أتيح له الحصول على عمل يقوم بأوده، في مصنع صغير لإصلاح شباك الصيد والقيثارات والصفارات وما إليها!

وبعد أيام، لقيه في جلاسجو قائد بحري سابق، كان صديقًا لأبويه، فأشار عليه بالسفر إلى لندن للبحث عن عمل أليق به وأكبر أجرًا، فسارع إلى العمل بهذه المشهورة. ومكث في العاصمة البريطانية أيامًا شقية بائسة، ثم وفق أخيرًا إلى الإلتحاق بورشة ميكانيكية يواصل الكدح فيها منذ الصباح حتى العشاء.

وما إنتهت تلك السنة حتى كان «جيمس وات» قد حذق الميكانيكا

وبرع فيها، فعاد إلى جلاسجو معتزمًا إنشاء مصنع لنفسه بها، ولكن نقابة الصناع في المدينة لم ترخص له في إنشاء المصنع المطلوب، بحجة أنه لم يمض المدة المقررة للتعلم والتدرب!..فكاد اليأس يستولي عليه، ثم رق له قلب أستاذ في الجامعة فأفرد له حجرة بها يمارس فيها صناعته المحببة، ويجري تجاربه لحسابه الخاص!

وصنع «جيمس وات» آلات كثيرة، لها مزايا لا يستهان بها، غير أن الإقبال عليها لم يكن كبيرًا، فإضطر لكي يعيش إلى التحول من صنع تلك الآلات الميكانيكية إلى صنع الآلات الموسيقية وإصلاحها، وفي سبيل ذلك درس نظريات الموسيقا وصناعة آلاتها المختلفة حتى أتقنها بعد أشهر معدودة، ووفق إلى صنع أرغن مبتكر نال كل الإعجاب ممن شاهدوه وجربوه!

دراسته لقوة البخار

وفي الثامنة والعشرين من عمره عرض عليه معمل الجامعة أن يقوم بإصلاح مضخة بخارية لإمتصاص المياه من مناجم الفحم، هي نوع من الآلة الهوائية التي إخترعها «توماس نيو كومن». فأتيحت له بذلك فرصة ثمينة لدراسة علمية عملية دقيقة، وبدأ يفكر في إختراع آلة تدور بقوة البخار! وفي هذه السنة نفسها تزوج بالآنسة «مرجريت ميللر» فوجد من إخلاصها له وإعجابها بعبقريته خير مشجع له على المضي في تنفيذ ذلك الإختراع!

قضى «جيمس وات» بضعة أشهر يواصل العمل ليل نهار في سبيل إختراع تلك الآلة الجديدة. كانت العقبات التي تعترض سبيله كثيرة، وفي مقدمتها فقره وقلة ما لديه من وسائل وأدوات لازمة لإجراء تجاربه المتعددة. وبرغم ذلك كله لم يجد اليأس إلى نفسه سبيلًا، وأخذ يستخدم الزجاجات العادية لحفظ البخار، ويستخدم لنقله أنابيب القصب وما إليها، ثم إستأجر حجرة أخرى وشرع في صنع الآلة المنشودة طبقا للنموذج الذي إبتكره.

وفيما هو منهمك في العمل، فوجيء بعقبة جديدة، هي موت مساعده الأول في وقت شدة الحاجة إليه. وكانت الديون قد تراكمت عليه لإنعدام كل إنتاج آخر في مصنعه، وساءت حال أسرته إلى حد كبير..على أنه تحامل على نفسه وواصل العمل بهمة لا تعرف الكلل حتى إنتهى من صنع الآلة..ولكنه ما كاد يشرع في تجربتها حتى إنهارت صروح آماله كلها، وأسفرت التجربة عن فشل تام، لا النقص في الفكرة التي بنى عليها إختراعه الخطير، ولكن لضعف الآلات والأدوات التي إستعملها في إخراجه مضطرًا.

كاد اليأس يقعده

وكاد اليأس يغلبه إزاء تلك الصدمة القاسية، ولكن زوجته الوفية عرفت كيف تعيده سيرته الأولى من الهمة والطموح والأمل، ولم يمض قليل حتى قبل الدكتور «جون رويبك» مؤسس مصانع حديد «كارون» أن يمد يد المساعدة للمخترع الشاب الفقير، فتولى تسديد ديونه، وكانت قد

بلغت خمسة آلاف دولار، وأشار عليه بالسفر إلى لندن للحصول على براءة بحق إختراع الآلة الجديدة، فحصل على هذه البراءة بعد جهد جهيد، ثم عاد إلى جلاسجو حيث شرع في صنع الآلة من جديد.

ومضت سنتان، بذل خلالهما «جيمس وات» كل ما في وسعه من قوة وحيلة لإنجاز إختراعه، وكانت العقبات التي إعترضت طريقه في هذه المرة أشد وأنكى، فالمستر روبيك غرق في الديون فلم يستطع الإستمرار في مساعدته، وزوجته الحبيبة الوفية توفيت فجأة تاركة له ثلاثة أولاد لا معين لهم سواه، لكنه مع هذا إستمر في جهاده، صابرًا على التعب والمرض والفقر، إلى أن إنتهي من صنع الآلة سنة ١٧٧١..

ثم كانت الصدمة الكبرى حين أسفرت تجربتها عن الفشل أيضًا، نتيجة لرداءة أسطوانتها، ولأن القطع التي إستطاع الحصول عليها لصنعها كان ينفذ منها الهواء والبخار، ولم يفد في علاجها سد خروقها بالفلين والخرق المشبعة بالزيت وكان أحيانًا لا يجد حتى هذه الخرق فيضطر إلى سد تلك

الخروق بقطع ينتزعها من قبعته! وكانت النتيجة لهذا الفشل الجديد أن عاد جيمس وات وهو في الخامسة والثلاثين من عمره إلى البحث عن عمل آخر يعول به نفسه وأسرته، فعمل مهندسًا مدنيًا.

نجاحه في اختراع الآلة البخارية

كان مستر «روبك» –شريك «وات» السابق– قد حدث عنه

صديقًا له من كبار أقطاب الصناعة في برمنجهام، هو المستر «متى بولتن motea Boulton» صاحب إحدى المؤسسات الكبرى لصناعة الساعات والأدوات المعدنية والزهريات المقلدة. وكان هذا بدوره يدرس آلات البخار ويؤمن بمستقبلها الباهر، فأخذ يفاوض «وات» للإتفاق معه على تنفيذ مشروعه في مؤسسته، على أن يعطيه ثلث ما يغله صنعها وبيعها من الأرباح.

وكان طبيعيًا أن وافق «وات» على هذا العرض، ولكن مستر «بولتن» بقى ثلاث سنوات بعد ذلك مترددًا في التنفيذ، فعاش «وات» خلال هذه السنوات معلقًا بين اليأس والرجاء! ولقى من المتاعب ما كان له أكبر الأثر في إزدياد ضعف صحته، على أنه سرعان ما تناسى ذلك كله حين بدأ تنفيذ الإتفاق، وتم صنع الآلة الجديدة وأسفرت تجربتها في هذه المرة عن نجاح باهر؟ ثم بدأت الطلبات تنهال على المؤسسة من جميع الأنحاء لشراء الآلة البخارية الجديدة!

وفي ذلك الحين، تزوج «وات» للمرة الثانية، وكانت زوجته الجديدة «أنا ماك جريجور» ربة بيت ممتازة، فإستطاعت أن تكفل له ولأولاده عيشة راضية.

وإزداد مستر «بولتن» تقديرًا لشريكه مخترع الآلة البخارية الأولى وإعجابًا بعبقريته وخلقه، حين رفض «وات» ما عرضته عليه الحكومة الروسية أن يعمل لحسابها، في مقابل خمسة آلاف دولار، وكان مثل هذا المبلغ يعد ثروة كبيرة في ذلك الحين!

بيد أن كثيرًا من المؤسسات والمصانع بدأت تنتج آلات بخارية رخيصة، تغمر بها الأسواق، مقلدة آلتهما المبتكرة. وعبثًا حاول الشريكان منع ذلك التقليد!

وفي خلال هذه المتاعب والمضايقات، كان «وات» يقضي الساعات الطوال كل يوم في معمله بالمؤسسة عاكفًا على تجاربه وأبحاثه لإخراج مخترعات جديدة أخرى. وقد وفق في ذلك الوقت إلى صنع آلة للطباعة ولكن الإقبال عليها لم يكن كبيرًا، لما شاع يومئذ من أن إستعمالها قد يؤدي إلى إنتشار التزوير!

آلة لطحن الدقيق

وفي ذلك الوقت أيضًا، أخذ «بولتن» يلح عليه في صنع آلة بخارية لطحن الدقيق، وقد تم صنع هذه الآلة على يد «وليام ماردوك» رئيس عمال المؤسسة، وكان مخترعًا ذا مواهب عظيمة، نشر فوائد الإضاءة بالغاز، وصنع أول نموذج للقاطرة، وإبتكر إستعمال جلد السمك لصنع الفراء بدلًا من الباغة. وقد حصل الشريكان «بولتن» و «وات» على حق إنتاج هذه الآلة الجديدة، وكلفهما صنعها ما يزيد على مائتي ألف دولار، وكان رواجها عظيمًا بعد أن جاهدا في سبيل ذلك أعظم الجهاد لتذليل العقبات.

وبعد ذلك بقليل، أخرج «وات» إختراعين جديدين كان لهما أكبر الأثر في تقدم الصناعات وهما: جهاز الحركة المتوازية « Parallel

motion» وجهاز التحكم في سرعة الآلة.

وفي سنة ١٨٠٠، إعتزل «وات» عمله في المؤسسة، وحول أسهمه فيها إلى ولديه: «جريجوري». و«جيمس» ثم أقام بمنزل شاده في «هينفيلد» على مقربة من برمنجهام.

وفي سنة ١٨١٩، توفي «جيمس وات» مخترع أول آلة بخارية عن ثلاثة وثمانين عامًا قضاها في جهاد متواصل لخدمة العلم والعالم.

موزع الصحف الذي صار أعظم عالم!

كان مولده مبعث حزن وشقاء ويأس لأسرته كلها، ففي ذلك الحين، سنة ١٧٩١، لم تكن حرفة الحدادة التي يكد أبوه طول يومه في ممارستها تدر عليه ما يكفي الأسرة حاجاتها الضرورية، حتى إنها إضطرت إلى مغادرة مسكنها المتواضع لعجزها عن دفع أجره الزهيد، وإستقرت في «حظيرة» مهجورة بجانب أحد الإسطبلات!

وكثيرًا ما تعرض وإخوته للموت تأثرًا بالبرد القارس الذي ليس لديهم ما يدفعونه به، بل كثيرًا ما تعرضوا للموت جوعًا، لعودة والدهم من عمله خالي الوفاض، أو برغيف واحد من الخبز اليابس الرخيص، يقسم على أفراد الأسرة.

ولما بلغ السادسة من عمره، ألحقه والده بمدرسة أولية مجانية تعلم تلاميذها مبادىء القراءة والكتابة والحساب، وقد أظهر الصبي ميلًا شديدًا إلى التعلم، وإستطاع أن يظل متفوقًا على أقرانه في خلال السنتين اللتين قضاهما بتلك المدرسة، ولكنه إضطر بعدهما إلى ترك الدراسة والإكتفاء بتحصيل ذلك القدر الضئيل من المعرفة، لكي يبحث لنفسه عن عمل يكسب منه ما يقتات به.

موزع للصحف

وكان العمل الأول الذي وفق الصبي إليه أن عمل لدى بائع الكتب

والصحف في لندن، فينهض مع فجر كل يوم ليحمل على كاهله الواهن حزمة ثقيلة من الصحف والكتب، ثم يمضي بها من شارع إلى شارع وسط ضباب لا يكاد يتبين طريقه فيه، لكي يطوف بالمنازل تاركًا صحيفة في أحد المساكن وكتابًا في مسكن آخر..وهكذا إلى أن يتم توزيع كل حمله الثقيل في نحو ساعتين، ثم يعود فيجمع ما وزعه صحيفة صحيفة، وكتابًا كتابًا، مع تحصيل الأجر المقرر لقراءتها، وهو بنس واحد عن كل نسخة، وأخيرًا ينتهي به الطواف إلى المكتب الذي يعمل فيه، فيسلم صاحبه صحفه وكتبه والبنسات التي قرئت بها، وسلمه هذا أجره الزهيد.

أمضى ميشيل عامًا كاملًا في ذلك العمل المرهق الذي لا يطيقه صبي مثله لم يبلغ العاشرة من عمره.وأعجب صاحب العمل بهمة موظفه الصغير وصبره الجميل، وبما تبين له من أمانته ووداعته وذكائه، فأعفاه من ذلك العمل المجهد الذي لا يلائم سنه وطبعه، وأخذ على عاتقه تعليمه صنعة تجليد الكتب، ليتيح له بإحترافها بعد ذلك عملًا أقل إجهادًا وأوفر أجرًا.

وفي أسابيع معدودة، ألم الصبي الذكي بدقائق حرفته الجديدة، وأخذ في ممارستها بنشاط وخبرة وحرص على السرعة والإتقان. وكان لزيادة أجره أثر محمود في تحسن صحته وحالة أسرته، مما أدخل السرور على قلبه. ولكن سروره كان أشد، لأن عمله الجديد هيأ له فرصة ثمينة طالما راودت خياله وتراءت له في أحلامه، وتلك أنه أصبح يجد متسعًا من الوقت لكي يقرأ ما يحلو له من الكتب والصحف، ويرضي بذلك نزعته وميله الفطري إلى الإطلاع.

كانت علوم الطبيعة، وما يتعلق منها بالكهرباء خاصة، أشد ما إستهوي قلب الصبي المحب للمعرفة وإجتذب مشاعره وآماله. وبدأ ولوعه بهذا النوع من العلم يشتد بعد أن قرأ كتاب «مناقشات العلوم» للأستاذ «مارستMarcet» وإطلع على بحث شامل عن الكهرباء في دائرة المعارف البريطانية. وفيما هو راجع إلى مسكنه بعد يوم حافل بالعمل الشاق، لفت نظره إعلان عن مجموعة من المحاضرات في التاريخ الطبيعي يلقيها الأستاذ «فتمان». وحز في نفسه أن الإستماع لكل من هذه المحاضرات حدد له رسم قدره نصف جنيه، وأفضى بهذا الأمر الذي أهمه وأحزنه إلى شقيقه «روبرت» الذي يكبره بثلاث سنوات ويعمل حدادًا كأبيه، فرثى هذا لحالته، ولم يسعه إلا معاونته على تحقيق هذه الرغبة، كما سمح له صاحب المحل الذي يعمل فيه بالتغيب عنه في مواعيدها، وتطوع أحد زملائه لإعطائه دروسًا في الرسم لكي يستطيع أن يوضح بالرسوم ما يسجله من مذكرات عن تلك المحاضرات!

وبعد قليل، إلتقى به في محل تجليد الكتب العالم المشهور «سير همفري» الأستاذ بالمعهد الملكي، فأعجب به إلى حد كبير، وسهل له دخول المعهد للإستماع لمحاضرات أربع ألقاها هناك. وما كاد ينتهي من إلقائها حتى تلقى من «ميشيل» رسالة رقيقة يشكر له فيها فضل تيسير إستماعه لتلك المحاضرات، ويشيد في تفصيل دقيق بما تضمنته من نظريات وملاحظاته ثم يرجو أن يجد من عطف العالم الكبير ما يساعده على الإلتحاق بأي عمل في المعهد، ليسهل عليه التزود بما يحتاج إليه من الدروس!

وكان «سير همفري» من العصاميين الذين شقوا طريقهم في الحياة بأنفسهم، فرق قلبه للصبي الفقير الطموح، وكتب إليه يعده بأنه سيعمل على إجابة طلبه بعد عودته من رحلة إعتزم القيام بها، وينصح له بمواصلة الدرس والبحث،

شعاع من الأمل

كان الخطاب الذي تلقاه «ميشيل» من سير «همفري» خير مشجع له على المضي في الطريق العلمي الذي إختطها لنفسه، فبدأ يخصص الجانب الأكبر من وقته للبحث والإطلاع وإجراء تجارب أولية في الكهرباء. على أن الظروف التي تلت ذلك كانت من القسوة بحيث قوضت كل ما شيده. لقد مات أبوه في تلك الفترة، فصار عليه أن يخلفه في إعالة والدته وإخوته الصغار، وإنتقل إلى العمل في محل لتجليد الكتب يملكه فرنسي مريض الأعصاب، أخذ يثقل عليه علاوة على العمل بألوان سخيفة من التعليمات والملاحظات، ويشتد في لومه وتعنيفه لأتفه الأسباب.

وفي ذات يوم، فوجيء الصبي بشعاع من الأمل شق ظلمة اليأس المحيطة به، ولم يكن ذلك الشعاع سوى بطاقة من سير همفري يدعوه فيها إلى موافاته في صباح اليوم التالي بمكتبه في المعهد. وأمضى ليلته لم يغمض له جفن، وكانت نتيجة المقابلة فوق كل ما تصور، فقد بشره العالم الكبير بأنه سيعينه «مساعد محضر» في العمل التابع للمعهد!

ولم يكن «سير همفري» في حاجة إلى وقت طويل لكشف ما للمساعد الصغير من مواهب و مزايا، وهكذا سرعان ما أولاه ثقته، وأخذ يعهد إليه في إجراء بعض التجارب الدقيقة التي يقوم هو بها في المعمل.

وما هي إلا شهور معدودة، حتى أتيحت لميشيل فاراداي فرصة ثمينة لم يكن يحلم بها، وكان لها أكبر الأثر في مستقبله وذلك أن سير همفري إصطحبه في رحلته التالية إلى مختلف أنحاء أوربا، وكانت رحلة طويلة إستغرقت زهاء سنة ونصف سنة، طاف خلالها مع أستاذه الكبير بمختلف المعاهد والمعامل والمؤسسات العلمية بالقارة، وشهد مئات من التجارب وإستطاع أن يقوم في المعمل بتجارب خاصة بأبحاثه المستقلة، كما أتيح له أن يلقي سلسلة من المحاضرات عن إكتشافاته الخاصة، إستمع لها كثيرون من المثقفين.

أول بحوثه العلمية

وفي السنة نفسها نشرت له مجلة «كوارترلي جورنال» العلمية أول أبحاثه عن «الجير الكاوي» ثم ستة أبحاث لخص فيها تجاربه في الغازات والمعادن. كما ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات، عن إكتشافاته العلمية في معمل المعهد ولم تكتمل السنة التالية حتى كان قد نشر سبعة وثلاثين بحثًا جديدًا، وأخرج كتابًا عن «خلط الصلب». وقدم المعهد بحثًا خطيرًا عن مركبين جديدين.

دخلت حياة «ميشيل فاراداي» في طور آخر بعد تلك الفترة التي

توالت فيها مظاهر نجاحه العلمي، وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره أو نحوها، وتعرف إلى فتاة مهذبة جميلة بادلها الإعجاب والحب، وكادت تجعل منه شاعرًا يدبج قصائد الغزل والتشبيب، لولا أن كلل ذلك الحب الضيف العميق المتبادل بالزواج العاجل السعيد، فعاد الزوج الشاب إلى تجاربه وأبحاثه العلمية.

وفي خلال السنين العشرين التي تلت ذلك، أصبح «ميشيل فاراداي» الذي بدأ حياته عاملًا فقيرًا لدى بائع صحف أعظم عالم في عصره، إذ أنتخب زميلًا في الجمعية الملكية، ودعاه معهد لندن إلى إلقاء إثنتي عشرة محاضرة عن إكتشافاته في الكيمياء، كما أنه ألقى ست محاضرات في الجمعية الملكية عن «الفلسفة الكيميائية» ونشر ستة أبحاث عن «المغناطيسية» ثم بدأ تنظيم محاضرات علمية مبسطة يلقيها بأسلوب جذاب على الأطفال، وصار الجميع يحرصون على الإستمتاع بالإستماع لهذه المحاضرات، من أكبر رجال البلاط الملكي، إلى أفقر العمال في الأحياء الشعبية.

الكشف الخالد

وأنتج في أثناء ذلك ١٥٨ بحثًا علميًا، وثلاثين مجموعة من التجارب الدقيقة الجديدة في الكهرباء. ثم بدأ أبحاثه في «المغناطيسية الكهربائية» إلى أن وفق أخيرًا إلى ذلك الكشف العظيم الخالد الذي أثبت به أن المغناطيسية تنتج الكهرباء، فكان ذلك إيذانًا بمولد عصر الآلات الكهربائية. ثم قدم بعد سنوات كشفين آخرين جليلين: أولهما الخاص

بسريان الكهرباء وهو الذي على أساسه بني نظام التليفون الحديث، والآخر هو الخاص بإثبات إختلاف أنواع الكهرباء.

وفي التاسعة والأربعين من عمره، شعر بتضعضع قواه بعد تلك الجهود الجبارة التي بذلها، فغادر لندن ومعه زوجته إلى رحلة في الخارج للراحة والإستجمام. وطالت هذه الرحلة إلى خمس سنوات، وقضى أكثرها في الريف، سعيدًا بمشاركة أهله البسطاء حياتهم. وما كاد يعود للندن بعد ذلك حتى إستانف جهاده العلمي في معمله الحبيب، فبدأ يبحث علاقة الكهرباء بالضوء، وعلى هدى هذه الطريقة العظيمة قدر للعالم أن ينتفع بالمصباح الكهربائي المتوهج، بعد سنوات على يد توماس أديسون!

الصياد الذي حرر إيطاليا!

كانت أمواج البحر الثائرة أول ما تفتحت عليه عيناه من صور الحياة، فلا عجب إن كان البحر والثورة هما أبرز الخطوط الرئيسية في لوحة حياته الخالدة، التي إمتدت ثلاثة أرباع قرن من الزمان، منذ مولده في «نيس» بجنوب فرنسا سنة ١٨٠٧، حتى أسلم روحه فيها سنة ١٨٨٢، وكانت تلك الأمواج الثائرة نفسها آخر ما رأته عيناه!

وما أبعد الفرق بين حال «جوسيبي غاريبالدي» في أخريات أيامه، حيث كان يتطلع إلى تلك الأمواج من نافذة منزله الجميل في الحديقة المزدهرة الغناء، وبين حاله في مطلع حياته وهو يتطلع إلى الأمواج في المنطقة نفسها من نافذة الكوخ الوضيع الذي نشأ فيه هو وأخوته مع والدهم الصياد الإيطالي الفقير! هناك في ذلك الكوخ، كان الطفل «جوسيبي» كثيرًا ما يشعر بالألم الممض من عضات البرد والجوع ورهبة الخوف من المستقبل المظلم المجهول، ومن الظلام الموحش الذي يمتد فيما وراء الأفق، وتلك الصخور والممرات الجبلية المحيطة بالكوخ!

ميلة للمغامرات

وقد طالما حلق خياله حينذاك في جو القصص العجيبة والمغامرات المثيرة التي كان البحارة يروونها عن رحلاتهم البعيدة الخطيرة، وود لو يتاح له أن يكون من أبطال تلك الرحلات، وأن تروي عن مغامراته أمثال تلك

القصص والأساطير. ولكن هذه الأمنية كانت أكبر من أن تحققها له ظروفه التعسة التي لازمت نشأته، فبقى حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره، دون أن يستطيع القيام برحلة خاصة به، يمضي فيها حيث يشاء، ويغامر كما يشاء، على أن رحلته الخاصة الأولى لم تكن على شيء من التوفيق، وتحول بعدها إلى قراءة الكتب العلمية والرياضية، وإلى الإستزادة من المعرفة باللغات المختلفة التي يعرفها قدماء البحارة، ثم لم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى خرج من تلك العزلة ليبدأ أولى رحلاته البحرية الحقيقية، بوصفه قائداً مساعداً للسفينة «كورتيزي»، التي كانت تتأهب للقيام برحلة تجارية إلى موانيء البحر الأسود!.

كان «جوسيبي غاريبالدي» قد شاهد «روما»، في إحدى الرحلات التي صحب والده فيها. وقد راعته آثار المدينة القديمة الخالدة في العاصمة الإيطالية حينذاك، وإستطاع –وهو الصبي الصغير الفقير– أن يلمس الفارق العظيم بين حياة الإيطاليين القوية الغنية في ذلك الماضي البعيد السعيد، وبين حياتهم الراهنة الذليلة البائسة، تحت نير الإستعمار والطغيان!

خطر القراصنة

وشاء القدر أن تتعرض السفينة «كورتيزي في رحلتها لخطر القراصنة الذين كانوا منتشرين في تلك المناطق البحرية حينذاك وقد أبلى «جوسيبي» وبحارة السفينة أحسن البلاء في الدفاع عن أنفسهم وعما تحمله سفينتهم من بضائع ومؤن، ولكن القراصنة عاودوا الهجوم عليها ثلاث مرات في

عرض البحر، وتمكنوا في المرة الثالثة من التغلب على المدافعين عنها بعد أن قتلوا وجرحوا كثيرين منهم، وهكذا نهبوا كل ما كان فيها حتى قلاعها وآلاتها، وتركوا الباقين من بحارتها على ظهرها، مجردين من كل سلاح، بل مجردين من أي طعام أو شراب أو كساء!.

وكان الفتى «جوسيبي غاريبالدي» من هؤلاء المساكين الذين تركوا ليهلكهم البرد والظمأ والجوع، أو لتبتلعهم الأمواج مع سفينتهم المخربة المنهوبة، ولم يكن هناك أي بصيص من الأمل في نجاتهم من ذلك المصير الرهيب، لكنهم مع ذلك إستمروا يكافحون في سبيل الحياة، وكتب لهم أخيراً أن يصلوا بسفينتهم المحطمة إلى القسطنطينية حيث أسعفوا بالماء والغذاء والكساء، ورثى لهم بعض زملائهم من بحارة السفن الراسية بالميناء، فألحقوهم بالعمل معهم في تلك السفن، إلى أن تحين الفرصة لعودتهم إلى وطنهم سالمين!.

على أن «غاريبالدي» لم يستطع مشاركة زملائه في ذلك الحل لمشكلتهم، فقد وقع فريسة لمرض شديد، إضطره إلى التخلف في القسطنطينية، حيث أواه بعض المهاجرين الإيطاليين، وسهروا على تمريضه وعلاجه، حتى كتبت له النجاة من ذلك المرض وإلتحق بالعمل في سفينة تابعة لملك سردينيا!.

إيطاليا الفتاة

أمضي «جوسيبي غاريبالدي» في عمله البحري الجديد زهاء خمس

سنين، طاف خلالها بكثير من بقاع العالم، وواجه كثيراً من العواصف والأخطار. ولكن حب الحياة البحرية بقى مسيطراً على قلبه، وفي الوقت نفسه كان عقله دائم التفكير في حال وطنه وما آل إليه من فقر وهوان، وفيما يمكن أن ينقذ هذا الوطن ويحرره من نير الظلم والطغيان!.

وعقد في ذلك الحين «مؤتمر فينا». وأخذ المؤتمرون المنتصرون يمعنون في تقطيع أوصال الوطن الإيطالي المغلوب على أمره، ويقتسمون مناطقه فيما بينهم، فكانت «لومباردي» و«فينيسيا» من نصيب النمسا، وكانت «بارما» و«لوكا» من نصيب ماري لويز، وضمت صقلية بقسميها إلى فرديناند الثاني.

وعز على «غاريبالدي» أن يقف مكتوف اليدين إزاء هذه المظالم الفادحة التي نزلت بوطنه الحبيب، وكان على يقين من أن الموت أو السجن هما نصيب كل إيطالي تحدثه نفسه بالوقوف في وجوه الطغاة الأقوياء المنتصرين، أو المجاهرة بمعارضة ذلك التقسيم الذي قرروه في مؤتمرهم المذكور. لكنه رأى الموت والسجن أحب إليه من التسليم بذلك التقسيم المهين، ثم هداه بحثه هذا الأمر إلى المبادرة بالسفر إلى «جنوا» حيث إشترك في العمل مع محام شاب من أهلها هو «جوسيبي مازيني» كان قد أنشأ جمعية باسم «إيطاليا الفتاة» للعمل على إنقاذ البلاد وجعلها جمهورية حرة مستقلة.

وفيما كان القائدان الشابان يستعدان لبدء التنفيذ، وشى بهما خائن من أعضاء الجمعية إلى السلطات المحتلة، فتمكنت من إحباط تلك

المؤامرة، وإعتقلت كل من كانت لهم صلة بها ثم أرسلتهم إلى المشنقة.. ولكن «غاريبالدي» تمكن من النجاة بروحه، وفر متنكراً في ثياب ريفية عبر ممرات الجبال السويسرية، ثم تمكن من السفر على إحدى السفن إلى جنوب أمريكا ، حيث إنضم إلى مواطنيه المهاجرين في «ريو دي جانيرو». ولقى من تقديرهم ومساعدتهم له ما مكنه من شراء سفينة صغيرة أخذ يستغلها في التجارة على طول الساحل هناك!.

الثورة من أجل الحرية

لم يكن «غاريبالدي» لتشغله غربته عن أهله ومواطنيه الغرباء في ديارهم، وقد تأصل في نفسه حب الحرية والثورة في سبيلها، حتى لو كانت هذه الحرية لشخص آخر أو لوطن غير وطنه. وعلى هذا ما كادت جمهورية «ريو جراندي» تثور على البرازيل لإسترداد حريتها، حتى إندفع إلى التطوع للإشتراك في هذه الثورة، وأعد سفينة حربية صغيرة لهذا الغرض، أطلق عليها اسم «مازيني» زميله في الجهاد، ودرب على العمل معه فيها نخبة من الثوار المجاهدين، وكللت مغامراتهم الأولى بنصر باهر، إذ تمكنوا من أسر سفينة معادية كبيرة وإستولوا على حمولتها الثمينة من النحاس، ولكن مغامرتهم التالية لم يقدر لها النجاح، وإنتهت بوقوعه ورجاله جميعاً في الأسر، بعد إصابته في المعركة بجرح بليغ.

وطال أمره شهوراً عديدة، قاسى فيها ألواناً من العذاب الشديد، لكنه ما كاد يظفر بحريته بفضل مساعي إحدى السيدات حتى خف إلى «يو جراندي» ليواصل كفاحه المجيد مع أبنائها الثائرين الأحرار؟.

وهناك في تلك المدينة التي إتخذها وطناً ثانياً، وجد الزوجة التي تليق بمجاهد ثائر حر مثله، وهي مجاهدة جميلة قوية الشخصية من أسرة عريقة، كما وجدت فيه هي فارس أحلامها المنشود، وهكذا كان «غاريبالدي» وزوجته «أنيتا» مثلًا أعلى للشريكين الوفيين المتعاونين في الحياة الزوجية، وفي ميدان الكفاح ضد الطغيان والإستبداد.

في ميدان التحرير

رأى غاريبالدي بعد ذلك أن من حق أسرته الصغيرة عليه أن يتيح لها شيئاً من الراحة والهدوء، فإنتقل بها إلى مدينة «مونتفيديو» حيث إشترى منزلًا بسيطاً هناك، وأخذ يعمل في التدريس. على أنه لم يقطع صلته بإخوانه المجاهدين الأحرار أفراد الفرقة الإيطالية التي إشتهرت بمغامراتها الجريئة وأعمالها المجيدة في كفاح التحرير بجنوب أمريكا.

ولم يمض على ذلك قليل حتى كانت هذه الفرقة بقيادته قد برزت إلى القتال في ميدان جديد، هو ميدان النضال لتحرير جمهورية أورجواي. وسرت أنباء الفرقة مسرى الكهرباء حتى سمع العالم كله بأمرها وأعجب بها، وما كادت الحرب تنتهي بإنتصار جمهورية أورجواي حتى سارع شعبها إلى تكريم غاريبالدي وفرقته، وقرر منحه رتبة جنرال، ومنح فرقته قطعة كبيرة من الأرض ولكن غاريبالدي رفض في شمم وأباء أن يأخذ أي أجر أو مكافأة لقاء جهاده وفرقته وقال لمن ألحوا عليه في قبول تلك الهدية:

– إن قبولها يتنافى مع أول مبادئنا وهو الجهاد في سبيل الحرية، ولا شيء غير الحرية!

في ذلك الحين، كان غاريبالدي قد بلغ الحادية والأربعين من عمره، ومضت إحدى عشرة سنة على مغادرته وطنه الأول إيطاليا هرباً من المشنقة!.

وترامت إلى سبعة أنباء طريفة سارة، عن إستعداد «شارل ألبرت» ملك سردينيا لمنح شعبه حرية دستورية تساعده على التحرر من النير النمسوي الثقيل. فآمن الثائر الطريد أن قد حانت ساعة عودته لوطنه البعيد كي يستأنف العمل لتحريره، وإختار من أفراد فرقته ستة وخمسين رجلًا، أبحر بهم وبأسرته إلى «نيس» على سفينة أعدها لهذا الغرض وأطلق عليها اسم «الإسبيرانزا».. أي الأمل! وكان يرفرف فوق ساريتها علم سرديني صنعته زوجته من ملاءة بيضاء وقميص أحمر وحلة قديمة خضراء!.

على أن «شارل ألبرت» ملك سردينيا، خشي على عرشه من غاريبالدي ذي الميول الجمهورية المتطرفة، فرفض تطوعه للجهاد بفرقته في الكفاح مع شعبه ضد النمسوين.

وكانت الصدمة عنيفة قاسية، ولكن غاريبالدي ورجاله ما لبثوا قليلًا حتى وجدوا أمامهم ميداناً أرحب وأكرم لإبراز مواهبهم ومزاياهم، ففي ٢٨ من إبريل سنة١٨٤٩, أعلنت الجمهورية في روما نفسها، وهب شعبها يدافع عن إستقلاله وحريته، فسارع غاريبالدي إلى هناك، وإنضم وفرقته المشهورة إلى القوات الشعبية، للدفاع ضد الجيوش الجرارة التي أرسلها لويس نابليون من فرنسا وإمبراطور النمسا لتأييد البابا بيوس التاسع وإخماد ثورة الإيطاليين.

وإستمرت الحرب ثلاثة أشهر، ثبت فيها غاريبالدي وفرقته في النضال مع

شعب روما ثبات الجبال، وإنتقل القتال من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى منزل، ولكن المجاهدين الأحرار كانوا أقل عدداً وعدة، وهكذا لم تستطع قوات الجمهورية الشعبية أن تواصل الصمود أمام الجيوش الفرنسية والنمسوية، فإستسلمت في النهاية، ودخل البابا روما مرة أخرى ليستأنف حكم شعبها بقوة الحديد والنار، ولكن غاريبالدي أبى وحده أن يذعن لهذه النهاية الذليلة، فقرر الإنتقال بفرقته وأسرته إلى البندقية وفينيسيا، ليستأنف كفاحه في سبيل تحرير الشعب.

وما أقبلت سنة ١٨٥٩ حتى حانت الفرصة التي طالما تمناها «غاريبالدي٩.. إذ أعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا، وهب الشعب الإيطالي بقيادة السياسي العظيم «كافور» لتحرير نفسه من النير النمسوي الثقيل، وسرعان ما دعاه «كافور» وعينه قائداً للقوات الإيطالية الشعبية في جبال الألب. وحمى وطيس المعارك بين الإيطاليين والنمسويين، ولمع اسم «غاريبالدي» في جميع الميادين بفضل ما أبداه من ضروب الجرأة والبسالة والخبرة بفنون القتال.

ولم تجد النمسا مناصاً من الجلاء عن «لومباردي» التي قاد غاريبالدي صفوف المقاتلين من أبنائها الأحرار، وعلى أثر ذلك سارع على رأس فرقته إلى صقلية لتحريرها من حكم الطاغية فرنسيس بن فرديناند الثاني، وسارع الصقليون جميعاً إلى الإنضواء تحت راية محررهم المحبوب، وكلل جهاده بالفوز المبين. وأصبح الشعب الإيطالي كله يهتف باسمه ويمجده مشيداً ببطولته، ولو أنه شاء في ذلك الحين أن يكون دكتاتوراً لإيطاليا لبايعه الشعب على ذلك بالإجماع، ولكنه آثر أن يعود إلى حياته البسيطة الهادئة في جزيرة «كابريرا» بعد أن حرر صقلية وأسلمها

إلى رعاية «فيكتور عمانوئيل» ملك إيطاليا في ذلك الحين!.

إنتصار الحرية

بقى «غاريبالدي» فترة غير قصيرة يترقب أمر الملك بالزحف على روما وإعلانها عاصمة للبلاد، ونفد صبره أخيراً، فتولى هو نفسه أمر ذلك الزحف، على رأس ثلاثة آلاف من جنود فرقته المشهورة. وشد ما كانت غضبة الشعب حين تصدى الملك لوقف ذلك الزحف خشية إغضاب فرنسا، وأرسل قواته الملكية فأحاطت بالفرقة الزاحفة وأسرت قائدها، بل قائد جهاد التحرير، ولم يسع الملك إزاء ثورة الشعب إلا أن يطلق سراح غاريبالدي من السجن الذي وضع فيه، فعاد إلى حياته بالجزيرة، ثم زار إنجلترا في سنة١٨٤٦ فقوبل فيها بأبلغ الحفاوة والترحيب. وما كاد يعود من رحلته حتى عاودته فكرة الزحف على روما وما لبث أن حاول تنفيذها للمرة الثانية في سنة١٨٦٧, ولكن الحظ خانه في هذه المرة أيضاً، وإنتهى الأمر بأسره والزج به في السجن من جديد!.

وأخيراً، قدر لأحلام غاريبالدي أن تتحقق فجأة، فحاقت الهزيمة بجيوش نابليون الثالث في «سيدان٨ وإنسحبت الفرقة الفرنسية من روما، فدخلها الملك فيكتور عمانوئيل، دون أية مقاومة، وأعلنها عاصمة لإيطاليا!.

الفهرس